فلسطين بين تحدي الوجود وثقافة التحدي

[مطالعات في أدب المقاومة وثقافتها]



د. صالح خليل أبو أصبع



طبع بدعم من وزارة الثقافة
2009



فلسطين بين تحدي الوجود وثقافة التحدي

مطالعات في أدب المقاومة وثقافتها

إهداء :

إلى جيل عربي قادم

يصنع لأمتنا العربية الوحدة والحرية والعدل

والتحرير لفلسطين من النهر إلى البحر

الدكتور صالح خليل أبو أصبع

فلسطين

بين تحدي الوجود وثقافة التحدي

[مطالعات في أدب المقاومة وثقافتها]



طبع بدعم من وزارة الثقافة

2009



المملكة الأردنية الهاشمية

رقم الإيداع لدى دائرة المكتبة الوطنية (3784 / 8 /2009)

306

أبوأصبع، صالح خليل

فلسطين بين تحدي الوجود وثقافة التحدي : مطالعات في أدب المقاومة وثقافتها / صالح خليل أبوأصبع .- عمان : دار البركة للنشر والتوزيع ، 2009

( ) ص

ر.ا : (3784 / 8 /2009)

الواصفات : التاريخ/ النقد الأدبي / التحليل الأدبي /اتصال جماهيري

أعدت دائرة المكتبة الوطنية بيانات الفهرسة الأولية

يتحمل المؤلف كامل المسؤولية القانونية عن محتوى مصنفه

ولا يعبر هذا المصنف عن رأي دائرة المكتبة الوطنية أو أي جهة حكومية أخرى

ISBN 978 - 9957 – 414 – 79 - 5 (ردمك)



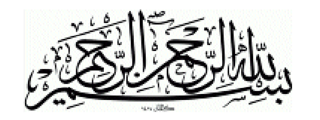
دار البركة للنشر والتوزيع

ص.ب 11947.1432 عمان/ الأردن

هاتف جوال. (5527822 – 79 - 962 +) تلفاكس (5054540 – 6 - 962 +)

E. Mall: darelbaraka@yahoo.com

الفهرس



كلمة أولى : توطئة

يشتمل هذا الكتاب بين دفتيه مجموعة من الدراسات المتفرقة التي إن اختلفت في طبيعتها إلا أنها تظل تحمل رؤية واحدة هي رؤية كاتبها.

ويأخذ البعض على كثير من الكتّاب أنهم يستسهلون جمع مقالات لهم متفرقة ومبثوثة في الدوريات أو تم تقديمها في مؤتمرات علمية، ومن ثم إصدارها في كتاب. وإذا كان هذا الأمر يعتبر مأخذاً فإن هذا العمل لا يخلو منه. ولعل من فوائده توفير مشقة البحث عن الدراسات المنشورة في مواقع عديدة .

ولا أختلف مع أولئك الذين يطالبون الكاتب بمنهجية واضحة، ولكنني أيضاً لا أرى مانعاً أن يقدم لنا الكاتب دراسات متنوعة في كتاب واحد ، إذا كانت دراساته ذات صلة بموضوع يوحدها. لأنها وإن تنوعت ؛ فإنها ستحمل رؤية مؤلفها النقدية ووجهة نظره ،.فهي توفر على القارئ مؤونة البحث عن مواضيع تهمه وقد لا يجدها يسهولة، وخصوصا إذا كانت مساهمة في ندوة أو مؤتمر أومحاضرة عامة لاتقوم الجهة الراعية للنشاط بطباعتها .

وهذا الكتاب في جملته هو قراءات في الأدب المقاوم والثقافة الفلسطينية ، بحيث يشمل نظرات نقدية تعتمد التحليل لمجموعة من نصوص السرد

العربيـة والشـعر العربـي المقـاوم، و ثـلاث دراسـات معنبـة بالهويـة النضـالية للشعب الفلسطيني في مواجهة عدو يزيف التاريخ، ويعمل على طمس الهوية للشـعب العربـي الفلسـطيني، مثـل الدراسـة الـتي تناولـت فلسـطين الحـق والتـاريخ: التحدي الأخلاقي لعالم اليوم والمستقبل ، والدراسة التي تناولت الثقافة الفلسـطينية والتحـدي مـن أجـل البقـاء، والدراسـة الـتي تناولـت دور الأدب في بلورة الشخصية الوطنية للشعب الفلسطيني.

وفي إطار الحركة النقدية في الوطن العربي، تظل هذه الدراسات وجهة نظر فحسب، آمل أن تُثير حواراً، وإن حققت ذلك فقد أنجزت القصد.

ولا يفوتني أن أتقدم بجزيل الشكر لكل من ساعد في إنجاز المخطوط ، وأخـص بالـذكر الـدكتور حسـن عليـان والـدكتور يوسـف ربابعـة اللذين راجعاه ، وإلى السيدة رغدة العيساوي والآنسة منتهى الشامي اللتين تحملتا عبء رقن المخطوط وتصحيحه.

فللجميع الشكر على ما بذلوه من جهد .

صالح خليل أبوأصبع

23 تشرين أول – أكتوبر **2009**

عمان- الأردن

الباب الأول :

في الثقافة

- **الفصل الأول : فلسطين الحق والتاريخ**
- **الفصل الثاني : الثقافة الفلسطينية والتحدي من أجل البقاء**
- **الفصل الثالث : دور الأدب في بلورة الشخصية الوطنية للشعب الفلسطيني**

(نحن الإنكليز لا ننتظر أن نسكن ألمانيا، أو ندعي ذلك لمجرد كون أجدادنا "الأنكلوسكسون" عاشوا هناك أياماً ، ولا نسمح "للولش" (Welsh) أن يمتلكوا إنكلترا، بناء على أنهم كانوا هنا قبلنا. إنها لفكرة مضحكة.

إن مكوث أمة ألفا وثلاثمائة سنة في أرض من الأراضي يخول لها الحق الكامل بامتلاكها امتلاكاً لا يحتمل الجدل والنزاع ،ولم يحدث هذا مع الأسف إلا في فلسطين)

الكاتبة الانكليزية ميود ريدن (Meude Reyden)

الباب الأول

الفصل الأول

فلسطين الحق والتاريخ :

التحدي الأخلاقي لعالم اليوم والمستقبل

مدخل :

فلسطين هذا الاسم الذي تُثار مع نطقه جملة من المشاعر وتنطلق إلى الأذهان العديد من الصور.

فلسطين هي أرض العرب التاريخية منذ الكنعانيين حتى أحفادهم العرب الفلسطينيين أبناء القرن الحادي العشرين.

وفلسطين هي الأرض المقدسة عند المسلمين والمسيحيين واليهود، وهي مهبط الأنبياء، وفلسطين هي الأرض الجريحة المغتصبة التي على ثراها اغتيل العدل ، وشرّد أهلها ، وطُرد معظم شعبها وظل الباقون على أرضهم يعانون قساوة الاحتلال وظلم الغاصبين.

أية قضية في القرن العشرين- وما قبله من قرون- شهدت غرائب الأحداث وعجائب الرجال الذين يصنعون الأحداث ؟!

❖بلفور الإنجليزي يعطي وعداً لليهود بإقامة وطن قومي لهم في فلسطين العربية!!

❖ ومناحيم بيجن البولندي الإرهابي القاتل وأرئيل شارون مرتكب المجازر يصبحان رئيسان لمجلس وزراء الوطن القومي الموعود لليهود من قبل الإنجليز...!

❖ والسادات رئيس جمهورية مصر ... يوقع اتفاقية مع مناحيم بيجن فيسلم للصهاينة بحقهم في الوجود ، منكرا بذلك حق الشعب الفلسطيني بعودته إلى دياره في يافا وحيفا واللد والقدس!

❖ وتقوم ستة حروب في أقل من خمسين عاماً، ويسقط فيها من العرب عشرات الآلاف من الشهداء ويستولي الغزاة على أراض عربية جديدة.

❖ ويقوم الثوار الفلسطينيون بعمليات جريئة داخل الأرض المحتلة لأنهم صمموا على العودة إلى أرضهم أحياء أو شهداء.

❖ ويقف العالم كله مع الحق الفلسطيني ، وتعترف الأمم المتحدة بالحق العربي في فلسطين وبمنظمة التحرير الفلسطينية كممثل شرعي للشعب الفلسطيني.

❖ وتدين الأمم المتحدة الصهيونية كحركة عنصرية ، وعلى الرغم من ذلك تقف الولايات المتحدة داعمة ومساندة للكيان الصهيوني ، وتعلن مسؤوليتها عن الحفاظ على الكيان الصهيوني ،ومتجاهلة الحق العربي في فلسطين.

❖ وتشتعل الانتفاضة في الارض المحتلة

❖ ويتم توقيع اتفاقية أوسلو .

هذا كله يجري ، وكأن ما يجري ليس سوى رواية درامية مأساوية ينظر العالم إليها متفرجاً أو متلذذاً بمأساة الشعب الفلسطيني.

ويتساءل البعض لماذا على الرغم من توقيع معاهدات السلام لم يتحقق السلام ؟ وقد يظهر هذا التساؤل حاملاً معه شكلاً من أشكال البراءة حينما يطرح هؤلاء التساؤل بصورة أخرى هي: لماذا يرفض العرب السلام؟

وكأنهم لا يريدون لفصول المأساة أن تنتهي؟

نعم نريدها أن تنتهي ، ولكن على ألا تكون عبارة عن تجفيف دموع.. بل نريدها إنهاءً لأسباب المأساة، هل يحققون ذلك؟

إن العرب لا يرفضون السلام، ولكن أي نوع من السلام نقبل؟ وماذا يقبل العرب من اتفاقيات كامب دافيد ومعاهدات السلام؟

ولكن لازال الشعب الفلسطيني يعاني وأراضيه تبتلعها المستوطنات الغسرائيلية و ويحاصر المواطنون الفلسطينيون بالجدار العازل وتمزيق وحدة التراب بالحواجز ونقاط التفتيش الإسرائيلية والطرق الالتفافية ؟

نعم العرب يطلبون السلام، ولكنه السلام القائم على العدل، وغير ذلك هو ما يرفضونه، إنهم يقبلون بتحرير أراضيهم، وأراضيهم ليست هي المحتلة بعد عام 1967م فحسب. وهم يقبلون بقرارات الأمم المتحدة الخاصة بعودة اللاجئين إلى ديارهم ، وبحق تقرير المصير، واستعادة حقوقهم الثابتة غير القابلة للتصرف في فلسطين، ويقبلون بقرار الأمم المتحدة الذي اعترف بحق الشعب الفلسطيني باستعادة حقوقه بكل الوسائل ومن ضمنها الكفاح المسلح. إن هذا هو السلام الذي يقبله العرب ليقيموا على أرضهم آنذاك فلسطين الديمقراطية، التي لا تمييز فيها بسبب الدين أو اللون أو المعتقد. أما الغزاة فليس مكانهم في الأرض العربية، وهذا حق مشروع للعرب أن يؤمنوا به كما تؤمن به كل الشعوب.

وهذا الفصل ليس إلا جولة قصيرة تسير بنا مع الصهيونية في نشأتها، ونشأة هذه الدولة المصطنعة التي قامت على أسس عقائدية خاطئة، مدعمة بالإمبريالية العالمية، ومنتهجة أسلوب العنف والتوسع في وجودها، والعنصرية والعدوانية في سياستها،ونشأتها إنما هي وليدة ظروف غير طبيعية تقوم على العدوان والظلم. وإذا كانت أداة الظلم والعدوان هي القوة ، فإن العرب يدركون كذلك أن تحرير وطنهم ليس له من سبيل إلا القوة. ففلسطين العربية هي فلسطين الحق والعدل.. والطريق إليها لن يكون سوى طريق يوحد أرضها من النهر إلى البحر.

أسطورة الحق التاريخي

من أحدثكم عنه يبلغ ستين عاماً، هو صورة ناطقة لكنها شاحبة عن إحدى نقوش المسجد الأقصى وأيقونات كنيسة القيامة.. إنه يتمنى أن يعود إلى فلسطين حيث وُلد وأُجبر على الخروج في عام 1948، لكنه لم يستطع القيام بذلك، إن أبويه ما زالا يقيمان هناك بالقدس المحتلة التي نزحا إليها من يافا، ولديه رغبة تعتمل في صدره وتدفعه إلى أن يشرح مرارته لجميع البشر الأذكياء، أصفياء الذهن واللامبالين إذ إن ذاكرتهم غالباً ما تكون انتقائية، وشجاعتهم تابعة لاختيارهم.

إن معنى فلسطين عنده هو السماح له بأن يأتي إلى يافا مسقط رأسه، أن يزور أبويه اللذين حرم من زيارتهما منذ عدوان 1967، وأن التنكر لذلك هو تنكر لحقيقة فلسطين. هو تحويل هذا البلد إلى ثكنة عسكرية عنصرية، إنه طمس لمعالم النور.

إن العدل يقضي بأن يتمكن صاحبنا من العودة إلى فلسطين، هذا إذا كان لا يزال على الأرض بقية من عدل، إن مكان هذا الكهل والفلسطينيين الآخرين

الذين سيولدون بعده ، هو في داخل بلدهم فلسطين، وإنه لمن العبث أن توسم إسرائيل بسمة الديموقراطية نظراً لهذا الواقع.

إن هذا النص لم يتم فيه إلا تحوير بسيط يكاد يقلب المسميات وعودتها إلى أسمائها الحقيقية. إن هذا النص للصهيوني "إفرايم تاري[1] وقد جاء به ليستثير عواطف قرائه، ولكن إذا كان الأمر متعلقاً بالعاطفة فحسب فإن اجترار الذكريات ليس كفيلاً باستدرار أية عاطفة، إذ إن الفلسطينيين اليوم يعانون - كما نرى - التهجير عن وطنهم ، ويعيشون في مخيمات بعيداً عن ديارهم، وتطاردهم قوات الصهاينة قتلاً ونسفاً بالطائرات والمدافع والدبابات والقنابل الانشطارية.

ذلك كله يمارس يومياً ونشاهده يومياً . ويعيش الفلسطينيون مأساة تشتت العائلة الواحدة التي لا تستطيع العودة إلى ديارها وزيارة أقاربها إلا بتصاريح ذات إجراءات معقدة من الصهاينة.

إذن استدرار العاطفة يمكنه أن يجمد العقل لحساب الأقدر على إيصال رأيه، لقد ذكر **موشي سنه** عضو الحزب الشيوعي الإسرائيلي : "أن ما هو بيّن لكل ذي عينين هو أن إسرائيل شكّلت نقطة تجمّع لليهود الهاربين من الاضطهاد والتقتيل والناجين من حملات الإبادة النازية، أفتكون إسرائيل من ناحية الحقيقة التاريخية، واحدةً من آثام العنصرية، أم هي أحرى بأن تعتبر تعويضاً عن الجرائم التي ارتُكبت بحق ضحايا العنصرية[2].

إن هذا المنطق يثير العاطفة حقاً ، وخاصة لأولئك الذين يمكنهم أن يشعروا بعقدة الذنب. ولكن هل لنا أن نسأل: هل يمكن أن يكون محو آثام العنصرية والتعويض عن الجرائم، باقتراف جريمة جديدة في حق الشعب العربي الفلسطيني؟؟

هذا تساؤل لن يجد لدى الصهاينة سوى الإنكار... فهم الحمائم وهم قد عادوا إلى وطنهم... الذي يمتلكونه لمبررات تاريخية. إذن لتكن لنا رحلة مع التاريخ:

رحلة مع تاريخ فلسطين :

يقول "موشيه سنه": ففلسطين هي وطن الشعب اليهودي تاريخياً كما أنها قد أصبحت خلال العصور وطن الشعب العربي، أما الحقبة التي تؤول إلى اليهود من هذا الوطن المشترك فهي على وجه الدقة دولة إسرائيل[3]. يا للسخرية، لقد كان موشيه سنه دقيقاً في تحديده لحصة اليهود التي حددها بدقة على أنها دولة إسرائيل التي لا حدود لها؟ كما أن قوله هذا يستدعي منا الوقوف أمامه، إذ أنه يرجع إلى التاريخ ، وهذا ما نطمح أن نشير إليه ببعض الحقائق... إنه يعترف بأن هناك علاقة تاريخية لشعبين في هذه المنطقة... العرب واليهود، وهو يؤكد بأنها كانت خلال العصور وطن الشعب العربي ولكنه لم يُشرْ كم من القرون بقيت لليهود، وكم بقيت من القرون الطويلة والمتصلة هي وطن الشعب العربي.

إن ادعاء الحق التاريخي يحتاج تفنيداً لأسس الفكرة الصهيونية ذاتها، ولكن، قبل ذلك هل لنا أن نستمع إلى صوت الكاتبة الإنكليزية مود ريدن (Meude Reyden) وهي تقول:[نحن الإنكليز لا ننتظر أن نسكن ألمانيا أو ندعي بذلك لمجرد كون أجدادنا "الأنكلوسكسون" عاشوا هناك أياماً ، ولا نسمح "للولش" (Welsh) أن يمتلكوا إنكلترا، بناء على أنهم كانوا هنا قبلنا. إنها لفكرة مضحكة.

إن مكوث أمة ألفا وثلاثمائة سنة في أرض من الأراضي يخول لها الحق الكامل بامتلاكها امتلاكاً لا يحتمل الجدل والنزاع ولم يحدث هذا مع الأسف إلا في فلسطين][4].

ولعل ما أورده ديميرون بعد حرب 1967 بلهجة ساخرة يستحق النظر حين يقول:

["إنه إذا كان لليهود حق في فلسطين بعد مضي 20 قرناً على طردهم منها بواسطة الرومان، فمن السهل أن نتصور بدون مشقة أن العرب الذين طردهم الصهيونيون منها منذ عشرين سنة فقط بما يتعلق بالبعض ولم يمض على طرد البعض الآخر منهم، سوى عشر سنوات، كما لم يمض سوى بضعة أسابيع على طرد فريق أخير منهم. لهؤلاء العرب حقوق في فلسطين ما لم يشرّع هؤلاء العرب بداهة مثل اليهود، عقب مأساتهم، في البحث عبر العالم عن أرض أخرى محملة بالذكريات والرسالات. ولم لا تكون الأندلس مثلاً هذه الأرض التي يقصدونها وهي التي كانت مزدهرة كل الإزدهار في العصر الإسلامي، وسرعان ما تحولت إلى البؤس بعد إعادة فتحها؟ وكذلك فقد كانت غرناطة ما تزال إسلامية منذ أقل من 500 عام ، وأن جامع قرطبة وقصر الحمراء زاخران بالذكريات ذات المكانة العظيمة ، شأنهما في ذلك شأن بقايا جدار المعبد الذي يعتبر سبب العودة][(5)]".

يؤكد التاريخ أن فلسطين عربية من خلال حقائق لا يمارى فيها، فقد أكدت التوراة نفسها أن فلسطين هي أرض بني كنعان، تلك القبائل التي هاجرت منذ أكثر من أربعة آلاف سنة إلى فلسطين من الجزيرة العربية، وظلّت تعمر بسكانها العرب أثناء التقلبات التاريخية والحروب التي دارت على ترابها ، وأن أهلها لم يغادروها أثناء فترات الاحتلال الأجنبي حتى في الزمان التي أقيمت فيه الدولة اليهودية أثناء حكم داوود وابنه سليمان. وكذلك يشير التاريخ إلى أن الحكم اليهودي لفلسطين كان على فترات متقطعة لا يزيد مجموعها عن أربعة قرون وانتهت تماماً في عام 135 بعد الميلاد.

لـن نسـتطرد في إيـراد الحقـائق التاريخيـة الـتي تؤكـد اسـتمرار وجـود الفلسطينيين على أرضهم سواء كان ذلك امتداداً لأجدادهم من الكنعانيين واليبوسيين أم كان ذلك امتداداً لأحفادهم العرب، الذين جاؤوا مع الفتح الإسلامي. ولكن التاريخ يؤكد بشكل قاطع أن اليهود ككيان سياسي لم يعد لهم وجود في فلسطين بعد عام135 بعد الميلاد. وتؤكد كتب التاريخ استمرار الوجود العربي منذ ذلك التاريخ إلى يومنا هذا ،وجوداً متصلاً ممتلكين لأرضها ، ودامغينها بصبغتها العربية وهذه الصبغة الطويلة والمتصلة للأرض هي أساس شرعي ومعنوي لا يقبل النزاع عليها. ويؤكد الكاتب اليهودي **موسى منوحين** في كتابه **(اضمحلال اليهودية في عصرنا)** تلك العلاقة التاريخية التي تربط بين الشعب العربي الفلسطيني وأجداده الكنعانيين الذين استمروا في فلسطين منذ أكثر من 4000 سنة والذين منذ بداية القرن السابع الميلادي شكّلوا شعباً عربياً واحداً متحداً فيقول[6]:

["منذ أكثر من أربعة آلاف سنة خلت وكما نعرف من خلال قصص التوراة ، فإن الكنعانيين عاشوا في فلسطين وأن بعض العرب الفلسطينيين المنفيين الآن لاجئين يعيشون في الخيام والأكواخ في معسكرات خارج حدود وطنهم، هؤلاء ينحدرون في أصلهم إلى هؤلاء الكنعانيين القدامى ، الذين كانوا مزيجاً من الساميين والآريين والحثيين وهؤلاء الكنعانيون استقروا وبنوا المدن والقصور ، واستخدموا الجياد والعربات وبنوا المعابد المزينة بالأصنام".

"وأن الكنعانيين الذين عاصروا الفاتحين الإسرائيليين الأوائل شهدوهم وهم يربحون ويخسرون البلاد الموعودة مرتين ، وأثناء ذلك استمر الكنعانيون يمارسون أعمالهم الخاصة فلاحين وعمّالاً وأرقّاء ، وبعض الكنعانيين اعتنق اليهودية وبعض آخر المسيحية، وأما الباقون فإنه حينما زحف محمد(صلى الله عليه وسلم) من الجزيرة العربية ليفتح العالم ، ويحوّل الجميع إلى مسلمين

باستثناء اليهود، اعتنق معظم سكان فلسطين الإسلام ليشكلوا شعباً عربياً واحداً متحداً منذ القرن السابع الميلادي. وهكذا نرى أن العرب الفلسطينيين يشكلون الأغلبية الساحقة من السكان في فلسطين منذ تلك الأيام".]

إن كثيراً من ذوي النوايا الطيبة في العالم الغربي لديهم مفهوم خاطئ يتعلق بأن لليهود حقاً تاريخياً أو دينياً في فلسطين. هذا الحق التاريخي أشرنا إليه بإيجاز شديد، ونحيل كل متقص للحقائق ليرجع إليه في نطاقه. أما بالنسبة للجانب الديني فإن الإدّعاء الصيهوني الذي استغل نصوصاً توراتية بهدف سياسي يمكن مناقشة هذه النصوص ودحض تفسيرتها الصهيونية ذات الهدف السياسي. لقد كتب الدكتور المر برغير وهو يهودي يقول:

["إن أحسن ما يمكن أن توصف به دولة إسرائيل من حيث شرعيتها وسندها من الكتاب المقدس، هو أنها سلطة سياسية تم إنشاؤها وتأسيسها من خلال طرق فاقدة لأي قدسية أو سند من الكتاب المقدس. ومن بين أغلب سكانها اليهود، لا تزال هناك أقلية تخوض معركة سياسية شرسة مع الدولة لإجبارها على تبني الأخلاق ، وأساليب السلوك التي يمكن أن تتلاءم وتتطابق مع نبوءات الكتاب المقدس، هذا التطابق مع نبوءات الكتاب المقدس غير متحقق اليوم، ولا يبدو أن تحقيقه قريب المنال في المستقبل. إن دولة إسرائيل الحالية ليس لها سواء من حيث العملية التي تم بها إنشاؤها أو من حيث النتائج التي ترتبت على هذا الإنشاء، ليس لها ما يبررها في الإعلانات والتعاليم والوصايا الخلقية والدينية الرفيعة للعظماء الروحيين الذين كلماتهم خالدة على الدوام في الكتاب المقدس](7)".

ويمكننا أن نسير خطوات في سبيل دحض آراء الصهيونية العنصرية التي ادّعت أحقيتها في فلسطين اعتماداً على أن الله قد أعطى وعداً مقدساً لبني إسرائيل في ملكية فلسطين.

لقد قام الأستاذ **الفرد غليوم** أستاذ دراسات العهد القديم في جامعة لندن بمناقشة هذا الجانب مناقشة مستفيضة، وبها لا يمكن لباحث أن يسبل عينيه عن الحقائق التي أثبتها... إنه يناقش في مقالة بعنوان "الصهاينة والكتاب المقدس" نقاطاً مهمة حددها كالتالي[8]:

1. لمن منحت هذه الوعود التي وردت في الكتاب المقدس؟
2. ما هو امتداد الأرض التي تم الوعد بها؟
3. هل كان الوعد مطلقاً بدون قيد ولا شرط؟

إن خلاصة ما يؤكده الأستاذ غليوم، أن الصهاينة يعتمدون على نصوص توراتية، أورد منها عينة ممثلة وأساسية لفكرة الوعد كما جاء في سفر التكوين:

- أولاً – ما ورد في الإصحاح الثاني عشر من سفر التكوين بخصوص الوعد في شكيم التي تعرف اليوم بنابلس "وظهر الرب لإبراهيم وقال: لنسلك أعطي هذه الأرض. سفر التكوين 12:7 .
- ثانياً – ما جاء في الإصحاح الثالث عشر من نفس السفر إذ جاء فيه: "وقال الرب لإبراهيم.. ارفع عينيك وانظر من الموضع الذي أنت فيه شمالاً وجنوباً وشرقاً وغرباً، لأن جميع الأرض التي أنت ترى، لك أعطيتها ، ولنسلك إلى الأبد. سفر التكوين 13. 14- 15 .
- ثالثاً: جاء الوعد أكثر صراحة في الإصحاح الخامس عشر من نفس السفر إذ ورد فيه: "في ذلك اليوم قطع الرب ميثاقاً مع إبراهيم قائلاً:

لنسلك أعطي هذه الأرض من نهر مصر إلى النهر الكبير (نهر الفرات).
سفر التكوين 12 : 18 .

- رابعاً: في الإصحاح السابع عشر كذلك جاء: "وأعطي لك ولنسلك من بعدك أرض غربتك أرض كنعان ملكاً أبدياً وأكون إلاههم.

وفي هذا الصدد يؤكد الأستاذ غليوم بأن هذا الوعد الذي يشمل كلمة "نسلك" أو "ذريتك" يشمل بكل تأكيد العرب، المسلمين منهم والمسيحيين، على السواء ، لأنهم يستطيعون الإدعاء بحق أنهم من ذرية إبراهيم، عليه السلام، عن طريق ابنه إسماعيل، عليه السلام. ويحيلنا الكاتب إلى سفر التكوين نفسه إذ يسجل أن ابراهيم، أصبح أباً لكثير من القبائل العربية الشمالية عن طريق جاريته هاجر المصرية، فقد جاء في الإصحاح الحادي والعشرين من سفر التكوين: "ورأت سارة ابن هاجر المصرية ، الذي ولدته لإبراهيم يمرح، فقالت لإبراهيم اطرد هذه الجارية وابنها ، لأن ابن هذه الجارية لا يرث مع ابني إسحق، فقبح الكلام جداً في عيني إبراهيم لسبب ابنه، فقال الله لإبراهيم لا يقبح في عينيك من أجل الغلام ومن أجل جاريتك، فبكل ما تقول لك سارة، اسمع لقولها ، لأن إسحق يدعي لك نسل، وابن الجارية أيضاً سأجعله أمة، لأنه نسلك" سفر التكوين 21 : 9 – 13 .

أما حدود الأرض الموعودة فإن الأستاذ غليوم يشير إلى أن نصوص سفر التكوين بدأت بوعودها بإشارة غامضة إلى هذه الأرض إذ تبدأ في بداية نابلس، وتستمر بعد ذلك لتشمل كل المنطقة الممتدة من نهر مصر إلى نهر الفرات، ويشير الكاتب أن النص الثالث المقدس ، والذي يعد بالأراضي الممتدة من نهر النيل إلى نهر الفرات، أعطي قبل مولد كل من إسماعيل وإسحق، وهذا يعني أنه يجب ألا تكون خالصة للإسرائيليين.

ويشير الكاتب في تساؤله الثالث، إلى الوعد هل كان مطلقاً بدون قيد أو شرط، ملاحظاً أن العلاقة التعاهدية بين الرب وإسرائيل تتطلب ولاء ،وصلاحاً، واستقامة من الشعب على المستوى الفردي والجماعي حتى إذا ما فشل الشعب في تحقيق هذه الأمور، فإن مصيراً مشؤوماً ينتظره. ويؤكد كلامه بما جاء في سفر التثنية، الإصحاح الثامن والعشرين، ويختم حديثه قائلاً، **بأن هذه النبوءات قد تحققت بالفعل في الماضي ، ولا يمكن أن تتحقق ثانية، ففي قوانين العهد القديم لا توجد نبوءة لعودة ثانية.**

لقد أسهبنا في مناقشة ادعاءات الصهيونية بحقها التاريخي والتوراتي، لأن الأيديولوجيا الصهيونية تقوم على هذين الركنين ومن ثم يمكننا أن نلاحظ:

– **أولاً**: أن ادعاء الوعد بأرض فلسطين ليس خاصاً باليهود ، ويشمل العرب، لأنهم أيضاً من نسل إبراهيم.
– **ثانياً**: أن النظرة العرقية لليهود كنسل صاف ، وأحفاد شرعيين لإبراهيم ترفضها النظرة العلمية ، ويرفضها علماء الإنثربولوجيا والتاريخ، فاليهود ليسوا سلالة نقية ، وإلا كيف نفسّر اعتناق قبائل الخزر لليهودية أسلاف يهود أوروبا ؟ بل وماذا يمكن أن نقول بشأن ما جاء بسفر أستير، الإصحاح الثامن، الآية 17: "وكثيرون من شعوب الأرض يهود لأن رعب اليهود وقع عليهم".
– **ثالثاً**: إن ارتكاز الأيديولوجية الصهيونية على الوعود التوراتية – إذا جاز لشخص أن يقبل بناء عليها قيام إسرائيل والاعتراف بشرعيتها – سوف تتيح للكيان الصهيوني فرصة الغزو والاعتداء على الأراضي العربية الأخرى من النيل إلى الفرات.

- رابعاً: إذا كان الحق الديني وحده يجيز لليهود أن يمتلكوا أرض فلسطين، فإنه بنفس هذا المنطق يكون لكل المسلمين الحق في المطالبة بمكة والقدس، وسيكون لكل المسيحيين حق المطالبة بفلسطين والفاتيكان.

الصهيونية العالمية والاستعمار

إن نظرة إلى نشأة الصهيونية العالمية سوف ترينا كيف أنها ارتبطت منذ بدايتها، ارتباطاً وثيقاً، بالاستعمار العالمي، إذ يؤكد المؤرخ الصهيوني نحوم سوكولوف، على الوثيقة التي تربط بين المطامع الصهيونية وحملة نابليون الاستعمارية إلى مصر وفلسطين. وجاء في تلك الوثيقة التاريخية التي نُشرت في فرنسا قبل حملة نابليون لاستعمار فلسطين بقليل، جاء فيها: "إن عددنا يبلغ ستة ملايين منتشرة في معظم بلاد العالم، وفي حوزتنا ثروات طائلة واسعة، وممتلكات عظيمة شاسعة فيجب أن نتذرع بكل ما لدينا من الوسائل لاستعادة بلادنا. إن الفرصة سانحة ومن واجبنا أن نغتنمها".

"أما البلاد التي ننوي قبولها بالاتفاق مع فرنسا فهي إقليم الوجه البحري من مصر، مع حفظ منطقة واسعة المدى يمتد خطها من مدينة عكا إلى البحر الميت، ومن جنوب هذا البحر إلى البحر الأحمر، فهذا المركز الملائم أكثر من أي مركز آخر في العالم يجعلنا بواسطة سير الملاحة من البحر الأحمر قابضين على ناصية تجارة الهند وبلاد العرب وإفريقيا الجنوبية والشمالية[9].

ثم هناك النداء الذي وجهه نابليون بتاريخ 4 إبريل 1799 وهو يحاصر مدينة عكا الفلسطينية، وخاطب فيه اليهود بقوله: "يا ورثة فلسطين الشرعيين" "إن الأمة العظيمة، تناديكم الآن لا للعمل على إعادة احتلال وطنكم فحسب، وليس بغية استرجاع ما فُقد منكم، بل لأجل ضمان ومؤازرة هذه الأمّة لتحفظوها مصونة من جميع الطامعين بكم، لكي تصبحوا أسياد بلادكم الحقيقيين"[10].

ولو سرنا قدماً مع التاريخ فإننا سوف نرى كيف أن الأطماع الاستعمارية الأوروبية في المنطقة كانت دوماً تعمل على استغلال اليهود في تحقيق مطامعها الاستعمارية، ففي عام 1840 درست الدول الاستعمارية الأوروبية الكبيرة المتصارعة من أجل النفوذ في الامبراطورية العثمانية المريضة، قضية مستقبل سوريا المحتلة من قبل الجيوش المصرية، فكتبت "تايمس" اللندنية في 17 أغسطس 1840 مقالاً بعنوان "سوريا ونهضة اليهود" جاء فيه: "إن اقتراح إسكان اليهود في وطن آبائهم وتوطنهم هناك تحت حماية خمس دول لم يعد قضية موضوع مناقشة، بل أصبح بالأحرى مادة لمناقشة جديدة".

وكتب الإنجليزي البارز شافتسبوري في رسالة إلى وزير خارجية إنجلترا بالمرستون، يقول: إنه من الضروري تحويل سوريا إلى دومينيون إنجليزي، وأشار إلى أن ذلك يتطلب رأسمالاً ويداً عاملة أما "رأسمالٍ فهو بطبيعته يُرسل دائماً بدون رغبة كبيرة إلى كل بلد لا تكون فيه الممتلكات والحياة في أمن". واقترح شافتسبوري بختام رسالته: "لو أننا أمعنا التفكير في قضية عودة اليهود على ضوء إقامة استعمار فلسطين لاكتشفنا أن ذلك هو أرخص وأضمن طريق لتزويد هذه المنطقة القليلة السكان بكل ما هو ضروري"[(11)].

وقد وضع الصهيونيون أنفسهم في خدمة الامبرياليات في ذلك العصر، حين عرض هرتسل خدماته على الدولة العثمانية وعلى الإمبراطورية الألمانية وإمبراطور روسيا وأخيراً تلقفتهم الإمبريالية البريطانية. لقد كتب هرتسل نبي الصهيونية، في كتابه "الدولة اليهودية" الذي صدر في عام 1896: [فلسطين هي وطننا التاريخي الذي لا يمكننا نسيانه ومجرد الاسم هو صرخة جامعة عظيمة، لو يعطينا جلالة السلطان فلسطين لكنا نأخذ على عاتقنا إدارة أمور تركية المالية ، مقابل ذلك. ونقيم هناك جزءاً من حائط لحماية أوروبا في آسيا، يكون

عبارة عن حصن منيع للحضارة في وجه الهمجية، ويتوجب علينا كدولة محايدة أن نبقى على اتصال مع أوروبا التي ستضمن وجودنا في المقابل[(12)].

إن هذا النص لا يحتاج إلى كبير جهد لندرك ذلك الدور الذي اختطه مؤسس الصهيونية لتلعب الدولة المقترحة دور الشرطي والحارس للمصالح الإمبريالية. وانتقل هرتسل بعد ذلك إلى محاولات لإقناع القيصر الألماني لتبني طلبات الحركة الصهيونية وإقناع السلطان العثماني لقبولها، وفي يومياته يحدد أطماعه في حدود مقترحة حين يقول: "لقد تحدثت مع بودنهايمر في أمر الطلبات التي نريدها ... المساحة: من وادي النيل إلى الفرات. ونشترط على مدة انتقالية مع مؤسساتنا الخاصة، ويكون هناك حاكم يهودي أثناء هذه الفترة وبعد ذلك تقوم علاقة مثل هذه بين مصر والسلطان، وعندما يصبح اليهود ثلثي السكان في مقاطعة ما، تتحول الإدارة اليهودية إلى قوة سياسية، بينما تظل الحكومة المحلية (الحكم الشعبي الذاتي) معتمدة على عدد الناخبين في المجتمع"[(13)].

ولم يعد خافياً ذلك التقرير المعروف باسم **تقرير كامبل بانرمن، الذي** صدر عام 1907. وجاء بناء على توصية من لجنة لخبراء الاستعمار، تشمل مؤرخين وعلماء تهدف إلى دراسة أفضل الوسائل التي فيها تكفل استمرار السيطرة الأوروبية على المنطقة العربية، وحضره ممثلون عن بلجيكا وفرنسا وهولندا والبرتغال وإسبانيا وإيطاليا . وقد جاء فيه: "هناك خطر مهدد يكمن في البحر المتوسط بالذات، باعتباره همزة الوصل بين الشرق والغرب ويعيش في شواطئه الجنوبية والشرقية بصفة خاصة شعب واحد تتوفر له وحدة التاريخ والدين واللغة وكل مقومات التجمع والترابط، وذلك فضلاً عن نزعاته الثورية وثرواته الطبيعية الكبيرة، فماذا تكون النتيجة لو نقلت هذه المنطقة الوسائل المدنية ومكتسبات الثورة الصناعية الأوروبية وانتشر التعليم والثقافة؟"

ويجيب هؤلاء الخبراء على هذا التساؤل بقولهم: "إذا حدث ذلك فسوف تحل حتماً الضربة القاضية بالإمبراطوريات القائمة".

وقد قدم التقرير في النهاية اقتراحاً : **بأن تعمل هذه الدول على إقامة حاجز بشري قوي وغريب عن المنطقة، التي تعد جسراً يصل آسيا بإفريقيا، بحيث تنشأ في هذه المنطقة من العالم، والواقعة قرب قناة السويس، قوة صديقة للإمبريالية ومعادية لسكان المنطقة**[14] ،وأن هذه المواصفات تنطبق انطباقاً واضحاً على إسرائيل".

ولم تكن مصادفة أن يقرر المؤتمر الصهيوني الثامن في العام ذاته (1907) "بدء الانطلاق الاستعماري نحو فلسطين ، واتخاذها وطناً قومياً لليهود"[15] وذلك بعد أن تأكد التقاء المصالح الصهيونية الإمبريالية في فلسطين.

وليس عجيباً أنه في هذا العام "أنشئت أول منظمة عسكرية تحت اسم منظمة "هاشومير" أي "الحارس" وكانت كلمة الحارس الشكل الخادع، أما المضمون الحقيقي فكان يكمن في شعار هذه المنظمة التي اتخذت من الدم والنار سبيلاً "للعودة"... **فقد ذهبت يهود بالدم والنار، وبهما يجب أن تعود من جديد**"[16].

وقد استمرت الصهيونية العالمية في محاولاتها لضمان إقامة الوطن اليهودي في فلسطين، إلى أن توج نجاحها عام 1917 بالحصول على **وعد بلفور** وزير خارجية بريطانيا، وقد تلقى رئيس وزرائه لويد جورج رسالة من الرئيس الأمريكي ويلسون بالموافقة على الإعلان، الذي تضمن نظرة بريطانيا بالعطف على إنشاء وطن قومي لليهود في فلسطين ، وعلى أن تبذل أقصى الجهد لبلوغ هذه الغاية[17].

وقد قام الاستعمار البريطاني بعد انتدابه على فلسطين من قبل عصبة الأمم المتحدة بتدعيم الوجود الصهيوني في فلسطين، وخلق الظروف الملائمة لتحقيق هذا الوعد، سواء فيما يتعلق بتسهيل الهجرة إلى فلسطين وتمليك اليهود الأراضي الحكومية، أو منحهم مشاريع حيوية ومراكز مهمة في الإدارات، وكذلك غض النظر عن تسلحهم وتدريبهم، بينما كانت الإدارة البرطانية تعامل العرب بكل قسوة وظلم. وما أن رأى زعماء الصهيونية رجحان كفة الإمبريالية الأميركية، واضمحلال النفوذ البريطاني في أثناء الحرب العالمية الثانية، حتى ابتدأ النشاط الصهيوني يركّز همّه على جذب قوة إمبريالية جديدة في المنطقة وربط مصالحه بمصالحها، وهكذا التقت المصالح الحيوية لإسرائيل، المتمثلة بضمان الوجود واستمرار البقاء، بمصالح الإمبريالية الأميركية المتمثلة بمصالحها النفطية والاقتصادية في المنطقة العربية.

ومنذ ذلك الحين ونحن نرى كيف حصلت إسرائيل على ضمانات أميركية سواء سياسية أو عسكرية أو اقتصادية، وقد نقلت صحيفة عل همشمار الصهيونية في 1978/5/20 ما يردده الموظفون الرسميون الأميركيون بعد فوز "ليكود" بأن العلاقات الخاصة بين واشنطن والقدس ليست من مهمة زعيم معين تم انتخابه، بل إنها تعتمد على المصالح الوطنية للولايات المتحدة ولإسرائيل" وقد أكد بيغن في تصريح نشرته صحيفة هآرتس، في 1978/5/25: أن الأميركيين يقدمون المساعدة لإسرائيل لأنها تقوم بأداء مهمة جدية جداً في الحفاظ على المصالح الحيوية للولايات المتحدة". **وهذا يؤكد إن إسرائيل ليست في النهاية إلا ذراعاً للإمبريالية ، وهي تأخذ دور الشرطي في حراسة المصالح الإمبريالية العالمية في المنطقة العربية . وما الدور الذي لعبه كارتر في التسوية بين حكومة مصر والكيان الصهيوني إلا تأكيد على أهمية المصالح المتبادلة بينهما، وتأكيد على ضمان بقاء إسرائيل هذا الكيان الغريب القائم على ظلم شعب بأكمله.**

ولنعد من حيث ابتدأنا، لقد ابتدأنا بسرد عاطفي ، وإن كانت حالة الفلسطيني العربي ليس فيها ما يثير العاطفة بقدر ما يثير انتباه العقل. أما الآن فبالنسبة لألماني يهودي مثلاً، إنها ستكون نوعاً من ابتزاز العاطفة. وهذا ما تهدف الصهيونية إليه حين تستغل صورة اليهودي المضطهد، وقضية اللاسامية، وجرائم النازية. ولكن هل هذا حقيقي؟

ليس لعاقل أن يقول أنه لم تكن هناك لاسامية، أو أن ينفي الجرائم التي اقترفت بحق اليهود، ولكن يجب أن لا ننسى، مسئوليتهم في ذلك، ومسئوليتهم عن تبادل الأدوار بين اللاساميين والفاشيين القدامى من جهة والصهيونية من جهة أخرى في مواجهة العرب.

إن الجانب الإنساني، بالنسبة لليهودي، ينتفي إذا كان يعامل معاملة المساواة، فيصبح اليهودي الفرنسي فرنسياً حقاً واليهودي الألماني ألمانياً حقاً، لكننا سنجد أن فرص الاندماج التي كانت متاحة ولا زالت موجودة، وتعمقت خلال العقود الأخيرة وقد رفضتها الصهيونية، **إذ نرى أن القادة الصهاينة يؤكدون، أن العدو الرئيسي للصهيونية يتمثل في اندماج اليهود في مجتمعاتهم،** وهكذا تشترك اللاسامية مع الصهيونية في الإيمان بفرضية أساسية واحدة وهي أن جميع اليهود يشكلون أمة واحدة، وأن لهم خصائص قومية مشتركة ومصيراً قومياً واحداً، وليس الفرق بينهما سوى أن اللاسامية تزدري "تلك الخصائص القومية اليهودية" المزعومة وتمقتها، وترى في عذاب اليهود سبباً من أسباب المتعة، بينما تغالي الصهيونية في امتداح هذه الخصائص الموهومة، وتسعى لجمع كل اليهود في دولة واحدة يهودية لها "رسالة متفوقة خاصة"[18].

ولقد عمد الصهاينة إلى رفض الاندماج بغض النظر عن الظروف التي تتيح لهم ذلك. يقول الصهيوني ماير يا اري: "أنا اميركي، لكن ذلك لا يضطرني مطلقاً إلى إنكار جذوري التاريخية، عندما أستعيد في ذاكرتي الأربعة آلاف سنة من وجودنا كشعب، في خلال ألفي سنة منها قمنا بتنمية أنفسنا قومياً وحضارياً في وطننا، بينما قضينا الألفين الآخرين في المنفى، في العذاب والاضطهاد، وكذلك في الحنين القومي للوطن. عندما أُدرك كل ذلك أشعر في قرارة كياني بأنني يهودي وصهيوني، لا لأنه لن يتسنى لي أن أندمج في مجتمع آخر بل لأنني أرفض القيام بذلك رفضاً صريحاً"[19].

كما عبّر الزعيم الصهيوني ناحوم غولدمان، عن الموقف الذي يواجه يهود العالم بقوله: "إن الكفاح الرئيسي لليهود، من الآن وصاعداً، ليس من أجل المساواة، فقد حصلنا عليها ، ولكن من أجل حقنا في أن نكون مختلفين"[20].

وقد أكد ليفي أشكول، في غير مرّة على الخطر الداهم الذي يهدد يهود الخارج، وهو خطر الانصهار والاندماج، وذلك في خطابه أمام الكنيست في 1966/1/12م. ولكي لا يتحقق هذا الاندماج فإن الصهيونية لم تجد مانعاً من أن تستعمل اللاسامية لإذكاء الروح الصهيونية عند اليهود، وإذا استخدمت أساليب الإرهاب باسم اللاسامية، فإنها تكون أموراً مشروعة.

لقد صرّح بن غوريون:

"أنا لا أخجل من أن أعترف بأنه لو كانت سلطتي تعادل رغباتي، لاخترت عدداً من الشباب المخلص لقضيتنا وأمرتهم بالتنكّر والتظاهر بأنهم من غير اليهود، وملاحقة اليهود بطريق العداء للسامية الفظّة... عند ذلك ستفوق نتائج الهجرة إلى إسرائيل بعشرة آلاف مرة النتائج التي يحصل عليها مبعوثونا الذين يلقون منذ عشرات السنين مواعظهم أمام العالم"[21].

وقبل بن غوريون كان هرتسل مؤسس الصهيونية، قد تحدث عن العداء نحو السامية، بأنه قوة لن تلحق الأذى باليهود، وستكون حركة نافعة للخلق اليهودي، إذ إن التربية لا تتحقق إلا بواسطة الصدمات القوية، وقد أكد هرتسل في يومياته على ذات المعنى، إذ يقول: "**سوف يصبح أعداء السامية في طليعة أصدقائنا**"[22].

وعليه فإن الصهيونية استغلّت العداء للسامية لتجني من ورائه أهدافاً رخيصة، وقد يكون من المناسب أن نتساءل عن حقيقة المسؤولية الأخلاقية تجاه الجرائم التي اقتُرفت بحق اليهود، وأن نتساءل هل كان اليهود حقاً ليس في استطاعتهم إنقاذ ضحايا النازية؟ أم أن ثمة اعتبارات أخرى؟

إن مسألة استغلال الصهاينة للجرائم النازية وهي نموذج العداء للسامية، التي باركها الصهاينة، تحتاج إلى مراجعة مستفيضة لتجيب على سؤال مهم:

هل هناك علاقة بين الصهيونية والنازية وما هي مسؤولية الصهيونية ذاتها تجاه اقتراف هذه الجرائم؟.

إن قضية "كاستنر" في القدس عام 1955 أصبحت معروفة ولا تخفى على أحد، وإن طبيعة العلاقات النازية – الصهيونية أصبحت موضع دراسات عدة، ويمكن لباحثين مهتمين وصادقي العزم أن يصلوا إلى الحقيقة من ورائها، ونشير بخاصة إلى دراسة "كلاوس " حول الاتصالات السرية للعلاقات الصهيونية النازية بين عامي 1933- 1941[23].

لقد أجاب حاييم وايزمن أول رئيس لإسرائيل والصهيوني البارز رداً على سؤال اللجنة البريطانية الملكية عن إمكانية نقل ستة ملايين يهودي من أوروبا الغربية إلى فلسطين ، لإنقاذهم من الإرهاب الهتلري فأجاب: "لا ، سيزول كبار

السن منهم ، فهم مجرد غيار... غيار اقتصادي ومعنوي لهذا العالم الكبير ، وسيبقى الفرع فقط"[24].

وقد أدان الكاتب البريطاني كريستوفر سايكس الوكالة اليهودية لتقاعسها المتعمد في إنقاذ اليهود في ألمانيا حين قال:["تبرز الحقيقة التاريخية، وهي أن تقاعس الوكالة اليهودية في موضوع المهاجرين من يهود ألمانيا، ومحافظتها على التفوق السلالي في توزيع شهادات المهاجرة ، يجعل المسؤولية فيما لحق ضحايا النازية اليهود، لا تقع على عاتق الأوتوقراطي الألماني النازي الحديث وحده، بل وعلى الأنانية البشعة التي تجسدت في الوكالة اليهودية القائمة على أسس ديمقوقراطية[25]. وعليه فمهما كانت العلاقة بين النازية والصهيونية وبين الصهيونية وإثارة اللاسامية فإن الحركة الصهيونية وإسرائيل بعد قيامها، حاولتا الاستفادة من هاتين الظاهرتين وتوجيههما نحو إثارة المشاعر اليهودية ومشاعر العطف الأوروبية تجاه آلام اليهود، وإذا كان ثمة آلام يعانون منها، فإن منطق الأمور وادعاءات القيم الحضارية ، والمشاعر الإنسانية ، كانت تستدعي أن يقوم الذين سببوا الآلام بإنهائها وبحل مشاكلها، وأن تكون على حسابهم لا عن طريق إحلال الظلم بالفلسطينيين"].

لقد جسّدت الصهيونية نموذجاً للعنصرية برفضها ممارسة المواطنين اليهود حقهم في الاندماج في مجتمعاتهم، بنما نرى أبشع أنواع التمييز العنصري يمارسه الكيان الصيهوني في فلسطين ضد الشعب العربي المحتلة، وكيف توثقت العلاقة بين إسرائيل وكل الكيانات العنصرية في إفريقيا كعلاقتها بجنوب إفريقيا وروديسيا، إذ نرى أن بينها وبين تلك الأنظمة أوجه شبه. وتقول الكاتبة الفرنسية اليزابيت ماتيو: ["منذ عام 1948 تاريخ إنشاء دولة إسرائيل وتاريخ وصول "القوميين" إلى السلطة في جنوب إفريقيا، بنيت علاقات

ثنائية تزداد توطداً مع الزمن، كلما ازدادت عزلة هاتين الدولتين، دولياً، وكلما نمت مقاومة السكان المضطهدين"].[26]

وليس أدل على قوة العلاقات التي كانت تربط الكيان الصهيوني بجنوب إفريقيا العنصرية من ذلك التقرير الشامل للأمم المتحدة * ، الذي أعدته لجنة الأمم المتحدة الخاصة بمناهضة الفصل العنصري ورقم الوثيقة 5- 77 وقد نُشرت هذه الوثيقة عملاً بالفقرة 2 من نص قرار الجمعية العامة 31/6/ جاء في 9 نوفمبر 1976م ، وذلك لتعميم التقرير على أوسع نطاق ، وبمختلف اللغات من أجل تعبئة الرأي العام ضد تعاون إسرائيل مع النظام العنصري في جنوب إفريقيا.

وقد تناول هذا التقرير:

أولاً: الخلفية :وفيها أعربت الجمعية العامة في السنوات الأخيرة ولا تزال تعرب عن قلق متزايد ازاء مضاعفة العلاقات السياسية والاقتصادية والعسكرية وغيرها بين إسرائيل وإفريقيا الجنوبية وذكرت هنا بقرارات الجمعية العامة التي أدانت (التحالف الآثم بين العنصرية بإفريقيا الجنوبية والإمبريالية الإسرائيلية) وذلك في القرار 3151 زاي (- 28) المؤرخ في 14 ديسمبر 1973م وأدانت الجمعية العامة في القرار 3324 هاء (د – 29) المؤرخ في 16 ديسمبر 1974م توطد العلاقات السياسية والاقتصادية والعسكرية وغيرها بين إسرائيل وإفريقيا الجنوبية . وفي العام التالي أدانت الجمعية العامة مرّة أخرى (توطد العلاقات والتعاون بين نظام إفريقيا الجنوبية العنصري وإسرائيل في الميادين السياسية والعسكرية والاقتصادية وغيرها).

---

* أنظر نص التقرير الشامل في مجلة مركز الدراسات الفلسطينية العددان **25/24–1977**م، بغداد.

ثانياً: المقدمة :وفيها تبيّن أن الغرض من التقرير هو بيان للنمو الذي طرأ على العلاقات بين إفريقيا الجنوبية وإسرائيل ويتضمن التقرير معلومات عن الخلفية التاريخية للتعاون بين إفريقيا الجنوبية والحركة الصهيونية قبل إنشاء دولة إسرائيل كما يتضمن استعراضاً للتطورات في جميع حقول التعاون بين البلدين من عام 48 حتى الآن.

ويبين التقرير أن العلاقات بين إفريقيا الجنوبية وإسرائيل علاقات لها جذور أيديولوجية تاريخية، وتحدث التقرير عن تطور العلاقات في جميع المجالات الدبلوماسية ، والعسكرية ، والاقتصادية ، والتجارة ، والروابط الجوية ، والعلاقات الثقافية ، والتعاون في ميدان الرياضة...الخ .

وليس أدل على الوجه العنصري للكيان الصهيوني من إدانة المجتمع الدولي للصهيونية وذلك حينما صادقت الجمعية العامة للأمم المتحدة بتاريخ 1975/11/11م على اعتبار الصهيونية شكلاً من أشكال العنصرية .

وفيما يلي نص القرار رقم 3379 (د- 30) — (الجلسة العامة 10 تشرين الثاني / نوفمبر 1975 ميلادي) : **القضاء على جميع أشكال التمييز العنصري**

إن الجمعية العامة: إذ تشير إلى قرارها 1904 (د- 18) المؤرخ في 20 تشرين الثاني / نوفمبر 1963، الذي أصدرت فيه إعلان الأمم المتحدة للقضاء على جميع أشكال التمييز العنصري، وبوجه خاص إلى تأكيدها (أن أي مذهب يقوم على التفرقة العنصرية ، أو التفوق العنصري مذهب خاطئ علمياً ، ومشجوب أدبياً، وظالم، وخطر اجتماعيا)، وإلى إعرابها عن القلق الشديد إزاء "مظاهر التمييز العنصري ، التي لا تزال ملحوظة في بعض مناطق العالم، وبعضها مفروض من بعض الحكومات بواسطة تدابير تشريعية أو إدارية أو غيرها..

وإذ تشير أيضاً إلى أن الجمعية العامة قد أدانت في قرارها 3151 زاي (د-28) المؤرخ في 14 كانون الأول/ ديسمبر 1973، في جملة أمور، التحالف الآثم بين العنصرية بإفريقية الجنوبية والصهيونية.."وإذ تحيط علماً بإعلان المكسيك بشأن مساواة المرأة وإسهامها في الإنماء والسلم، 1975 المعلن من المؤتمر العالمي للسنة الدولية للمرأة، الذي عُقد في مكسيكو في الفترة من حزيران / يونيه إلى 2 تموز /يوليه 1975م، والذي أعلن المبدأ القائل بأن التعاون والسلم الدوليين يتطلبان تحقيق التحرر والاستقلال القوميين، وإزالة الاستعمار الجديد، وكذلك الاعتراف بكرامة الشعوب وحقها في تقرير المصير.. وإذ تحيط علماً أيضاً بالقرار 77 (د- 12) ، الذي اتخذه مجلس رؤساء دول وحكومات منظمة الوحدة الإفريقية في دورته العادية الثانية عشرة (5) المعقودة في كمبالا في الفترة من تموز / يوليه إلى آب / أغسطس 1975، والذي رأى "أن النظام العنصري الحاكم في فلسطين المحتلة ، والنظامين العنصريين الحاكمين في زمبابوي وإفريقيا الجنوبية ترجع إلى أصل استعماري مشترك، وتشكل كياناً كلياً، ولها هيكل عنصري واحد، وترتبط ارتباطاً عضوياً في سياساتها الرامية إلى إهدار كرامة الإنسان وحرمته.."وإذ تحيط علماً أيضاً بالإعلان السياسي واستراتيجية تدعيم السلم والأمن الدوليين وتدعيم التضامن والمساعدة المتبادلة فيما بين دول عدم الانحياز (6) اللذين تم اعتمادهما في مؤتمر وزراء خارجية دول عدم الإنحياز المنعقد بليما، في الفترة من 25 إلى 30 آب/ أغسطس 1975م. واللذين أدانا الصهيونية بأقصى شدة بوصفها تهديداً للسلم والأمن العالميين وطلبا إلى جميع البلدان مقاومة هذه الأيديولوجية العنصرية الإمبريالية تقرر أن الصهيونية شكل من أشكال العنصرية والتمييز العنصري... [1]

---

[1] من المؤسف له أنه بعد حرب الخليج الأولى واستفراد الولايات المتحدة برئاسة جورج بوش الأب وقيادتها للعالم والسيطرة على قرارات الأمم المتحدة بعد انهيار الاتحاد السوفييتي فقد تم إلغاء هذا القرار ففي 22 نوفمبر 1991 تقدم

فلسطين نعم .. إسرائيل لا :

يقول هرتسل في يومياته: "حتى الآن كان اليهود المحرومون بمثابة السندان وعداء السامية المطرقة، ويل لأولئك الذين يقعون بين المطرقة والسندان"[27].

إن واقع الأمور يؤكد أن الويل الذي تحدّث عنه هرتسل كان من نصيب الشعب الفلسطيني . وإذا كان الغرب لم يوجّه هذا الويل ضد العرب من منطق العداء للسامية، إلا أنه كان متمثلاً بالمصالح الإمبريالية في المنطقة، وبالدعم المادي الذي لاقته الصيهونية ودعمها من قبل الرأي العام الغربي ، وهم المضللون ببعض الشعارات الصهيونية المستثيرة للعواطف.

ويظل فوق هذا أن المضطهدين المظلومين سوف يجدون في النهاية، نصراء لهم يدركون الحقيقة ، ويعرفون كيف تصحح الأخطاء. لقد أعد "إدوين منتاغو" العضو اليهودي في الحكومة البريطانية بياناً موجزاً كان عنوانه "لا سامية الحكومة الحاضرة" وزّعه على زملائه إثر صدور وعد بلفور، وجاء فيه: "أود أن أسجل رأيي ، وهو أن سياسة حكومة صاحب الجلالة هي سياسة لا سامية من حيث نتيجتها، وستثبت أنها أساس لتجمع اللاساميين في كل بلد من بلاد العالم". "إنكم ستوجدون سكاناً في فلسطين يطردون سكانها الحاليين ويأخذون أفضل ما في البلاد"[28].

الاتحاد الأوروبي للجمعية العامة- بطلب إلغاء قرار الجمعية العامة للأمم المتحدة 3379، مستندا على أن "هذا النص لايتناسب لبدأ عملية السلام في الشرق الأوسط" و أن هذا القرار يؤجج الأحقاد إزاء إسرائيل في البلدان المجاورة، و يعتبر جارحا بحق شعب عانى طويلا وفي شكل فظيع من العنصرية . وقد حشدت الولايات المتحدة 121 صوتا لصالح الإلغاء و اعترضت 25 دولة، وامتناع 32 ليصدر القرار في 11 ديسمبر 1991 في سطر واحد صاغه نائب وزير خارجية الولايات المتحدة آن ذاك "لورنس ايغلبرغر" و نصه: **تقرر الجمعية العامة نبذ الحكم الوارد في قرارها رقم3379**"

لقد حاولت الصهيونية دوماً الادعاء بأن فلسطين هي أرض بلا شعب مُنحت لشعب بلا أرض، وها هو أبو الصهيونية الروسية "أحد ها عام" يكتب عام 1920: "إن الشعب العربي الذي اعتبر غير موجود منذ بدء استعمار فلسطين، واعتقد أن اليهود إنما كانوا قادمين لطرده من بلاده وللتعامل معه وفق مشيئتهم. وعند العرب أيضاً أيضاً فإن البلاد هي وطن قومي، ولهم الحق في إنشاء قوات وطنية إلى مدى قدرتهم على ذلك ومن شأن هذه الحالة أن تجعل فلسطين أرضاً مشاعاً بين عدة شعوب، كل منها يريد أن يقيم له وطناً قومياً فيها، وفي مثل هذه الظروف لم يعد ممكناً أن تكون الوطن القومي لأي من هذه الشعوب كاملاً"[29].

ويعترف هرتسل وهو يخاطب الإمبراطور الألماني عام 1898 بأنه ليس لليهود ملكية صحيحة في فلسطين، إذ يقول:

"نحن لا تربطنا بهذه التربة المقدسة أية حقوق ملكية صحيحة، لقد مرّت أجيال عديدة منذ كانت هذه الأرض يهودية، وإذا تحدثنا عنها، نتحدث فقط مثل ما يتحدث المرء عن حلم من الزمن العريق في القدم، لكن الحلم لا يزال حياً في مئات آلاف القلوب.." [30].

ولو سرنا مع التفكير الصهيوني، فسوف نرى كيف بدأ بإنكار مطلق لحق الفلسطينيين في وطنهم ، وصولاً إلى الاعتراف بحقهم فيه. ولكن هذا الحق يظل مغبوناً ما دامت القوة يمتلكها الظالمون.

ويعترف "ناحوم غولدمان" بحق الشعب الفلسطيني في فلسطين حين يقول: "نحن إذن نواجه صراعاً تاريخياً فعلياً بين حقين: حق الأفراد العرب الذين كانوا يعيشون في فلسطين وحق جموع الشعب اليهودي في تملك أرض تعيش فيها بمأمن، ويستطيع إنماء شخصيته الخاصة ، والاستمرار في مساهمته في الحضارة

الإنسانية التي أعطاها الكثير حتى اليوم". ويستطرد محاولاً استثارة العواطف بحل يؤيد وجود إسرائيل على حساب العرب حين يقول: "فالعرب في مجموعهم يملكون أراضي شاسعة أكثرها خالياً من السكان، تستطيع، إذا ما تمّ إنماؤها وأديرت بحكمة، لاستيعاب الملايين من السكان الجدد، وقد حرم الشعب اليهودي طوال قرون من الأراضي مما أدّى إلى النتائج القاسية التي أشرنا إليها آنفاً، ليس أخلاقياً - والحالة هذه- إعطاء قسم من فلسطين، لا فلسطين كلها، للشعب اليهودي الذي تمثل بالنسبة له الضمانة الوحيدة لاستمراره، هذا بينما لا يمثل فقدان هذا القسم الضئيل من الأرض بالنسبة للعالم العربي أي خطر يحيق بمصير الشعوب العربية ومستقبلها"[31].

إننا في البدء نشكر غولدمان على اعترافه بحق الأفراد العرب في فلسطين، وهو إذا كان يعتبر شعباً كاملاً في مصطلحه مجرد أفراد، فإن العالم بأجمعه اليوم يعترف بالشعب الفلسطيني الذي أسماه غولدمان بالأفراد، ويعترف العالم كذلك بحقه في إقامة وطن له على أرضه فلسطين، وعلى رأسهم الإمبريالية الأميركية في عهد "كارتر". وإذا كان لمجموع الشعب اليهودي حق في تملّك أرض، كما قال، يعيش عليها بمأمن فيجب أن لا تكون أرضاً لشعب آخر، إن المساهمة في الحضارة الإنسانية تقتضي شيئاً من الإنصاف والعدل وعدم الاعتداء على حقوق الآخرين.

وإذا كان غولدمان يتحدث عن الأخلاقية فإنها لا تتمثل في الاعتداء واغتصاب الأرض، وما دام قد اعترف بأن هذه الأرض للعرب ويطالبهم بإعطاء قسم من فلسطين لليهود فإن العرب هم الوحيدون إذاً الذين يملكون حق القرار في أراضيهم، حتى لو كانت شاسعة جرداء، وإذا كان منطق غولدمان صحيحاً فقد يكون للغجر، الحق بنفس مقاييسه الأخلاقية أن يقيموا دولة لهم، ولا مانع أيضاً بنفس مقاييسه أن تكون جزءاً من أراضي العرب الواسعة.

إن إقامة إسرائيل لم تحقق حلاً للمشكلة اليهودية ذلك لأنها تحاول أن تخلق انفصاماً بين المواطنين أنفسهم في البلد الواحد على اعتبارات مذهبية، وهي في الوقت ذاته، تجعل من الألماني اليهودي إسرائيلياً.

وفي خطاب ألقاه غولدمان في مؤتمر المجلس العام الصهيوني، المنعقد في القدس المحتلة في 1964/3/16 شدد على خطر الانقراض اليهودي ، فأعلن أن مشكلة الاستمرار الحياتي اليهودي هي أكبر مشكلة تواجه اليهود اليوم، وأضاف بأن خطر الاندماج والتفتت أقوى بكثير اليوم مما كان عليه وقت تاسيس الحركة الصهيونية . ووصف هذا الخطر بأنه مشكلة أكبر من اللاسامية والعوز الاقتصادي (الجيروزاليم بوست 1964/3/17) [32]. إذن ليس المقصود أن يعيش اليهود مواطنين في أوطانهم، ولكن المطلوب دوماً إحياء المشكلة اليهودية في أقطار العالم، وهكذا، وللأسف صنعت إسرائيل مشكلتين: مشكلة فلسطين العربية، ثم تعمدها المستمر على إبقاء المشكلة اليهودية قائمة. وتعترف بعض القوى داخل إسرائيل بالشعب الفلسطيني ، وبحقه في إقامة دولته. وتتحدث بذلك عن أمر واقع يتكون من جانبين:

- **الجانب الأول: الفلسطينيون**

إن حق الفلسطينيين في وطنهم حق ثابت، ويعترف بعض الإسرائيليين أنفسهم به ، وبحقهم في إقامة وطن لهم فيه. يقول **أوري افنيري** في مقالة له بعنوان حرب بين أخوة ساميين: "كان الخاسر الوحيد العرب الفلسطينيون، خسروا استقلالهم ، أو على الأصح خسروا استقلالاً موعوداً، إذ أنهم لم يتمتعوا به مطلقاً، وشخصيته القومية، ولكن في عصرنا لا تندثر أمة بعد هزيمة عسكرية حتى لو فقدت استقلالها السياسي، وكل صلح إسرائيلي – عربي يجب أن يعقد

أولاً بين إسرائيل والأمة الفلسطينية العربية، ولا مجال لبلوغه بعدم الاعتراف بهذه الأمّة"[33].

وقد أكّد كذلك مشروع الحزب الشيوعي الإسرائيلي: ["أن الحل العادل والواقعي يتضمن الاعتراف المتبادل بالحقوق القومية لكلا الشعبين، هذا يعني أنه ينبغي على دولة إسرائيل أن تعترف بالحقوق القومية المشروعة للشعب العربي في فلسطين، وأن تقر بحق من يرغب من اللاجئين في العودة إلى إسرائيل مع الاستعداد لدفع تعويض مالي معقول لمن لا يريد العودة"][34]. وقد أخذت دول العالم تُدرك أهمية الاعتراف بالحقوق المشروعة للشعب الفلسطيني في وطنه بعد أن كانوا يعاملون فقط كلاجئين، ففي 73/11/6 أصدرت المجموعة الأوروبية قراراً حول الشرق الأوسط كان من بنوده[35] رفض الاستيلاء على الأراضي بالقوة ، وضرورة أن تقوم إسرائيل بإنهاء احتلالها للأراضي التي استولت عليها منذ صراع عام 1967 ، والاعتراف بأن إقامة سلام عادل دائم، لا بد أن تُراعى فيه الحقوق المشروعة لشعب فلسطين وبهذا الصدد فإنه يجدر الإشارة إلى أن المجتمع الدولي ممثلاً بالجمعية العامة للأمم المتحدة قد أقرّ حق الشعب الفلسطيني بتقرير مصيره وفي الاستقلال ، وذلك بقرارها رقم 070 3 في الدورة 28 بتاريخ 1973/11/30م.

- **الجانب الثاني: إسرائيل**

وإذا كان البعض يعترفون الآن بأن لإسرائيل الحق في البقاء كياناً سياسياً مستقلاً على جزء من أرض فلسطين، إلا أن التاريخ والحق العربيين يؤكدان أحقية الشعب الفلسطيني بسيادته على كامل ترابه. إن ادعاء الكيان القائم من خلال الأمر الواقع للصفة الدولية وبالتالي بحقوق الدول في مواجهة الشعب الفلسطيني والدول العربية، هو ادّعاء لا يستند إلى أساس قانوني.

فهو أولاً كيان لا تتوافر فيه العناصر الثلاثة الرئيسية، التي يجب توافرها ابتداء لقيام الدولة. ونعني بذلك، الإقليم المحدد المعالم غير المتنازع عليه والإرادة المشتركة لغالبية الشعب في إقامة دولة مستقلة على ذلك الإقليم، تحكمها سلطة منبثقة عنها تمارس اختصاصات السيادة باسمها. إن إسرائيل هي عبارة عن كيان قائم في إقليم غير محدد المعالم، وليس له حدود دولية معروفة، وهو بأكمله موضوع نزاع بين الأقلية الأجنبية الحاكمة والأغلبية الأصلية المطرودة من أرضها بالقوة ، والتي ترفض الإقرار بحق السلطة القائمة في ممارسة السيادة على بلادها، لأنها أجنبية وغير منبثقة عنها[36]. ولكن هذا الرفض للوجود الصهيوني في فلسطين لا يعني التشويه المتعمد لمطالب العرب العادلة، إنه **لا يعني إلقاء اليهود بالبحر، بل يعني إقامة دولة فلسطينية ديموقراطية** ، ينتفي فيها أي شكل من أشكال التمييز العنصري ، أو الديني ، أو الطائفي، ذلك لأنه على إسرائيل أن تُدرك، كما قال **ناحوم غولدمان: "أنها لا تستطيع أن تعيش إلى أبد الآبدين، قلعة محصنة وسط محيط من ملايين العرب الذين يكنّون لها العداء"**[37].

إن اليهود ذوي الضمائر الحية، يمكنهم أن يردّوا على الصهيونية ويكون صوتهم أكثر إقناعاً لكل الذين ضللتهم الصهيونية ، ويتعاطفون مع مخططاتها ، ومع ركيزتها الاستعمارية إسرائيل. يقول **يهوذا ماغنس**:[لقد حان الوقت لليهود كي يحسبوا حساباً للعمل العربي ، باعتباره، أهم ما يواجهنا، وإذا كانت قضيتنا عادلة فقضيتهم عادلة أيضاً، نحن أهل البلاد وتربطنا بها صلة تاريخية، وكذلك العرب. وهناك حقيقة أشد واقعية من الحقائق البشعة للإمبريالية ، وهي أن العرب يعيشون هنا وفي هذا الجزء من العالم، ومن المرجح أنهم سوف يبقون هنا إلى زمن طويل بعد انهيار إمبريالية وقيام أخرى، فإذا كنا نرغب أيضاً في العيش ضمن هذه الفسحة المكانية، وجب علينا أن نتعايش مع العرب"][38].

إن مثل هذا القول، يجعل العرب على قدم المساواة مع اليهود ، وذلك في الحد الأدنى منه يثبت الحق العربي في فلسطين.

وتؤكد الحقائق الإحصائية حول العرب أنه بعد صدور وعد بلفور، في عام 1918، كانت نسبة السكان العرب تبلغ 92 بالمئة وبعد الانتداب أوفى الاستعمار البريطاني بتعهداته للصهيونية العالمية ، إذ قام بتسهيل الهجرات إلى فلسطين فارتفعت نسبة اليهود من المجموع الإجمالي للسكان من 8 بالمئة عام 1918 إلى حوالي 12 بالمئة عام 1922، إلى حوالي 17 بالمئة عام 1931، إلى 31 بالمئة عام 1948.

وكان اليهود يملكون 2 بالمئة من مساحة الأراضي عام 1918م، وفي السنوات الثلاثين التالية، أي إلى حين إعلان قيام دولة الكيان الصهيوني لم يتملكوا أكثر من 8 بالمئة من الأراضي الفلسطينية. وكانت القوى الصهيونية مستندة إلى الإمبريالية العالمية قد حققت خلال الحروب الثلاثة إمبرطورية، كما يقول شارلز دوغلاس هيوم: "إن كل حرب من الحروب قد أدّتْ إلى تغير في الوضع، الحرب الأولى أنشأت إسرائيل، والحرب الثانية ثبّتت وضعها، وأما الحرب الثالثة فقد جعلتها امبراطورية"[39].

إذا كان ذلك قد تحقق بفعل القوة القائمة على الظلم، والتي حوّلت فلسطين إلى إسرائيل فإن قوة الحق عليها أن تُعيد الأمور إلى حقائقها الثابتة، فترجع إسرائيل إلى الأصل كما كانت فلسطين ، وإلا فإننا قد لا نستغرب بنفس المنطق الذي أقام إسرائيل، أن يذهب مناحيم بيغن البولندي الموطن والأصل والنشأة، إلى المطالبة بإعادة إقامة إمبراطورية الخزر من جديد[40]. ذلك أنه هو ومعظم يهود أوروبا هم أحفاد القبيلة الثالثة عشرة التي أقامت

إمبراطورية الخزر واستمرت أربعة قرون تفوق في استمرارها الزمني مدة إقامة اليهود المحدودة قبل الاف السنين في فلسطين.

• إسرائيل التوسّع والعنف

منذ أن قامت إسرائيل وهي تحاول أن تقدم نفسها للعالم بصورة الحمامة الوديعة ، التي يحيط بها وحوش من العرب يرغبون في افتراسها. وتقول إنها في عام 1948 حاربت خمسة جيوش عربية وانتصرت عليها، لكن الذين لا يعرفون الحقائق لا يُدركون أي جيوش حاربت؟ وما هي القوة الحقيقية التي واجهتها.؟

ذكر الجنرال "غلوب" (أن مجموع الجيوش العربية التي دخلت فلسطين كانت لا تتجاوز 21.000 جندي بينما كانت قوة الصهاينة تتجاوز 56000 جندي) [41]. وقامت إسرائيل بطرد العرب من منازلهم وقراهم، واستولت عليها بأساليب شتّى من القهر والإرهاب ، وادّعت أن العرب تركوا ديارهم بأنفسهم ، وأن الفلسطينيين انصاعوا لأوامر القادة العرب، وبناء عليه، رفضت إسرائيل توجيهات الأمم المتحدة بصدد إعادة اللاجئين والتعويض عليهم وادّعت فقدهم لحقهم في العودة إلى ممتلكاتهم، وتجاهل الإسرائيليون بذلك المادة (13) بند (2) من إعلان حقوق الانسان الذي يؤكد على أن (من حق كل إنسان مغادرة أي بلد بما في ذلك بلده، وأن يعود إليه) وتقول المادة (17) البند (2) (أنه لا يحق أن يُحرم إنسان تعسفاً من ممتلكاته).

ويؤكد "غلوب" : (أن الذين يهاجرون بطوعهم واختيارهم لا يتركون بيوتهم وليس معهم إلا الملابس التي هم فيها، يكونون من الهرج والمرج والعجلة من أمرهم بحيث يضيع الرجال عن زوجاتهم والآباء عن أولادهم) [42]. ومن ثم فإننا نرى أن هذه الحمامة الوديعة، التي تحلم بإقامة امبراطورية تمتد من النيل إلى الفرات، كما جاء في التوراة، وكما نص على ذلك هرتزل، تقوم ضماناً للاستيلاء على

الأراضي بانتهاج أسلوبين يكمل أحدهما الآخر وهما: العنف والاحتلال. يقول الدكتور فايز صايغ في كتابه "**الاستعمار الصهيوني في فلسطين**": "لقد لجأت دولة المستوطنين الصهيونيين، منذ لحظة ولادتها عام 1948 إلى اعتماد العنف، كأداتها المختارة لإرهاب العرب وإجلائهم، ومجازر دير ياسين وعين الزيتون وصلاح الدين في إبريل – نيسان 1948، إجراءات مدروسة ومقررة جزءاً من برنامج رسمي لإجلاء العرب عن طريق ارهابهم".

وبعد قيام هذه الدولة انصرفت إلى ممارسة العنف ضد العرب في الداخل والخارج، ضد العرب الموجودين فيها ، وضد الدول العربية المجاورة لها، ففي فلسطين كانت مجازر وفظائع في اقرت (ديسمبر / كانون الأول 1951) والطيرة (يوليو/ تموز 1953) وأبو غوش (سبتمبر/ تشرين الأول 1953 وكفر قاسم (اكتوبر/ تشرين الأول 1956) وعكا (يونيو/ حزيران 1965)ومجازر نحالين وقبية. وليس من قبيل المصادفة أن يقود الكيان الصهيوني العنصري ، رجل مثل مناحيم بيغن الذي خطط وأشرف بنفسه على تنفيذ مجزرة دير ياسين، ولن نستطرد كثيراً في وصف الجرائم التي اقترفتها منظمته الإرهابية (الأرغون) في حق الفلسطينيين، وأما الغارات المتلاحقة على الدول العربية، نذكر هنا تصريح مناحيم بيغن في الكنيست ففي 1955/10/12، قال بيغن: "أؤمن إيماناً عميقاً بشن حرب وقائية على الدول العربية دونما إبطاء وإذا فعلنا ذلك، أحرزنا هدفين: الأول محو القوة العربية والثاني توسيع أراضينا".

ولو تتبعنا سير الاعتداءات المتكررة ضد الدول العربية فإنها كانت دوماً تتستر تحت مظلة الدفاع عن النفس ، والقضاء على الإرهاب ، ولكن كم من الأبرياء والخسائر يذهب ضحية الإرهاب الصهيوني المنظم؟، ونشير هنا، من قبيل التذكير لا الحصر، إلى مدرسة بحر البقر الابتدائية المصرية التي هاجمتها طائرات الصهيونيين، أثناء تواجد طلبتها الصغار داخل صفوفها، وقذفتها

بالقنابل الحارقة وقنابل النابالم، وإلى مصنع أبي زعبل وإلى مطار بيروت، وإلى الطائرة الليبية المدنية التي أُسقطت بالصواريخ، ثم أخيراً المذابح التي ارتُكبت في جنوب لبنان ، وعمليات الهدم والسلب التي تعرضت لها المدن والقرى بعد الغزو الصهيوني في مارس 1978، تحت ذات المظلة: حماية النفس والقضاء على الإرهاب.

لقد شرّد الصهاينة مئات الآلاف من المدنيين ، وقتلوا عشرات الآلاف ، وهدموا المنازل، بل لم يتورعوا عن ارتكاب جريمة وحشية ضد حوالي مئة مدني لجأوا إلى أحد المساجد.

وليس من شك في أن الأعمال الإجرامية التي يقوم بها الصهيونيون لا يمكن أن تُفهم وتفسر إلا على ضوء منهج مرحلي، يقول الدكتور محمد المجذوب في كتابه "**أعمال إسرائيل الانتقامية ضد الدول العربية**": "إن الأعمال الانتقامية ليست إذن سوى هجمات عسكرية مرسومة تلجأ إليها إسرائيل الحين بعد الحين، لخدمة استراتيجيتها القومية ، ومخططها السياسي العام، إنها خطوات تساعدها على بلوغ غاياتها القومية، وما حجّة الانتقام التي تتذرع بها سوى قناع شفاف تحاول به إخفاء أغراضها الرئيسية من حملاتها العسكرية"[43].

وإذا كنّا نشاهد العنف، من خلال مظاهره المتمثلة في الاعتداءات المتكررة، كالمجازر الجماعية (مجزرة دير ياسين) ذهب ضحيتها (254) فلسطينياً يوم 9 إبريل / نيسان 1948، ومجزرة قبية يوم 14 أكتوبر / تشرين الأول 1956، التي اكتسحتها القوات الصهيونية وقتلت (142) فلسطينياً، فإنه يجدر بنا الإشارة إلى تلك القوانين المتعسفة التي تُمارس ضد العرب في فلسطين والتي تُعتبر بحد ذاتها، أبلغ إدانة للتمييز العنصري الذي يمارس ضد العرب، ويجعلهم مواطنين من الدرجة الدنيا. إن القوانين التي تحكم العرب في الأراضي المغتصبة، منذ عام

1958، تتمثل في قوانين وأنظمة الطوارئ العسكرية، وأنظمة وقوانين الطوارئ المدنية وقانون استملاك الأراضي وقانون التحدد لعام 1958، وقانون العودة، وقانون الجنسية ، ومجمل هذه القوانين يعمل على الحد من حرية المواطن العربي لكونه عربياً وتعمل على سلبه أرضه.

وقد وصف الكاتب اليهودي ديريك توزير السياسة الإسرائيلية تجاه العرب بقوله: "إن السياسة الرسمية لحكومة إسرائيل صريحة لا لُبس فيها ولا غموض. فالعرب كاليهود في ألمانيا النازية، يعتبرون رسمياً مواطنين من الدرجة الثانية، وهذه الحقيقة مسجلة في بطاقات هويتهم[44]. كما اعترف ميشال كوماي الذي عمل سفيراً لإسرائيل في واشنطن في مايو 1965: بأن إسرائيل تفرض على العرب الموجودين فيها قيوداً شديدة تتسم بالتمييز العنصري"[45]، وقالت ميروريكا عضو أمانة اتحاد المرأة الديمقراطي الفنلندي في 25 ديسمبر / كانون الأول 1975 بعد زيارة لها إلى فلسطين المحتلة:"إن مظاهر الاستغلال والتفرقة العنصرية تشاهد في كل مكان، ليس في الأراضي المحتلة ولكن في إسرائيل أيضاً. إن العرب محرومون من العمل في كثير من المصانع بدعوى ضمان الأمن كما أن حرمانهم مطبق أيضاً على الوظائف الحكومية"[46].

وجملة هذه المجازر، وهذه الإجراءات التعسفية تستهدف إفراغ الأراضي المغتصبة من سكانها العرب،. وقد أكّد بيغن هذه الحقيقة حين قال: لولا النصر في دير ياسين، ما كانت دولة إسرائيل[47].

لقد أعلنت الصهيونية، منذ نشأتها وبعد قيام دولتها العنصرية أنها تريد أرضاً خالية من السكان، وقادرة على استيعاب المزيد من المهاجرين، لذا فإنها اتخذت كل الأساليب المشار إليها ؛ من تدمير القرى، وتغيير معالم المناطق العربية، ومن مجازر دموية ضد المدنيين، ومن أساليب عنصرية تمثلت بمجموعة

من القوانين اللاإنسانية والتعسفية التي باتت أكثر وضوحاً لدى الرأي العام العالمي ، ومن مظاهرها الاعتداءات المتكررة ، واحتلال المزيد من الأراضي. وتقول إن اتخاذ كل هذه الأساليب أمر طبيعي وضروري وفق الاستراتيجية الصهيونية العنصرية، وإذا كان العالم ينظر إلى الكيان الصهيوني كأمر واقع، فإن هذا العالم - كلّه بلا استثناء- أدان التوسع الصهيوني في الأراضي العربية، وأدان فكرة ضم هذه الأراضي، إن احتلال أرض بالقوة لا يعطي الشرعية للمحتل بامتلاكها، أو تغيير معالمها البشرية والجغرافية.

يقول البروفسور **ناتان فينبرغ** وهو مختص في القانون الدولي:["يقترف رئيس وزراء إسرائيل خطأً كبيراً بقوله إن الحرب الدفاعية تمنح شرعية ضم الأراضي المحتلة. كل ما تعطيه هذه الحرب طبقاً لمبادئ القانون الدولي، هو اختراق الحدود للدولة المهاجمة بهدف إيقاف الهجوم، كما أنه من المدهش حقاً، أن يستشهد مناحيم بيغن، بما جرى في أوروبا من تعديلات بعد الحرب العالمية الثانية، ليبرهن على صحة ادعاءاته بضم الأراضي العربية المحتلة لدولته. وينسى رئيس وزراء إسرائيل أن الموقعين على ميثاق سان فرنسيسكو عام 1945، يتبنون بصورة واضحة، ويؤكدون ما جاء في المادة (107) من اتفاقيات يالطا، التي تنص على أن لا شيء في هذا الميثاق يمنع من اتخاذ الإجراءات اللازمة ضد أي دولة كانت خلال الحرب العالمية الثانية معادية لموقعي الميثاق".][48]

إن تلك الشرعية، التي تعتمد عليها الصهيونية، ليست في الحقيقة إلا شرعية المستعمر والقوة الغاشمة التي تسمح بالاستيلاء على حقوق الآخرين. وقد أكد مناحيم بيغن في حديث لمجلة الإكسبريس الفرنسية، يوم 77/5/22 (ان مصطلح الضفة الغربية ليس له أي معنى، وأن الضفة هي يهودا والسامرا، وهذه ملك للشعب الإسرائيلي. وعن سؤال حول نية إسرائيل ضم الضفة الغربية

قال بيغن: "يمكن ضم أراض أجنبية، ولكن الضفة الغربية مناطق محررة". ..)
وهذا القول لا يحتاج منّا إلى تعقيب.

الفلسطينيون الحق والعدل

جاء يهودي يشكو علياً بن أبي طالب إلى عمر بن الخطاب، فلما مثل بين يديه نظر إلى علي وقال : "اجلس يا أبا الحسن، فظهرت آثار الغضب على وجه علي. فقال عمر: أكرهت أن يكون خصمك يهودياً، وأن تمثل وإياه أمام القضاء؟. فقال علي: لا ولكنني غضبت لأنك كنيتني والكنية تعظيم فخشيت أن يقول اليهودي، ضاع العدل بين المسلمين."

بمثل هذه الروح سادت العلاقة المتسامحة بين كافة الأديان عند العرب على امتداد التاريخ. ولم يجد اليهود العرب أي اضطهاد عنصري حيث كانوا بين ظهراني العرب. ويؤكد المؤرخون، أن تلك الرعاية التي لقيها اليهود في ظل الحكم العربي في الأندلس لم يجدوا لها مثيلاً. وحين واجه مسلمو الأندلس ويهودها الطرد والإجلاء من إسبانيا، بعد القضاء على الحكم العربي هناك، ارتحل معهم اليهود إلى المغرب العربي، ولم يكن بين العرب في فلسطين أو بين العرب اليهود ما يمكن أن يثير دواعي الفتن أو البغضاء بينهم إلا بعد أن تحولت الصهيونية تخطيطاً وممارسة إلى استعمار فلسطين، لذا فإن الثورة الفلسطينية حينما تقوم لا تستهدف اليهود بوصفه ديناً، إنما تستهدف تحرير فلسطين من الصهيونية، التي جاءت لتغتصب الحق الشرعي للفلسطينيين في وطنهم.

لقد اعترف العالم بحق الفلسطينيين في تقرير المصير، وفي الحقوق المتساوية، تأكد ذلك بقرار الجمعية العامة للأمم المتحدة، في الدورة 28 في ديسمبر 1973، جاء فيه: "**إن الجمعية العامة تؤكد من جديد أن لشعب فلسطين الحق في حقوق متساوية، وفي حق تقرير المصير، وفقاً لميثاق الأمم المتحدة. وتُعرب مرة أخرى عن**

قلقها الشديد لأن إسرائيل حرمت شعب فلسطين التمتع بحقوقه غير القابلة للتصرف، وحماية حقه في تقرير المصير، وتعلن أن الاحترام التام لحقوق شعب فلسطين غير القابلة للتصرف، وتحقيقيها خصوصاً حقه في تقرير المصير، لا بد منها لتوطيد سلام عادل ودائم في الشرق الأوسط، وأن تمتع اللاجئين العرب الفلسطينيين بالحق في العودة إلى ديارهم وأملاكهم، ذلك الحق الذي اعترفت به الجمعية العامة في القرار 194 ، الدورة 13، في 11 ديسمبر / كانون الأول 1949، والذي أعادت الجمعية العامة تأكيده مراراً منذ ذلك التاريخ، لا بد منه لتحقيق تسوية عادلة لمشكلة اللاجئين ولممارسة شعب فلسطين حقه في تقرير المصير". [49]

وفي نفس الدورة المذكورة صدر قرار رقم 3103، جاء فيه: "إن الجمعية العامة تعلن رسمياً المبادئ الأساسية للوضع القانوني الخاص للمحاربين الذين يناضلون ضد السيطرة الاستعمارية والأجنبية والأنظمة العنصرية".

"إن نضال الشعوب الواقعة تحت السيطرة الأجنبية والأنظمة العنصرية في سبيل تحقيق حقها في تقرير المصير والاستقلال، هو نضال شرعي، ويتفق تماماً مع مبادئ القانون الدولي".

وفي الدورة 29 أصدرت الجمعية العامة قراراً رقم (3236) في نوفمبر / تشرين الثاني 1974، جاء فيه:

"إن الجمعية العامة تؤكد من جديد حقوق الشعب الفلسطيني غير قابلة التصرف وخصوصاً:

أ- الحق في تقرير مصيره دون تدخل خارجي.

ب- الحق في الاستقلال والسيادة الوطنية.

وتؤكد من جديد أيضاً، حق الفلسطينيين غير القابل للتصرف، في العودة إلى ديارهم وممتلكاتهم، التي طُردوا منها، وتطالب بإعادتهم. وتعترف كذلك بحق الشعب الفلسطيني في استعادة حقوقه بكل الوسائل وفقاً لمقاصد ميثاق الأمم المتحدة ومبادئه"[50]. وفي نفس الدورة صدر قرار رقم 3246 بتاريخ 29 نوفمبر / تشرين الأول 1974 جاء فيه: "إن الجمعية العامة تؤكد من جديد شرعية كفاح الشعوب في سبيل التحرر من السيطرة الاستعمارية والأجنبية، والقهر الأجنبي بكافة الوسائل المتاحة، بما في ذلك الكفاح المسلح. وتُدين بشدة جميع الحكومات، التي لا تعترف بحق الشعوب الخاضعة للسيطرة الاستعمارية، والأجنبية، والقهر الأجنبي، وعلى الأخص شعوب إفريقيا، والشعب الفلسطيني في تقرير المصير والاستقلال[51].

وفي الدورة 29 صدر قرار رقم 3210 بتاريخ 14 أكتوبر / تشرين الأول 1974، بدعوة منظمة التحرير الفلسطينية إلى الاشتراك في المداولات، وهذا نصّه:

"إن الجمعية العامة إذ ترى أن الشعب الفلسطيني هو الطرف الأساسي المعني بقضية فلسطين، تدعو منظمة التحرير الفلسطينية، الممثلة للشعب الفلسطيني إلى الاشتراك في مداولات الجمعية العامة بشأن قضية فلسطين في جلساتها العامة"[52].

إن قرارات الأمم المتحدة السالف ذكرها تؤكد على ما يلي:

1. إن للشعب الفلسطيني حقوقه الثابتة في فلسطين، غير القابلة للتصرف، وحق الفلسطينيين في العودة إلى ديارهم وممتلكاتهم، التي طُردوا منها، وتطالب بإعادتهم إلى ديارهم، التي شرّدوا واقتلعوا منها.
2. إن للشعب الفلسطيني حقه في تقرير المصير، واستعادة حقوقه بكل الوسائل.

3. إن الجمعية العامة للأمم المتحدة تعترف بأن الشعب الفلسطيني يخضع للسيطرة الأجنبية والقهر الأجنبي.
4. إن الجمعية العامة تعترف بشرعية الكفاح المسلح في سبيل التحرر من السيطرة الاستعمارية والقهر الأجنبي.
5. إن الجمعية العامة تعترف بمنظمة التحرير الفلسطينية ممثلةً للشعب الفلسطيني، ويؤكد ذلك نص الدعوة للاشتراك في المداولات.

إن مجمل هذه القرارات تؤكد أن الشعب الفلسطيني مطرود من وطنه، وتحتل أرضه قوى أجنبية متمثلة بإسرائيل، له حقوقه الثابتة في فلسطين، وله الحق في تقرير مصيره بكافة الوسائل، وتكون منظمة التحرير الفلسطينية ممثلة للشعب الفلسطيني.

وإذا كان تاريخ إسرائيل، منذ قيامها، يحفل بالرفض الكامل لكافة قرارات الأمم المتحدة، المتعلقة بالشعب الفلسطيني وحقوقه المشروعة فإن إسرائيل ذاتها تستند إلى قرار الأمم المتحدة ، الذي يقبلها عضواً فيها قراراً يثبت شرعية وجودها القائم.

وإذا كانت إسرائيل تحاول تشويه الثورة الفلسطينية، ووصم الثوار الفلسطينيين بسمة الإرهاب، فإن هذا لا يضير الثورة الفلسطينية في شيء، لأن حق الشعب الفلسطيني في الكفاح، حق مقر ومعترف به في الأمم المتحدة ذاتها.

يقول ديميرون: "إن وصف الإرهاب كلمة كان على الفرنسيين أن يعرفوها جيداً، فهي الكلمة التي كان يستخدمها الألمان وحلفاؤهم، وهم الذين أصبحوا اليوم المعجبين بتسمية رجال المقاومة، أثناء الاحتلال، وهو الاسم الذي يطلقه دائماً جميع المحتلين، على أولئك الذين يناضلون من أجل تحرير وطنهم"[53].

إن الثورة الفلسطينية حينما تمارس الكفاح المسلح، إنما تقوم بهدف إرساء قواعد العدل، ذلك لأن الحرب التحريرية "هي حرب عادلة، لأنها تستهدف ضمان أهم الحقوق الإنسانية، وهو حق تقرير المصير، وهو حق ثابت في القانون الدولي المعاصر، بما في ذلك قانون الأمم المتحدة. كما أنها تستهدف ممارسة الشعب الفلسطيني لهذا الحق، بحرية على أرض بلاده، وهكذا يقترن حقه في تقرير المصير مع حق إنساني أساسي آخر هو حقه في العودة إلى بلاده، التي طُرد منها، وهو حق يستمده من انتمائه التاريخي الواقعي المتواصل للأرض الفلسطينية منذ آلاف السنين، كما يستمده من مواد الإعلان العالمي لحقوق الإنسان لسنة 1948، والاتفاقية الدولية لحقوق الإنسان المدنية والسياسية لسنة 1966، فضلاً عن تأكيد حقه هذا في قرار الجمعية العامة للأمم المتحدة، الذي صدر في العام 1948، والذي تكرر سنوياً منذ ذلك الوقت، الأمر الذي يرقى به إلى مرتبة القاعدة القانونية الملزمة"[54].

إن الثورة الفلسطينية تطمح إلى تحقيق العدل، والعدل دوماً لا يرتضيه الظالمون، إن العدل الذي أقره المجتمع الدولي، يتيح لملايين من اللاجئين الفلسطينيين المشتتين في أقطار العالم كله، العودة إلى ديارهم وممتلكاتهم . وإذا علمنا أن فلسطين المحتلة يقطنها أكثر من ثلاثة ملايين من الفلسطينيين العرب، **فإن الحل الوحيد والعادل هو إلغاء الكيان الصهيوني العنصري، وإقامة دولة فلسطينية ديموقراطية، يسودها العدل والمساواة، دولة لا تمييز فيها بين إنسان وإنسان بسبب العقيدة أو العرق أو اللون.**

هذه هي فلسطين العدل، التي تطمح إليها الثورة الفلسطينية وتلك هي فلسطين الغد، التي ستقيمها سواعد المؤمنين بالحق والعدل، والتي تقف معها، والقوى التقدمية دعماً، وتأييداً، حتى يقتلع الكيان الصهيوني العنصري الإمبريالي من فلسطين.

خلاصة :

في الصفحات السابقة حاولنا أن نؤكد جملة حقائق هي:

- أولاً : إن قيام إسرائيل ليس له مستند في التاريخ ولا في العقيدة.
- ثانياً: إن نشأة إسرائيل ارتبطت بالإمبريالية العالمية، التي ما زالت تدعمها وتحميها. وليس غريباً أن يصرّح كارتر في 9 مارس 1977 بأن إنشاء دولة إسرائيل هو أعظم عمل صنعته بلدان العالم (55) .
- ثالثاً: إن الصهيونية عقيدة رجعية عنصرية، حققت وجودها على أرض فلسطين، وشردت شعبها... هي ذات طبيعة توسعية أدانها المجتمع الدولي.
- رابعاً: إن دولة إسرائيل منذ قيامها تقف ضد قضايا التحرر في العالم كله، وتشهد جمعية الأمم المتحدة بتصويتها الدائم على حلفها غير المقدس بالأنظمة العنصرية في روديسيا وجنوب إفريقيا.
- خامساً: إن عروبة فلسطين تستند إلى قوة الحق والتاريخ، وإن حقوق الشعب العربي الفلسطيني بكامل ترابه هي حقوق مشروعة، ومؤيدة من المجتمع الدولي والقانون الدولي.
- سادساً: إن تحرير فلسطين مسؤولية قومية تتطلب من العرب العمل على تحرير فلسطين والدفاع عن تراب الوطن العربي، وكيانه الدولي، واستعادة حقوقه المقدسة في جزء من ترابه.
- سابعاً: إن منظمة التحرير الفلسطينية هي الممثل الشرعي الوحيد للشعب الفلسطيني، وليس لأحد أن يساوم على حقوق الشعب الفلسطيني الثابتة.

وبعد:

إن كل قوى الخير في العالم، تقف الآن أمام خيارين: إما الوقوف إلى جانب الظلم، الذي تمثله إسرائيل السيف. وإما الوقوف إلى جانب شعب مضطهد مكافح لتحقيق فلسطين العدل والاختيار لدى ذوي الضمائر الحية ليس صعباً.

لذا فإن مسؤوليات جسام يقع عبئها على القوى الشعبية والتقدمية في العالم، تجاه شعب فلسطين وثورته. إن التعاطف مع الشعب الفلسطيني يمكن أن تقوم به جمعيات البر والإحسان، لكن على القوى التقدمية أن تضع يدها بيد الثورة الفلسطينية للنضال معاً ضد الإمبريالية والقوى الصهيونية، التي تمثل اليوم أبشع أنواع العنصرية والفاشية.

إن هذه المسؤوليات تتعدد لتشمل التعريف بعدالة قضية الشعب الفلسطيني، وتعرية آثام إسرائيل وجرائمها، لئلا يظل الأقوياء قادرين على إيجاد المبررات لجرائمهم، بينما يصبح دفاع المضطهدين عن النفس جريمة.

إن مسؤوليات القوى التقدمية تتمثل في:

1. الدعم المعنوي، ويتمثل في وضع كافة إمكانات الإعلام لشرح عدالة القضية الفلسطينية، وفضح الدعاية الصهيونية وجرائمها، وكشف الطبيعة العنصرية العدوانية لإسرائيل، وإتاحة الفرصة للثورة الفلسطينية لإيصال رأيها إلى المواطن العربي.
2. العمل على كشف التحالفات القائمة بين الكيان الصهيوني والإمبريالية العالمية، بمؤسساتها العسكرية والاقتصادية، والأنظمة العنصرية، وخاصة إدانة الجمعية العمومية للأمم المتحدة للحركة الصهيونية باعتبارها حركة عنصرية.
3. الإدراك بأن السلام في الشرق الأوسط لا يتحقق إلا بتحقيق العدل، بعودة الشعب الفلسطيني إلى كامل ترابه، وإقامة دولته المستقلة الديموقراطية على كامل التراب الفلسطيني.

وإذا كانت القوى التقدمية العالمية تؤمن بأن العدل قيمة مطلقة، وأن الحق قيمة مطلقة، فإنها ستقف مع العدل، ومع الثورة الفلسطينية في خندق واحد، لتحارب معها، وستجنّد وسائلها الخاصة للدفاع عن العدل الإنساني وتحقيقه، فالثورة الفلسطينية تقف الآن، دفاعاً عن الإنسانية في مواجهة أبشع أنواع الاستعمار الاستيطاني العنصري في فلسطين.

الهوامش

1 - إفرايم تاري: من الفكر الصهيوني المعاصر، مركز الأبحاث، بيروت، 1966، ص168- 169.

افرايم تاري، موظف في وزارة الخارجية الاسرائيلية.

2 - موشيه سنه، المصدر السابق، ص 253 .

موشيه سنه : طبيب ولد في بولونيا 1909، هاجر إلى فلسطين 1940، عيّن رئيساً للهاغاناه 1941- 1946. انتخب نائباً في الكنيست عدة مرات. ممثلاً للمابام ثم انضم للحزب الشيوعي الإسرائيلي وعمل أمين اللجنة المركزية.

3 - المصدر نفسه، ص 250 .

4 - نقلاً عن كتاب "تاريخ العرب الحديث"، تأليف د. زاهية قدورة، بيروت، 1973م، ص17 .

كذلك انظر، ارنولد توينبي (فلسطين جريمة ودفاع)، ص121- 122 .

5 - بيير ديميرون : ديميرون ضد اسرائيل PIERR DEMERON (Demeron Contre Israel)

ترجمة : شفيق محمد شفيق، القاهرة، ص61- 62 .

6 - Moshe Menuhin (The Decadence of Judaism in Our Time) Zed. M. Beirut, 1969.

7 - ألمر بيرغر، فلسطين والكتاب المقدس، عمر التومي الشيباني، طرابلس،المسسة العامة للصحافة 1978م، ص13 .

8 - المصدر السابق، ص 21- 22 .

كذلك انظر حسين التريكي، هذه فلسطين، تونس، 1971م، ص40- 43.

وانظر د. مراد كامل، إسرائيل في التوراة والإنجيل المعاصر.

9 - إيفانوف، احذروا الصهيونية، موسكو ص31- 32 .

10 - عودة بطرس عودة، المصدر سبق ذكره، ص42 .

11 - المصدر نفسه، ص32- 33 .

12 - تيودور هرتزل، الدولة اليهودية، الفكر الصهيوني، بيروت، ص120.

13 - تيودور هرتزل، يوميات هرتزل، إعداد أنيس صايغ، ترجمة هلدا صايغ، مركز الأبحاث، بيروت، 1973م، ص113.

14 - ديمرون، المصدر سبق ذكره ، ص103- 104.

15 - عودة بطرس عودة، ، المصدر سبق ذكره ص214- 217.

16 - مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية، الأهرام، القاهرة، 1972م، ص430، العسكرية الصهيونية.

17 - رتشارد ، ستيفنز ، مقدمة لإسرائيل، دراسات فلسطينية، جمعية الخريجين الكويتيين، ص215- 216.

د. أسعد رزوق، الصهيونية وحقوق الإنسان العربي، مرز الأبحاث، بيروت، 1968م، ص76

18 - د. فايز صايغ، الاستعمار الصهيوني في فلسطين، ترجمة عبد الوهاب الكيالي، بيروت، 1965م، ص31 .

19 - من الفكر الصهيوني المعاصر، ، المصدر سبق ذكره ، مركز الأبحاث، بيروت، 1967م، ص 301 .

20 - مصطفى عبد العزيز، إسرائيل ويهود العالم، مركز الأبحاث، 1969م، ص91.

21 - الجوهر الرجعي للصهيونية، دار التقدم، موسكو،1975م، ص69.

22 - د. أسعد رزوق، ، المصدر سبق ذكره ، ص77 .

23 - انظر مجلة دراسات فلسطينية، 1976م.

24 - الجوهر الرجعي للصهيونية،، المصدر سبق ذكره ص 74 .

25 - كريستوفر إيكس، مفارق الطرق إلى إسرائيل، ترجمة خيري حماد، بيروت، 1966 م، ص243 .

26 - انظر مجلة شؤون فلسطينية، العدد 72، ص103، بيروت، 1977م.

27 - د. أسعد رزوق، ، المصدر سبق ذكره ، ص76 .

28 - دراسات فلسطينية، ص 85 .

29 - المصدر نفسه، ص 225.

30 - د. أسعد رزوق، ، المصدر سبق ذكره ص 53 .

31 - من الفكر الصهيوني، ، المصدر سبق ذكره ص231- 232 .

32 - الكتاب السنوي للقضية الفلسطينية لعام 1964، بيروت، 1966م، ص208 .

33 - من الفكر الصهيوني،، المصدر سبق ذكره ص 355 .

34 - من الفكر الصهيوني،، المصدر سبق ذكره ص 292 .

35 - قرارات الأمم المتحدة، ص138- 139 .

36 - دراسات فلسطينية، ، المصدر سبق ذكره ص141- 142 .

37 - من الفكر الصهيوني المعاصر،، المصدر سبق ذكره ص 334 .

38 - تهويد فلسطين،، المصدر سبق ذكره ص 39 .

39 - Charles Douglas – Home, The Arabs and Israel, London, 1968, p.9

- 40See: A Kowsttler the Thirteenth Tribe

- 41John Davis, The evasive peace, p. 44.

42 - **ديمرون، المصدر سبق ذكره ، ص** 42 .

43 - **د. محمد المجذوب، أعمال اسرائيل الانتقامية ضد الدول العربية، ص**134

44 - **ملف القضية الفلسطينية، ص** 81 .

45 - **الصهيونية والعنصرية، سبق ذكره ص**116- 117 .

46 **المصدر نفسه ص**116- 117 .

47 - **ملف القضية الفلسطينية، المصدر سبق ذكره ص** 50 .

48 - **جريدة البعث، العدد الصادر في** 1978/4/11**م.**

49 **قرارات الأمم المتحدة، المصدر سبق ذكره ص**141- 142 .

50 - **المصدر نفسه ، ص** 155 .

51 - **المصدر نفسه ، ص** 161- 162 .

52 - **المصدر نفسه ، ص** 155

53 - **ديمرون، المصدر سبق ذكره ، ص**54- 55 .

54 - **دراسات فلسطينية، المصدر سبق ذكره ص**139 .

55 - **طاهر عبد الحكيم، كارتر والتسوية في الشرق الأوسط، ص**93 .

56 - **ندوة القانونيين العرب، القضية الفلسطينية، بيروت،** 1968**م، ص**38 .

57 - **من الفكر الصهيوني المعاصر، مركز الأبحاث، بيروت،** 1967**م، ص**155- 157.

58 - **ندوة القانونيين العرب، القضية الفلسطينية، ص**37 .

59 - **أرنولد توينبي، فلسطين جريمة ودفاع، ط**2**، بيروت، سنة** 1966**م، ص**11.

60 - د. أسعد رزوق، نظرة في أحزاب إسرائيل، مركز الأبحاث، بيروت، 1966م، ص40.

61 - عبد الوهاب الكيالي، المطامع الصهيونية التوسعية، مركز الأبحاث، بيروت.

62 - فايز صايغ، الاستعمار الصهيوني في فلسطين، مركز الأبحاث، بيروت، 1965م، ص 20 .

63 - عبد الوهاب الكيالي، المصدر سبق ذكره ، ص 8 .

64 - المصدر نفسه.

65 - مؤتمر الشعب العربي للتصدي لمؤامرة السادات، ديسمبر 1977م.

["قبل كل شيء علينا أن نكون أقوياء لدرجة أن نعرف نحن أيضاً أنه يستحيل التغلب علينا، وحتى ينغرس في أذهانهم أنه يستحيل التغلب علينا. إن كل عمل نقوم به في دولتنا يجب أن يستهدف عدم تمكينهم من التغلب علينا في أي مجال كان في التعليم والاقتصاد وفي تماسك الشعب"].

رئيس الأركان الإسرائيلي **الجنرال روفائيل إيتان**

صحيفة معاريف (80/9/10)

الباب الأول

الفصل الثاني

الثقافة الفلسطينية والتحدي من أجل البقاء:

المجابهة الفلسطينية لسياسة الإرهاب الإسرائيلي

منذ الاحتلال حتى عام 1985

بحث مقدم إلى : الندوة العالمية لدعم وحماية الثقافة الفلسطينية في الأرض المحتلة

تنظيم : المجلس القومي للثقافة العربية * الحركة الثقافية لعموم اليونان* الاتحاد العربي اليوناني

30 – 31 آذار 1986م.

أثينا / اليونان

الباب الأول

الفصل الثاني

الثقافة الفلسطينية والتحدي من أجل البقاء:

المجابهة الفلسطينية لسياسة الإرهاب الإسرائيلي
منذ الاحتلال وحتى عام 1985

مقدمة:

لم يشهد التاريخ حدثاً في قسوته وظلمه، مثلما حدث في فلسطين العربية حيث شهد محاولة اجتثاث للشعب العربي الفلسطيني من أرضه، واقتلاعه من جذوره التاريخية ، ومحاولات دائبة لطمس شخصيته، ومحو ثقافته. هذا هو الواقع الذي يشهده العالم اليوم متفرجاً وشاهداً على تصرفات الكيان الصهيوني المحتل في فلسطين العربية. إن طبيعة الصراع ليست مجرد صراع على الأرض – وإن كانت الأرض محور الصراع – بل إنه صراع لمحو ثقافة شعب كامل، وتشويه شخصيته.

ومنذ قيام الكيان الصهيوني عام 1948 دولة صهيوينة عنصرية هي "إسرائيل" كان هدفها الأساسي قيام دولة إسرائيل الكبرى، على حساب شعوب المنطقة.

وبرغم كل الدعاوى التاريخية الباطلة التي قامت عليها "دولة إسرائيل" فإن العلاقة التاريخية بين الشعب العربي الفلسطيني وبلاده فلسطين تمتد إلى

أربعة آلاف عام كما يقول ذلك الكاتب اليهودي موشى منوحين Moshe Monuhin في كتابه "اضمحلال اليهودية في عصرنا" "The Decadence of Judaism In Our Time"

"منذ أكثر من أربعة آلاف سنة خلت ، وكما نعرف من خلال قصص التوراة فإن الكنعانيين عاشوا في فلسطين وأن بعض العرب الفلسطينيين المنفيين الآن لاجئين يعيشون في الخيام والأكواخ في معسكرات خارج حدود وطنهم، هؤلاء ينحدرون في أصلهم إلى هؤلاء الكنعانيين القدامى ، الذين كانوا مزيجاً من الساميين والآريين والحيثيين وهؤلاء الكنعانيين استقروا وبنوا المدن والقصور واستخدموا الجياد والعربات وبنوا المعابد المزينة بالأصنام"

لقد دخلت شرعية "إسرائيل" إلى أذهان البعض خاصة في الغرب، من خلال مقولة الحق التاريخي ، والتي فنّدها رأي مؤرخ ورجل دين يهودي مثل موشى منوحين ، ومن خلال مقولة الحق الديني التاريخي التي استندت الإدعاءات الصهيونية عليها لهدف سياسي، هذه المقولة التي يفندها حاخام يهودي هو الدكتور المر بيرجر Elmer Berger بقوله:

"إن أحسن ما يمكن أن توصف به دولة إسرائيل من حيث شرعيتها وسندها من الكتاب المقدس، هو أنها سلطة سياسية تم إنشاؤها وتأسيسها من خلال طرق فاقدة لأي قدسية أو سند من الكتاب المقدس، هو أنها سلطة سياسية تم إنشاؤها ، ومن بين أغلب سكانها اليهود، لا تزال هناك أقلية تخوض معركة سياسية شرسة مع الدولة لإجبارها على تبني الأخلاق ، وأساليب السلوك ، التي يمكن أن تتلاءم وتتطابق مع نبوءات الكتاب المقدس، هذا التطابق مع نبوءات الكتاب المقدس غير متحقق اليوم، ولا يبدو أن تحقيقه قريب المنال في المستقبل. إن دولة إسرائيل الحالية ليس لها سواء من حيث العملية التي تم إنشاؤها ، أو من حيث النتائج التي ترتبت على هذا الإنشاء ليس لها ما يبررها في الإعلانات ، والتعاليم،

والوصايا الخلقية والدينية الرفيعة للعظماء الروحيين ، الذين كلماتهم خالدة على الدوام في الكتاب المقدس" .

لقد قامت إسرائيل دولة عنصرية تجسيداً للحلم الصهيوني في إقامة دولة على أرض فلسطين، وقامت معتنقة الإيديولوجية الصهيونية ، التي تجسد شكلاً من أشكال العنصرية والتمييز العنصري ، كما جاء ذلك في قرار الجمعية العامة للأمم المتحدة رقم 3379 (د- 30) في الجلسة العامة (2400) 10 تشرين الثاني 1975 . وفي ديباجة القرار إدانة للصهيونية بأقصى درجات الإدانة بوصفها تهديداً للسلم والأمن العالميين ، وكذلك المطالبة بمقاومة هذه الإيديولوجية العنصرية الإمبريالية.

الاستراتيجية الصهيونية في فلسطين:

وصف غاري سميث في مقاله "الصهيونية السياسية: انتقادات يهودية" الكيان الصهيوني بقوله:

"وفي عام 1948 ولدت الصهيونية العنف كما كان متوقعاً. وفي غمرة هذه العملية تم إخراج مئات الألوف من العرب الفلسطينيين من منازلهم وممتلكاتهم. ومن ثم تشريدهم. وكان الكثيرون منهم ضحايا الإرهاب النفسي وقوة الأسلحة اليهودية. ومنذ عام 1948 نشبت ثلاث حروب أخرى بين العرب والإسرائيليين ازداد في كل منها تشرد العرب واتسعت رقعة المناطق التي تهيمن عليها إسرائيل. ولكن طبيعة الدولة الصهيونية ظلّت ثابتة كما هي. فقد استقر وترسّخ طابعها الخاص ولا ديمقراطيتها في كل من المجالات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية لهذه الدولة التوسعية".

وقد تمثل ذلك باستخدام أساليب متعددة من التمييز العنصري وأساليب القمع والاضطهاد والقتل والسجن للشعب الفلسطيني. ويصف لنا ستيفان غورانوف الأسلوب الصهيوني بقوله:

"ومن بين الوسائل التي اتبعت لطرد السكان الأصليين مقاطعة العمال العرب والمنتجات العربية ، وتسهيل ابتياع المؤسسات اليهودية للأراضي ، التي تمتلكها سلطات الانتداب ومن خلال وضع قوانين وتشريعات تساعد على نقل ملكية الأراضي من أصحابها العرب إلى المهاجرين اليهود. وعندما كانت وسائل الضغط الاقتصادي تعجز عن توليد الآمال المرجوة، كان الصهيونيون يلجأون إلى استخدام القوة الوحشية، وهكذا استطاعوا أن يغيروا الطابع الديموغرافي للسكان الأصليين لمصلحة المهاجرين اليهود. ولم يكونوا يتورعون في سبيل تحقيق هذا الغرض عن التمييز العنصري بين العرب واليهود، بحيث تكون مصلحة السكان اليهود دائماً مؤمنة الهيمنة على حساب مصالح السكان العرب. ولقد أسفر تطبيق هذا التمييز عن نزاعات عسكرية عديدة بينها أربع حروب شنّها الصهيونيون على الشعوب العربية المجاورة".

إن الكيان الصهيوني – بأيديولوجيته العنصرية التي ارتبطت دوماً بالإمبريالية العالمية – ظلّ يعتمد في تحقيق استراتيجيته على اعتماد المقومات الأساسية الآتية:

أولها: احتلال الأرض ، باعتماد مبدأ التوسع هدفاً دائماً لاستيعاب أفواج المهاجرين الصهاينة.

ثانياً: إفراغ الأرض من السكان الأصليين، معتمدين في ذلك على أساليب القمع والإرهاب واضطهاد الناس، وتضييق سبل الحياة أمامهم، وترحيلهم من ديارهم، ومصادرة أراضيهم ومن بين ما قامت به إسرائيل بناء على تقرير أعدّه إسرائيل

شاهاك رئيس الرابطة الهيودية لحقوق الإنسان في شباط 1973 فإن حوالي 385 قرية عربية دمّرت وصودرت الأراضي التي كان يمتلكها اللاجئون العرب وكذلك بعض الأراضي التي تمتلكها الأقلية العربية في إسرائيل، وبين عامي 1948 – 1970 صادر الكيان الصهيوني نحو مليون دونم من أراضي القرى العربية. وإذا أضفنا إلى مصادرة الأراضي ومنع المشاريع في القطاع العربي فإن سياسات إسرائيل تجاه العرب تمثلت فيما يلي:

"وبالإضافة إلى سياسة احتواء الأقلية العربية في إسرائيل وبذل الجهود لابقاء العرب عند أدنى سلّم الطبقات الاجتماعية حتى يحملهم ذلك على المهاجرة إلى خارج إسرائيل، فقد فرضت الدولة قيوداً شديدة على التعليم في القطاع العربي في إسرائيل. فالسلطات تبذل كل ما في وسعها للحيلولة دون إقبال العرب على الدراسة والتعليم. فعلى الرغم من أن كلا الجانبين العربي واليهودي يعيش في دولة واحدة، فإن مستوى المرافق التربوية لدى كل منهما يختلف عنه لدى الجانب الآخر. فمرافق التربية والتعليم عند العرب أدنى منها عند اليهود من جميع الوجوه، بما في ذلك مستوى تدريب المعلمين والمخصصات المالية المقررة، ناهيك عن مناهج التدريس المشوهة. أما التعليم العالي المتاح للعرب فقد فرضت عليه شتى القيود ووضعت أمامه مختلف العقبات، كما أن تعلم الطلاب العرب للغة العبرية إجباري. ومن العقبات التي تضعها الدولة في وجه متابعة الطلاب العرب دراستهم الجامعية، امتناعها عن إعفائهم من رسوم التعليم، الأمر الذي يجعلهم عاجزين عن متابعة دراستهم. ولكن حتى لو تمكن الطالب العربي من التغلب على هذه العقبات وتابع دراسته الجامعية وفاز بشهادة جامعية، يكتشف أن هذه الشهادة لا تجديه نفعاً لأنه لا يستطيع أن يحصل بها على أية وظيفة. وينبغي أن لا ننسى أن الحكومة الإسرائيلية ودوائرها العامة والمنظمة الصهيونية ودوائرها المختلفة هي مراكز العمل الرئيسية في إسرائيل — وهذه لا تشغّل عرباً.

ثالثاً: اعتماد مبدأي القوة والعنف لتحقيق الاستراتيجية الصهيونية ، ولهذا فإن الحديث عن الأمن القومي "لإسرائيل" يرتبط دوماً بعدة عناصر ، أولها ، مقولة الحدود الآمنة . وثانيها ، القوة الرادعة ومن ثم فإن العمليات العسكرية الإسرائيلية حتى لو كانت حاسمة فإنها عمليات حسم مؤقت ومحلي كما يرى اللواء الإسرائيلي يسرائيل طل في مقاله المنشور في جريدة دافار 1979/10/19 بعنوان "أمن إسرائيل في الثمانينات" واعتبر أن قوة إسرائيل تقوم على مبدأ الردع والوقاية لا المعاقبة، واعتبرت أن الردع والحسم وجهان لعملة واحدة، ويقول في مقالته تلك:

"إن نظرية الأمن الإسرائيلية قائمة منذ 30 سنة، حيث أثبتت نفسها خلال هذه الفترة على بديهية أن الردع والحسم هما وجهان لعملة واحدة. ولهذا السبب طوّرنا نظرية الردع على اساس الوقاية وليس المعاقبة. وأما مفهوم المعاقبة، الذي لا يعتبر جزءاً من مفهوم الحسم، فهو غريب عن وجهة نظرنا الأمنية وعقيم أيضاً. لقد افترضنا دائماً، وما زلنا نفترض، بأنه ليس في مقدورنا أن نفرض إرادتنا على العالم العربي بوسائل عسكرية. فلا يوجد هنا تناسب في قوى الطرفين. إذا ما نجح العرب في تحقيق حسم عسكري شامل، فسيكون ذلك أيضاً حسماً سياسياً نهائياً، وأما (عملياتنا) العسكرية الحاسمة فهي دائما وبالضرورة (عمليات) حسم مؤقت ومحلي. إن (عمليات) حسم كهذه فهمناها دائماً على أنها عقاب شديد للعدو، سواء احتللنا مناطق أو دمّرنا قوات وألحقنا (بالعدو) خسائر جسيمة. دائماً وأبداً ساد بيننا وبين دول المواجهة أيضاً ميزان الردع المتبادل بواسطة الحلفاء. وأخذنا في الحسبان دائماً الحلفاء الفوريين والطبيعيين لدول المواجهة من باقي أجزاء العالم العربي والدول الكبرى التي تقف وراءه أيضاً. وبذلك وقعنا تحت تأثير دائم من الردع. مع ذلك كانت دول المواجهة دائماً وأبداً ترتدع من قبل حليفنا".

إن مفهوم القوة المسيطرة على المنطقة تتجسد في تصريح الجنرال روفائيل ايتان رئيس الأركان الإسرائيلي لصحيفة معاريف (80/9/10) في رد على سؤال وجهه إليه المحرر حول ماذا يقوم به الإسرائيليون كيلا يبلغ العرب حد القدرة للتغلب عليهم، فأجاب بقوله:

"قبل كل شيء، علينا أن نكون أقوياء لدرجة أن نعرف نحن أيضاً أنه يستحيل التغلب علينا، وحتى ينغرس في أذهانهم أنه يستحيل التغلب علينا. إن كل عمل نقوم به في دولتنا يجب أن يستهدف عدم تمكينهم من التغلب علينا في أي مجال كان – في التعليم والاقتصاد وفي تماسك الشعب".

سياسة إسرائيل في مواجهة الشعب الفلسطيني

في مقالة لداني روبنشتاين في جريدة دافار (80/5/16) كتب موضحاً الأساس الذي تسير عليه إسرائيل في سياستها تجاه الشعب الفلسطيني في داخل وطنه، هذا الأساس يتلخص في وحشية القمع للفلسطينيين المطالبين بتحرير وطنهم.

كتب روبنشتاين قائلاً:

[".. تحولت التقارير في وسائط الإعلام الإسرائيلية ، حول ما يجري في الضفة الغربية ، إلى أحد الموضوعات البغيضة والمثيرة للغضب ، لدى كثيرين في البلد. والمعلومات الآتية من الضفة الغربية، وخصوصاً الجمهور العربي فيها، تصبح مثيرة للأعصاب أكثر كلما اشتدت حدة المشكلة. فالصحف تكتب، والتلفزيون يعرض شكاوى متزايدة ومستمرة من قبل العرب ، الذين يتعرضون للتنكيل، وتصادر أراضيهم – ويرى (الإسرائيليون) كيف يحاول العرب إيذاء جنود الجيش الإسرائيلي والمستوطنين. وكيف يقذفون الحجارة، ويقيمون

الحـواجز ، ويحرقـون إطـارات السـيارات. وهنـاك دائمـاً إضـرابات، مظـاهرات، احتجاجات على سلب حقوق. ويستمع الإسرائيليون ، ويشاهدون ، ويقرأون عن اجتماعات، شعارات وتصريحات معادية لإسرائيل، وهناك بالطبع رد الفعل الانتقامي الإسرائيلي والمستعمرات. وباختصار، هناك صراع، اصطدامات، تمرد، وتلعب المصطلحات والأسلوب هنا دوراً رئيسياً. فبإمكان المرء أن يكتب عن "تشويش في التعليم"، كما في تصريحات الناطقين بلسان الحاكم العسكري. أو أن يكتب عن "مظاهرات طلابية" وجزء من الملامح المميزة للحكم الإسرائيلي في الضفة الغربية وقطاع غزة يتمثل في تشويه لغة ومصطلحات التقارير الإعلامية، حيث إن القصد من تعابير مثل "تشويش في التعليم" أو "خرق النظام" هو تبهيت صورة صراع قومي مخيف يشتمل على العنف وسفك الدماء. وهناك بعد أمثلة كثيرة أخرى"[].

إن سياسة إسرائيل في الأرض المحتلة تتمثل بالممارسات التالية:

1. السيطرة الاقتصادية على الأرض المحتلة.
2. السعي الدائب لامتلاك الأرض بالاستيلاء عليها وإقامة المستوطنات.
3. استخدام الإرهاب والعنف لتفريغ الأرض من السكان.
4. تقييد حرية الناس وانتهاك حقوق الإنسان بالاعتقال والإقامة الجبرية والطرد من البلاد من خلال إصدار القوانين والأوامر العسكرية.
5. السيطرة على المؤسسات الثقافية، والعمل على تخريب وتدمير الثقافة الفلسطينية.

إن مجمل هذه الممارسات تهدف إلى إبقاء فلسطين بلا فلسطينيين ، وإذا بقي فيها فلسطينيون فيجب أن يكونوا بلا هوية ثقافية، عاجزين اقتصادياً، ونفسياً ويجب إبقاؤهم دائما تحت دائرة الرعب الصهيوني.

وفيما يتعلق بالسيطرة الاقتصادية، اتسم النشاط الاقتصادي الفلسطيني العربي في ظل الاحتلال الصهيوني بالتبعية للاقتصاد الإسرائيلي. وهكذا تحدد الوضع الاقتصادي للضفة الغربية في ضوءالاستراتيجية الإسرائيلية من خلال أهداف ثلاثة:

1. ابقاء الضفة الغربية كياناً اقتصادياً تابعاً لحركة الاقتصاد الإسرائيلي.
2. أن تصبح الضفة الغربية امتداداً جغرافياً وبشرياً لخدمة الزراعة والصناعة والمهن الإسرائيلية.
3. تطوير اقتصاديات الضفة الغربية لتصبح سوقاً تجارياً للمنتجات الإسرائيلية ، ولتصبح الضفة بعد ذلك منفذاً تجارياً للسلع الإسرائيلية إلى البلاد العربية.

وقد لخص الدكتور فؤاد بسيسو الأزمة الاقتصادية في المناطق المحتلة من خلال مجموعة من الحقائق تمثلت بالضغط الاقتصادي الذي يدفع في اتجاه المزيد من هجرة المواطن العربي وبزيادة معدلات الهجرة. وكذلك بالمؤامرة الخطيرة لتذويب مخيمات اللاجئين الفلسطينيين التي تضم ما نسبته 41.2٪ من سكان الضفة الغربية، وما نسبته 47.6٪ من سكان قطاع غزة (مجموع اللاجئين بلغ خلال عام 1982 حوالي 600.000 في الضفة والقطاع). ووجود أزمة إسكانية خانقة نتيجة زحف إسرائيلي متواصل للاستيلاء على العديد من المساكن والمباني، خاصة في القدس الشرقية، وتستدعي حمايتها من المصادرة توفير الملايين من الدنانير لشرائها. وتهديم قواعد البنية الهيكلية للاقتصاد العربي في الضفة والقطاع ، وخاصة في قطاعات انتاج الحمضيات والزيتون ، معرضة للاندثار بالإضافة إلى تخلف المستوى العلمي للطاقة العاملة. وكذلك تراجع دور القطاع الزراعي ووصول القطاع الصناعي إلى مرحلة اللانمو، هذا بالإضافة إلى غياب أي إدارة للتنمية وفراغ مالي ومصرفي كبيرين. وكان ذلك

ناتجاً من مجموعة من السياسات والاجراءات الاقتصادية والتي تمثلت بسياسة الاستيلاء على الموارد الطبيعية كالأراضي والمياه، وكذلك تحتل السياسة التجارية التي تمثلت بتشجيع ترويج البضائع الإسرائيلية والحد من الواردات من غير إسرائيل، هذا بالإضافة إلى تغيير هيكل الاقتصاد في المناطق العربية المحتلة سواء أكان ذلك في القطاع الصناعي والقطاع الزراعي.

وإذا أضفنا إلى ذلك السياسات المالية والنقدية التي من أبرزها زيادة الأعباء الضريبية والجمركية والغرامات وإغلاق البنوك الوطنية. هذه كلها تقودنا إلى الجانب الثاني من السياسة الإسرائيلية في المناطق المحتلة والذي يتمثل بالسعي إلى امتلاك الأراضي وإقامة المستوطنات فيها، وفي حقيقة الأمر إن الإجراءات السابقة من أهدافها تضييق سبل العيش على الفلسطينيين بحيث يجبرون على مغادرة ديارهم والهجرة بحثاً عن لقمة العيش، هذا وقد بلغ مجموع المستوطنات الإسرائيلية ما بين عامي 1967 – 1982 مئة وسبع وستين مستوطنة في الضفة الغربية وقطاع غزة، وقد اعتبر إسحق رابين رئيس الوزراء الإسرائيلي أن المستوطنات زادت من أمن إسرائيل ، ووفرت أساساً وطيداً لمطالبتها بالسلام المقترن بحدود يمكن حمايتها. وهذه المستوطنات تتحول إلى مستوطنات دائمة.

ويرى بول كويرنغ مدير وكالة منونيت للإغاثة أن أهداف الاستيطان تتمثل فيما يلي:

["تقام المستوطنات على ثلاثة خطوط تهدف - على ما يبدو - إلى تطويق المجتمعات الفلسطينية وعزلها، يمتد الخط الأول بمحاذاة نهر الأردن، ويفصل بين الضفة الغربية والأردن. ويقوم هذا الحزام من المستوطنات بعزل الفلسطينيين في الضفة الغربية عن الأردن. ويمتد الخط الثاني بمحاذاة خط هدنة عام 1948 بين الأردن وإسرائيل، الذي يطلق عليه اسم "الخط الأخضر"

ويفصل هذا الحزام ما بين الفلسطنيين في الضفة الغربية وإسرائيل. أما الخط الثالث الذي لم يستكمل بعد فينطوي على إقامة مستوطنات حول أكثر المدن الفلسطينية ازدحاماً بالسكان مثل نابلس والقدس الشرقية"].

إن عملية الاستيطان في الأراضي العربية المحتلة تمثل انتهاكاً للقانون الدولي ، ولحقوق الإنسان وخاصة المادة 49 من ميثاق جنيف ، التي تحظر على قوات الاحتلال نقل أجزاء من سكانها إلى المناطق المحتلة.

وقد رافق عملية الاستيطان في الأراضي المحتلة أنواع من العنف والإرهاب الرسمي وغير الرسمي ، و يهدف هذا الإرهاب إلى تحقيق أمرين:

1. إخضاع الفلسطينيين للسيطرة الصهيونية، ووضع الناس في ظروف يسلمون معها بواقع الاحتلال.
2. تضييق ظروف المعيشة على الفلسطينيين مما يؤدي إلى هجرتهم بحثاً عن الرزق، ثم منعهم من العودة إلى ديارهم ، في ضل القوانين الإسرائيلية الكفيلة بعد ذلك بحرمانهم من حق عودتهم إلى بلادهم.

وقد شهدت فلسطين منظمات ارهابية صهيونية قبل عام 1948 مثل منظمات الهاجاناه، والاتسل، وليحى، وشترن وكان أسلوبها هو العنف والإرهاب وارتكاب المجازر ضد الفلسطينيين العزّل، وبعد الاحتلال في عام 1967 برزت منظمات إرهابية جديدة مثل حركة غوش إيمونيم، ومنظمة أمانا، ومنظمة ماغنس، والحشمونيون، وحركة هتحيا، وحركة تسومت، ومنظمة الإرهاب ضد الإرهاب، وحركة كاخ.

وقد كتب أوري أفنيري في صحيفة "هعولام هازيه" بتاريخ 1980/6/11 مقالاً تحدّث فيه عن حركة سرية مسلحة من المستوطنين الإسرائيليين في

الضفة الغربية المحتلة، ورأى في مقالته تلك أن الحركة السرية المسلحة تقوم على أيديولوجية متعصبة وهي حلم أرض إسرائيل الكاملة، وتمتلك نظرة معادية للديمقراطية وطاقة بشرية ، وسلاحا ، وتنظيما ، وتأييدا جماهيريا، وتسندها جهات عسكرية. وقد أوضح الكاتب الإسرائيلي تواطؤ الحكومة الإسرائيلية في مساندة تلك الحركة السرية المسلحة . يقول الكاتب:

["وبكل بساطة، إن أعمال الحركة السرية في المناطق – ومن بينها ليلة الزجاج (تحطيم زجاج السيارات) في رام الله والاعتداءات على رؤساء البلديات – ما كان بالإمكان تنفيذها، لولا تغاضي عدد من رجال قوات الأمن والحكم العسكري.

ولا يْخفي عدد من رجال الحكم العسكري، إطلاقاً، تأييدهم لغوش أيمونيم، وهم يتمتعون بحماية رئيس الأركان ، الذي صرّح أكثر من مرّة، وعلناً، تصريحات تتماشى وأيديولوجية اليمين المتطرف للغاية. وفي مقابلة تلفزيونية هذا الأسبوع، لم يبرر رئيس الأركان أعمال الحركة السرية ، ولكنه تحدث عنها بتعاطف وتفهم كبيرين، معتبراً إياها "ردوداً" على أعمال العرب. وهذه إشارة واضحة لكل ضابط يعلم أن رئيس الأركان هذا هو الذي دمج رجال غوش أيمونيم بتشكيل الجيش الإسرائيلي، وبالتالي أتاح لهم إقامة وحدات منفردة ومسلحة"].

ولا مندوحة من الإشارة إلى أن الاحتلال الإسرائيلي جاء حاملاً معه إلى الأراضي المحتلة مجموعة من القوانين والأوامر العسكرية. فمنذ دخول الجيش الإسرائيلي المناطق المحتلة وزّع منشوراته على المواطنين الفلسطينيين ، معلناً أن كل صلاحيات الحكم والتشريع والتعيين والإدارة بخصوص المنطقة وسكانها تحول إلى الحاكم الإسرائيلي، ومن ثم أصدرت سلطات الاحتلال عدداً كبيراً

مـن التشـريعات ألغـت بموجبهـا كـثيراً مـن القـوانين القائمـة في الأرض المحتلـة، وأصدرت أمراً بإعادة قانون الانتداب للطوارئ لسنة 1945 ، الذي يمتاز بانتهاك حقوق الإنسان ، ويجيز للمندوب السامي البريطاني إبعاد أي مواطن فلسطيني خارج البلاد، ومنع دخول أي مواطن فلسطيني ثانية إلى فلسطين، كما أجازت للقائد العسكري في المنطقة مصادرة المنازل ، والعقارات ، وتدميرها ، وإحراق الأراضي الزراعية المملوكة للسكّان، والاعتقال بدون محاكمة. وبالإضافة إلى هذا أقر الكنيست الإسرائيلي في عام 1979 إصدار قانون صلاحيات ساعة الطوارئ (1) اعتقالات – 1979 ، وقانون القضاء العسكري (2) تعديل رقم (14) 1982، وقانون صلاحيات ساعة الطوارئ (4) 1980، وقانون نظام المقاضاة في المحكمة الجنائية (3) (تعديل رقم 15) 1981 ، وقانون حمل وإبراز بطاقة الهوية (5) – 1982 ، وقانون العقوبات (6) (تعديل رقم 5) 1978 ، وقانون لتعديل أمر منع الإرهاب (7) 1980 ، وقانون العقوبات (8) (تعديل رقم 17) 1983 ، وقانون الإنصات المخفي (9) 1979 وجميع هذه القوانين تستهدف الحد من الحريات الديمقراطية والعمل السياسي.

ولا شك في أن إجراءات إسرائيل هذه مناقضة للقانون الدولي، وقد عبرت عن ذلك الأمم المتحدة في وثيقة حول الممارسات الإسرائيلية عام 1982جاء فيها :

["وفي فبراير 1968 ، أصدرت وزارة الداخلية في إسرائيل قراراً لم تعد تعتبر بمقتضاه الضفة الغربية وغزة أراضي للعدو، وهكذا، أصبحت إسرائيل تعتبر نفسها السلطة القائمة بالإدارة ، وليس سلطة الاحتلال في تلك الأرض. إن اتفاقية لاهاي الرابعة لعام 1907 المتعلقة بقوانين وأعراف الحرب البرية ، واتفاقية جنيف لعام 1949 المتعلقة بحماية المدنيين وقت الحرب توفران القوانين السارية في المنازعات المسلحة ، وإسرائيل طرف في اتفاقية جنيف الرابعة وقد أصبح تصديقها لهذه الاتفاقية نافذاً في 6 يناير عام 1952 ، وتنص المادة 42 من

أنظمة لاهاي على أن اقليماً ما يعتبر محتلاً من أجل تطبيق قواعد الاحتلال الحربي عندما يوضع تحت سلطة الجيش المعادي، وتنص المادة 43 على ما يلي: حيث سلطة الحكم الشرعي قد انتقلت في الواقع إلى أيدي المحتل، فعلى هذا الأخير أن يتخذ كل ما يستطيع من تدابير ليستعيد، ويضمن إلى أقصى حد ممكن، النظم العامة والسلامة مع احترام القانون الساري في البلد، إلا إذا منع من ذلك منعاً مطلقاً. وتقول المادة 47 من اتفاقية جنيف الرابعة: لا يحرم الأفراد المحميون الموجودون في الأقاليم المحتلة - بأية حالة أو بأية طريقة كانت- من فوائد الاتفاقية الحالية عن طريق إدخال أي تغيير، نتيجة احتلال الإقليم، في مؤسسات أو حكومة الاقليم المذكور، أو عن طريق أي اتفاق معقود بين سلطات الأراضي المحتلة وسلطة الاحتلال، أو عن طريق الحاق كل الإقليم المحتل أو جزء منه من قبل الأخير"].

إن كل تلك الممارسات الإسرائيلية تستهدف الأرض والإنسان ومن أجل تحقيق هذا الهدف فإن الممارسات القمعية لم تزد الشعب الفلسطيني إلا تمسكاً بأرضه وارتباطاً بهويته الوطنية، فممارسة الضغط على الفلسطينيين لم يضعف من ارتباطهم بالوطن بل زادهم تمسكاً بوطنهم وبمقاومة الاحتلال، وهذا ما لاحظه موشيه ماعوز الأستاذ في الجامعة العبرية والمستشار الخاص للشؤون العربية في الجهاز الأمني. وذلك في مقابلة مع مجلة (سكيرا حود شيت — أيار 1980) ، إذ قال فيها رداً على سؤال: ماذا تستطيع إسرائيل أن تفعل للمحافظة على سيطرتها في المناطق وفي نفس الوقت المحافظة على الهدوء، والقانون ، والنظام ، على الرغم من معارضة السكان المحليين لسلطتها؟"

[أجاب بقوله: مما لا شك فيه أن إسرائيل قادرة من الناحية العسكرية الصرفة حفظ الهدوء في المناطق. وتقوم أجهزتنا الأمنية بأعمال ممتازة من أجل منع قيام

التنظيمات، والتآمر ، والأعمال التخريبية. وقد حققت إنجازات مهمة جداً. وبالإمكان بواسطة هذه الوسائل وغيرها، إدارية وعسكرية، منع أعمال الشغب.

ولكن ليست هذه المشكلة، بل إن المشكلة هي سياسية، ودون حل سياسي، سيصبح من الصعب جداً مواصلة السيطرة على المناطق على مر الأيام. فخلال 13 سنة من الحكم الإسرائيلي نما وعي سياسي عارم، واشتد الغليان، وارتفع مستوى المعارضة للحكم الإسرائيلي التي تستمد قوتها من المناخ الدولي ، ومن تأييد الدول العربية. وحقيقة انعدام اتفاق الآراء في إسرائيل نفسها حول مستقبل المناطق والقضية الفلسطينية، تؤثر هي أيضاً على الاتجاهات السائدة بين السكان.

في تقديري فإن كل هذا، رغم جميع التحفظات، ينطوي على تحد من قبل حركة وطنية فلسطينية، والمقصود هنا سكان يبلغ تعدادهم نحو 1.3 مليون نسمة. وعندما نمارس الضغط على هؤلاء السكان، فإننا سنتسبب بأيدينا في تكتل هذا الجمهور ، وإضعاف واضمحلال جميع الانقسامات ، والاتجاهات والانتماءات القائمة بين هؤلاء السكان – انتماءات إسلامية ، وعربية، ومحلية، وقبلية، وعائلية وغيرها – وبذلك ندعم الهوية الوطنية الفلسطينية والإقليمية، أي الهوية المشتركة لسكان يهودا والسامرة وغزة جميعاً].

وقد تمثلت مقاومة الشعب الفلسطيني للاحتلال الصهيوني بأشكال مختلفة منها المقاومة المسلحة، والمقاومة السياسية، والمقاومة الثقافية.

وسوف نكرس الجزء الباقي من دراستنا هذه لبيان أشكال المقاومة الثقافية الفلسطينية.

الثقافة الفلسطينية في مواجهة الاحتلال

يعرّف علماء الأنثروبولوجيا الثقافة بأنها جميع أنماط الفكر والخصائص السلوكية المكتسبة لأفراد المجتمع. وهكذا فإن ما يميز إنساناً عن آخر أو شعباً عن آخر هو الثقافة.

وحينما نتحدث عن الثقافة الفلسطينية فإن الثقافة بمعناها الواسع تشتمل على الفنون ، والآداب ، والتراث الشعبي ، وأنماط السلوك المكتسبة التي يتعلمها الإنسان. وإذا كانت ثقافة أي مجتمع تنتقل إلى أفراده عبر التنشئة الاجتماعية، فإنه لا مندوحة عن القول بأن طرق التنشئة الاجتماعية في عصرنا الحاضر تتمثل بشكل رئيسي في الأسرة، والمدرسة، ووسائل الإعلام.

ولأن الصراع العربي الصهيوني في فلسطين المحتلة يأخذ بُعداً ثقافياً فالثقافة الفلسطينية في مواجهة الاحتلال تتنامى مسؤولياتها إزاء السلوك الإسرائيلي المتغطرس، وحيث أن الثقافة الإسرائيلية ثقافة عنصرية تقوم على مبدأ الاستعلاء تطبيقاً لمقولة الشعب المختار، وانسجاماً مع ما طرحه رواد الصهيونية في مطلع هذا القرن عن فلسطين قولهم : **"أرض بلا شعب، يأخذها شعب بلا أرض"**، فإن هذه المقولة هذه لا تستهين بالوجود البشري الفلسطيني من حيث العدد أو الكم فحسب، بل تحمل في طياتها إنكاراً لشعب له ثقافته الخاصة وله انتماؤه الوطني والقومي.

إن وعي هذه المشكلة لدى المحتلين لا يشكل أهمية قصوى لديهم سواء كانوا يستشعرونها أم لا، سواء كانوا يتجاهلونها عن قصد أم عن غير قصد. إن الاعتراف بالثقافة الفلسطينية هو اعتراف بالشخصية الوطنية الفلسطينية ذات الانتماء القومي للعروبة، ولعل الصدام اليومي في الأرض المحتلة بين الفلسطينيين والصهاينة على أرض فلسطين يجسّد حقيقة الصدام بين

الثقافتين ، ويجعل هذا الصدام طرح مسألة الكيان العربي الفلسطيني مسألة مكابدة يومية للمحتلين. ولا غرو أن نجد "تسفى البيلغ" الباحث في القضية الفلسطينية في معهد شيلواح التابع لجامعة تل أبيب يقول:

[إننا نتحدث عن موضوع ملموس: حل المشكلات القائمة بيننا وبين الفلسطينيين. هل هناك من مغزى للأيديولوجية، أو للحقيقة القائلة إن العرب يشكلون أمّة واحدة وإن الفلسطينيين لا يملكون هوية قومية منفصلة؟

في رأيي ، ونظراً لأن مشكلاتنا هي مشكلات قائمة على المدى القصير، ولأن التغييرات التي ستحدث هي تغييرات على المدى الطويل، فإن معالجتنا للسؤال: من هم الفلسطينيون؟ وهل يشكلون جزءاً من الشعب العربي أم لا ؟ إنما تكتسب اليوم أهمية أكاديمية فقط. إنهم في الواقع الحالي يشكلون جماعة منفصلة، ويواجهون مشكلات يترتب علينا أن نعتبرها، مع شديد الأسف، مشكلات تخصنا أيضاً ، وتتطلب الحل].

إن طرح الباحث الإسرائيلي ذاك للقضية وتساؤله من هم الفلسطينيون؟ هو جوهر المشكلة. وهو الذي يجعل الصراع بين الفلسطينيين والمحتلين صراعاً يومياً, وهو عند الفلسطينيين صراع من أجل إثبات الوجود والحفاظ على الكيان الوطني وصنع المستقبل المكلل بالانتصار. وهكذا تصبح إشارة النصر من طفل فلسطيني عمره أربع سنوات هي جريمة يستحق عليها الطفل القتل، ونقلت الصحافة لنا خبراً عن عسكري صهيوني يدهس طفلاً فلسطينياً ، لأنه رفع شارة النصر، وتقول جريدة الخليج في نقلها للخبر:

("وقالت هذه الأنباء إن سائق الشاحنة العسكرية الصهيوني عمد إثر إقدام الطفل خالد رؤوف عبد المحسن وشقيقته نوال على رسم شارة النصر إلى توجيه

شاحنته باتجاههما وصدمهما بقوة مما أى إلى استشهاد الطفل خالد فوراً، وإصابة شقيقته الطفلة نوال بجروح خطيرة" (الخليج 1986/3/18).

ويمكننا القول إن الكيان الصهيوني يسير الآن في خطين متوازيين ، وهما: الإبادة البشرية والإبادة الثقافية، وهما يحققان هدفاً واحداً، الإبادة البشرية تعني التخلص من المواطنين الفلسطينيين سواء عن طريق القتل والإرهاب أو التهجير لإفراغ الأرض، والإبادة الثقافية التي تعني مسخ الشخصية الوطنية الفلسطينية.

ويمكننا تتبع الممارسات الإسرائيلية ضد الثقافة الفلسطينية في أشكال عدة من السياسات والإجراءات تتمثل فيما يلي:

1- السياسة الإسرائيلية لقمع الفكر الفلسطيني وأيديولوجيته.
2- السياسة الإعلامية الإسرائيلية في محاصرة الكيان الفلسطيني.
3- السياسة الإسرائيلية تجاه المؤسسات الإعلامية الفلسطينية.
4- السياسة الإسرائيلية تجاه المؤسسات التعليمية الفلسطينية.

أولاً: السياسة الإسرائيلية لقمع وحصار الفكر الفلسطيني وأيديولوجيته:

إنه لمن نافلة القول الإقرار بأن الأيديولوجية الصهيونية في أساسها نقيض للأيديولوجية الفلسطينية وفكرها. فالأولى تجسدت في إقامة دولة إسرائيل على أرض فلسطين ، وعلى حساب شعب فلسطين ، وكما ذكرنا سابقا ظل الصهاينة الأوائل، وبناة إسرائيل يرددون بأن "فلسطين أرض بلا شعب، تُعطى لشعب بلا أرض"، في مقابل هذه فإن الأيديولوجية الفلسطينية ، التي تتمثل بمواثيق منظمة التحرير الفلسطينية ، والتنظيمات الفلسطينية الأخرى ، تتمحور حول

هوية الشعب الفلسطيني، وحقوقه الثابتة غير القابلة للتصرف ، وحقه المشروع في استعادة أراضيه ، وإقامة دولته المستقلة.

وفي إطار هذا الصراع بين الأيديولوجيتين استمر الموقف الإسرائيلي ثابتاً ليس هناك شعب فلسطيني ، وليس هناك حقوق فلسطينية، ومنظمة التحرير منظمة إرهابية لا تمثل الشعب الفلسطيني.

وتتضح أشكال الإرهاب الإسرائيلي تجاه الفكر الفلسطيني وايديولوجيته بالأعمال الإرهابية ،التي وُجهت لاغتيال أو محاولة اغتيال كثير من المفكرين الفلسطينيين، نذكر على سبيل المثال الشهداء الفلسطينيين من الكتّاب الفلسطينيين غسان كنفاني، وكمال ناصر، ووائل زعيتر، ومحمود الهمشري، وماجد أبو شرار وحنا مقبل، ومحاولة اغتيال د. أنيس صايغ وبسام أبو شريف، وغيرهم كثيرون.

بالإضافة إلى ذلك فإن أساليب الاضطهاد التي تمارس من اعتقال ، وإقامة جبرية ، وتحقيق ، وإبعاد لكثير من الكتّاب والصحفيين والأكاديميين وقادة الرأي الفلسطيني والمثقفين تشكل جانباً مهماً من السياسة الإسرائيلية ، ونذكر على سبيل المثال إبعاد الكتّاب أمثال خليل السواحري، وعبد الجواد صالح ، ومحمود شقير ، والدكتور حنا ناصر وغيرهم. وقد فرضت الإقامات الجبرية على إبراهيم الدقاق رئيس جمعية الملتقى الفكري العربي، وحنا سنيوره المحرر المسؤول في جريدة الفجر المقدسية وفيصل الحسيني رئيس جمعية الدراسات العربية وأكرم هنية رئيس تحرير جريدة الشعب وبشير البرغوثي رئيس تحرير جريدة الطليعة وغازي أبو كشك ونبهان خريشة وهما صحفيان ، وغيرهم كثيرون.

وكان واضحاً من السلوك الصهيوني حقده على الفكر الفلسطيني، المتمثل في مركز الأبحاث التابع لمنظمة التحرير الفلسطينية في بيروت، وذلك حينما لجأت قوات الغزو الإسرائيلي لبيروت في منتصف سبتمبر 1982 بالاعتداء على المركز ونهب محتوياته وتدميره ، وتصف لنا مجلة شؤون فلسطينية التي تصدر عن المركز ما فعلته القوات الإسرائيلية المهاجمة بقولها:

["وفور اقتحامها للمركز، شرعت الوحدة الإسرائيلية الغازية بعملية تخريب منظم استهدفت نهب محتويات المركز، ومن ثم القضاء كلياً عليه. وفي الوقت نفسه قامت المخابرات الإسرائيلية، أثناء وجودها في بيروت، بملاحقة المسؤولين عن المركز فاقتحمت عدداً من البيوت التي تفترض وجودهم فيها، وواصلت عملية المطاردة لحين خروج القوات الإسرائيلية من بيروت.

وإذا كانت عملية المطاردة قد فشلت، فإن عملية تخريب المركز قد نجحت في تحقيق أهدافها الإجرامية إلى حد بعيد. فعلى مدى الأسبوع الذي بقيت فيه قوات الغزو الإسرائيلي في حي رأس بيروت، الذي يقع فيه مبنى المركز، تولت وحدة عسكرية إسرائيلية نهب موجوداته، فملأت حمولة شاحنات عسكرية عديدة، راحت تنقل معظم موجودات المركز في "قوافل" يومية تتجه مباشرة إلى إسرائيل، ودمرت بقية الموجودات داخل المبنى"].

ويدخل ضمن هذا أيضاً ما يلقاه أساتذة الجامعات والكتّاب والصحفيين وسنتحدث عنهم فيما بعد.

وعلى الرغم من ذلك فإن محاولة"إبادة الجنس وإبادة الذاكرة" حسب تعبير مجلة شؤون فلسطينية لم تفلح مع الفلسطينيين، وليس أدل على ذلك أن مجلة شؤون فلسطينية صدرت بعد تدمير المركز ونهبه مباشرة ، لتسجل في أول عدد بعد تلك الجريمة شهادة على فظاعة الإسرائيليين في التعامل مع الثقافة

الفلسطينية ومع الفكر الفلسطيني الذين عملوا على وأد مركز الأبحاث الفلسطيني بتدمير ثقافته، ليصبح الفلسطيني إنساناً عاجزاً يقبل بشروط المحتل مستسلماً له. ولعل ما يطرحه الحاخام مئير كاهانا الآن أوضح دليل على فلسفة الصهيونية في ممارساتها ضد الشعب الفلسطيني.

يقول كاهانا : ["إن الهدف واضح، كل من هو ليس يهودياً، لا حق له في البقاء في هذه الأرض وليس له حق في الملكية أو الجنسية فيها. وفي جميع الحالات ليس له الحق في العيش فيها كمواطن، بل كمقيم فقط، ليس له أي حقوق في الأرض، ولا أي حقوق سياسية. بناء على تنفيذ هذه الشروط يعترف الغريب أن هذه الأرض ليست أرضه، وعلى هذا الأساس يُسمح له بالعيش في "إسرائيل" بهدوء مع ممارسة حياته الخاصة بكامل حقوقه الدينية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية وغيرها. وإذا لم يقبل بهذه الشروط، فلا مكان له في الدولة.

إن "عرب إسرائيل" يشكلون تدنيس لله (المعصية) إذ إن عدم تسليم العرب بالسيادة اليهودية على "أرض إسرائيل" على الرغم من وجود العهد بين اليهود وبين رب "إسرائيل"، يعتبر رفضاً لسيادة الله رب "إسرائيل" وملكوته.

لذا فإن طردهم من البلاد هو عمل أكثر من كونه قضية سياسية. إنه موضوع ديني، واجب ديني، أمر بإزالة المعصية . سنواجه مأساة إذا لم نطرد العرب من البلاد، لذا هيا نطرد العرب من إسرائيل، ونكون قد جلبنا الخلاص لأنفسنا"].

لا شك في أن ما يقرره كاهانا، هو الفلسفة غير المعلنة لإسرائيل في تعاملها مع العرب وأن المتتبع لسياساتها مع عرب فلسطين المحتلة منذ عام 1948 ،ولسياساتها في الضفة الغربية، وقطاع غزة، والجولان، تؤكد هذا الهدف. إن مجموعة القوانين والاجراءات التي قامت بها إسرائيل في الأراضي المحتلة منذ عام 1967 تؤكد هذا الهدف الصهيوني ، وهو ضم كل الأراضي المحتلة إلى

الكيان الإسرائيلي ، وتفريغ الأراضي من السكان ما وسعها الجهد، وما يتبقى منهم يجب أن يقبلوا بوجود إسرائيل بفلسفتها العنصرية، وذلك ممكن فقط إذا تحقق شرط أساسي ، وهو تخريب الثقافة للشعب الفلسطيني. ولهذا فإننا سنتعقب أشكال الممارسات الإسرائيلية لتخريب الثقافة الفلسطينية.

وكذلك فإن الأسماء التي أبعدت أو استهدفت من قبل الإسرائيليين استمرت في العطاء حاملة رسالة مقدسة ، تحمل لواء المقاومة ، والتشبث بالأرض. إن أمثلة كثيرة يمكن أن تُعطى، فعلى سبيل المثال ؛ فالدكتور أنيس صايغ بعد محاولة اغتياله ظل في مركز الأبحاث ، وتنقّل في مواقع ثقافية عربية كان من أبرزها إصداره لمجلة شؤون عربية الصادرة عن الجامعة العربية ، التي تمتاز بالرصانة والعلمية، وكانت أعداد كثيرة منها تكرّس لخدمة القضية الفلسطينية مثل إصدار عدد خاص عن فلسطين ، وعدد خاص عن القدس بالإضافة إلى المقالات التي كانت تُنشر فيها شهرياً لتعالج قضايا الصراع العربي – الإسرائيلي.

كذلك هناك عبد الجواد صالح رئيس بلدية البيرة الذي مارس مسؤوليات كثيرة بعد إبعاده ، الذي تبوأ مكاناً مهماً في منظمة التحرير ، ثم قام بتأسيس مركز القدس للدراسات الإنمائية، وكان من إصداراته كتاب توثيقي مهم عنوانه "**الاحتلال الإسرائيلي وأثره على المؤسسات الثقافية والتربوية في فلسطين المحتلة**". ونجد مُبعداً آخر مثل خليل السواحري يباشر أنشطته في مجال العمل في وزارة شؤون الوطن المحتل في عمّان ويمارس دوراً نشيطاً في رابطة الكتّاب الأردنيين واتحاد الكتّاب الفلسطينيين، وفي مجال التأليف والنشر في خدمة قضايا وطنه بتأسيس دار الكرمل للنشر والتوزيع.

ثانياً: السياسة الإعلامية الإسرائيلية في محاصرة الكيان الفلسطيني

أجرى المعلق العسكري لصحيفة معاريف (80/9/10) مقابلة مع رئيس الأركان الإسرائيلي **الجنرال روفائيل إيتان** قال فيها:

["قبل كل شيء علينا أن نكون أقوياء لدرجة أن نعرف نحن أيضاً أنه يستحيل التغلب علينا، وحتى ينغرس في أذهانهم أنه يستحيل التغلب علينا. إن كل عمل نقوم به في دولتنا يجب أن يستهدف عدم تمكينهم من التغلب علينا في أي مجال كان في التعليم والاقتصاد وفي تماسك الشعب"].

إن الحكومة الإسرائيلية، التي تطمح إلى السيطرة والتغلب على الفلسطينيين في كافة المجالات، تدرك أهمية حصار الشعب الفلسطيني إعلامياً. *وقد اتخذت سياسة الحصار هذه شكلين:*

- الحصار الإعلامي داخل الوطن المحتل متمثلاً بفرض القيود على وسائل الإعلام الإسرائيلية في تغطية ما يجري ضد الفلسطينيين من إجراءات. ومن خلال فرض القيود على وسائل الإعلام الفلسطينية، وما يتبعها من ممارسات قمعية ضد هذه الوسائل.
- فرض حصار ورقابة على المراسلين الأجانب في فلسطين المحتلة، ومحاولة فرض حصار دولي بالتنسيق مع أجهزة إعلام دولية، لتشويه صورة الفلسطينيين، وتقديمهم للعالم مجموعة من الإرهابيين.

1 - الحصار الإعلامي داخل الوطن المحتل:

تعمـد إسـرائيل إلى إخفـاء الحقـائق وتزويرهـا، تلـك الـتي تتعلـق بالفلسطينيين ولهذا فإن ما هو مطلوب من الصحفيين والكتّاب الإسرائيليين كتابته عن الفلسطينيين صوراً مشوهة عنهم، وتصبح كتابة التقارير عن الأراضي المحتلة من قبل الإسرائيليين أنفسهم ذات شروط معينة تخضع لما تريده السلطات الإسرائيلية . وهو يتمثل بهدفين:

- **أولاً:** تشويه صورة الفلسطينيين وإخفاء الحقائق عنهم وحولهم.
- **ثانياً:** حجب الحقائق عن الرأي العام المحلي والدولي.

استخدمت السلطات الإسرائيلية عدة أساليب مثل إقناع الصحفيين الإسرائيليين بالتعامل مع أخبار المناطق المحتلة بصورة معينة تحددها هي، ومنع الصحفيين من إجراء مقابلات مع العرب بناء على أوامر عسكرية، وفرض رقابة على تحركاتهم ومقابلاتهم، وأخيراً فرض الرقابة على المادة الإعلامية.

ويوضح داني روبنشتاين (دافار 80/5/9) المحرر المختص بشؤون المناطق المحتلة في الضفة كيف تريد السلطات الإسرائيلية من صحفييها التعامل مع الشعب الفلسطيني والكتابة عنه، يقول:

["وفي نفس الوقت ينبغي فعلياً أن نكتب عنهم كما نكتب عن عدو ، لأنه من المستحيل الفصل بينهم وبين م. ت. ف.، والمرء ينبغي أن يتصرف إزاء العدو بصورة مختلفة عن تصرفه تجاه شعب جار لنا ، نريد أن نحيا إلى جانبه ، ونريد أن نطرده ، أو نتصارع معه. **فالعدو يجب أن يبقى مقولباً (صورة جامدة مشوهة تعوزها السمات الفردية)، وينبغي أن يكون رسماً كاريكاتورياً إذا أردنا أن نبقيه على مسافة مضمونة بعيداً عنا. وينبغي ألا يتحول العدو الفلسطيني إلى إنسان**

حي يعاني من مشاكل شخصية ، ولديه قضايا قومية ولاجئون ويمكن أن يُصاب بالزكام"].

ويتابع روبنشتاين تجربته ، ويقول بأن : ["جزءاً من الملامح المميزة للحكم الإسرائيلي في الضفة الغربية وقطاع غزة يتمثل في تشويه لغة ومصطلحات التقارير الإعلامية ،حيث أن القصد من تعابير مثل "تشويش في التعليم" أو "خرق النظام" هو تبهيت صورة صراع قومي مخيف يشتمل على العنف وسفك الدماء"].

وينقل إلينا روبنشتاين صورة عن زيادة الحساسية إزاء التقارير الإعلامية والغضب الذي تثيره. ووصلت الأمور إلى حد أنه في جلسة للحكومة قام وزراء واقترحوا فرض رقابة على وسائط الإعلام الإسرائيلية بخصوص كل مادة تنقلها بشأن ما يجري في المناطق المدارة (مادة مدنية، وليست عسكرية، حيث إن الأخيرة خاضعة فعلاً للرقابة). وكانت الإدارة الرسمية للإذاعة رائدة في اتخاذ قرار بهذا الخصوص: فجميع المقابلات مع الشخصيات من أنصار م. ت. ف. في المناطق ينبغي الحصول على موافقة خاصة بشأنها. وعبارة (أنصار م. ت. ف.) في الحقيقة لا لزوم لها على الإطلاق، حيث إنني لا أعرف أحداً تقريباً من عرب المناطق لا يؤيد م. ت. ف. وإذا كان كل العالم يعترف بـ م. ت. ف. ممثلاً سياسياً لسكان المناطق، فسيكون من الصعب على هيئة الإذاعة ودولة إسرائيل أن تجد عربياً يُنكر ذلك".

كما أن الحصار الإعلامي الداخلي يطال الصحافة العربية وهذا ما سنتحدث عنه بشكل مستقل، وهنا نشير إلى الحصار الموجه ضد مراسلي الصحافة الغربية في الكيان الإسرائيلي.

كتب فرد ريد Fred Reed الكاتب في جريدة الواشنطن بوست، حول ترويع الصحافة الأجنبية في إسرائيل ، التي اشتملت على الرقابة ، ورقابة المكالمات الصحفية، وفتح البريد المرسل إلى الناشرين، ويتحدث فرد ريد عن تجربته مع مدير مكتب الصحافة الحكومي بالقدس ، الذي أخبره بأن إسرائيل غير مسرورة من جريدة الواشنطن تايمز، فسأله ريد لماذا؟ فأجابه بأن الجريدة تنشر أخباراً وقصصاً غير صادقة ومحرفة عن إسرائيل، واتهمها بأنها معادية للسامية ، لأن إحدى قصصها قارنت بين إسرائيل والنازية. ويعلق الكاتب على ذلك بأن قول الحقيقة عن إسرائيل يصبح اتهاماً بالنازية، ولذا فإن الصحفيين يخشون بأن يوصفوا بأنهم معادون للنازية، وأن القيود والرقابة الصارمة على الصحافة الأجنبية كما يقول ريد سببها أن الإسرائيليين ذبحوا عدداً من الناس والأطفال غير ذوي العلاقة. وفي حصار بيروت قتلوا أكثر ، وهم لا يريدون أن يعرف أحد هذه الحقيقة .

2 - الحصار الإعلامي الدولي:

تُسهم إسرائيل من خلال المنظمة الصهيونية العالمية في صناعة رأي عام عالمي مضلل بشأن الصراع العربي – الإسرائيلي ، وسوف نتحدث عن التجربة الإسرائيلية مع الإعلام الأمريكي بوصفها نموذج لتعاملها مع وسائل الإعلام الغربية.

وتطالب إسرائيل وسائل الإعلام في العالم اعتبارها ذات وضع خاص وأن تُقاس بمقياس أخلاقي رفيع. وكتب الكاتب الأمريكي اليهودي ريتشارد كوهين في جريدة الواشنطن بوست قائلاً:

"في حقيقة الأمر، فإنه من الصدق القول بأن إسرائيل خُلقت على حساب العرب الفلسطينيين – هؤلاء الذين لا ذنب لهم في الهولوكوست – ولكن

إسرائيل حتى الآن حافظت على موقع متميز، وهي تطلب بأن تُعامل بأعلى معيار أخلاقي".

هذه هي الصورة التي تحاول إسرائيل فرضها على وسائل الإعلام الغربية، بحيث تطمس صورة الشعب الفلسطيني ، وتُظهره بصورة مشوهة على نقيض صورة إسرائيل المزيفة. واستطاعت تشكيل الرأي العام واتجاهاته ، من خلال وسائل الإعلام المختلفة إذاعة مسموعة ومرئية، وصحافة، وكتباً، بخاصة في الولايات المتحدة. والمعروف أن وسائل الإعلام في أمريكا تشكل رأي الناس حول الشرق الأوسط وهم يتقبلون ما تقترحه من تغطيات إعلامية حوله .

ويؤكد الكاتب الأمريكي اليهودي الفرد ليلينثال Alfred Lilienthal بأن التحيّز في وسائل الإعلام مع إسرائيل وضد العرب له عدة أسباب منها : التحيّز نتيجة الضغوط الدينية لأفراد الجماعة اليهودية القوية، وجماعة الضغط القوية، وكذلك استخدام الإعلام ، بالإضافة إلى أن الاتجاه الغربي يتعاطف مع أناس ذوي ثقافة أوروبية مثل الإسرائيليين، بينما في الوقت نفسه، ينظرون بدونية إلى الناس غير الغربيين، وأخيراً الشعور بالذنب المسيحي الحالي لجرائم النازية.

وهذا إذا ما أضفنا ما للصهاينة من صحف خاصة بهم يصدرونها في الولايات المتحدة إذ إنها تتكون من نحو 140 صحيفة بتوزيع يقارب من 3.75 مليون وعلى رأسها مجلة هاداساه Hadassah (360.000 نسخة) وصحيفة جويش بريس النيويوركية Jewish Press (210.000 نسخة) ومجلة ناشيونال جويش منثلي National Jewish Monthly (200.000 نسخة)، ندرك مع هذه الأرقام قوة التأثير الإعلامي الصهيوني في الولايات المتحدة .

وقد عزا جيم مكارتني Jim Mecartney مراسل صحف نايت رايدر The Knight-Ridder ، بأن التحيز في الصحافة حول قضايا الشرق الأوسط ينبع

بوصفه مشكلة في صحف كثيرة لها اهتمامات كبيرة بالمنطقة، لأن موظفي الصحف من اليهود ولأن لهم مصالحهم في إسرائيل ففي بعض الحالات فإننا نجد درجات من التحيز.

وكتب هارولد بيتي Harold Piety مقالاً حول التحيز الصهيوني في صفحات رأي المحرر في الصحافة الأمريكية ، وفي مقالته أوضح بأن التحيز الصهيوني في الصحافة الأمريكية يرجع - بشكل أقل من غيره - إلى الملكية اليهودية للصحف، لكن من أهم العوامل هو حجم القرّاء اليهود لمعظم الصحف الأمريكية الكبيرة مثل جريدة النيويورك تايمز.

إن استغلال إسرائيل "للعداء للسامية" وسيلة لوصم أي منتقد لسياسة إسرائيل وممارساتها القمعية عامل مهم في تحيّز وسائل الإعلام لصالح إسرائيل، يقول ليلينتال: "ينبع تحيّز وسائل الإعلام من أن المراسلين والصحفيين المسيحيين يخافون من أن يتهموا بالعداء للصهيونية، أو ينبع من خوف اليهود من فقدان شعبيتهم.

وقد انتقد ريتشارد كوهين هذا الأمر حينما قال بأن منتقدي إسرائيل سيصبحون خائنين ليس لإسرائيل أو للصهيونية بل للشعب، وأما منتقديها من غير اليهود فإنهم سيطردون ، أو سيدانون باعتبارهم معادين للسامية.

إن كل هذا تم توظيفه لحصار الشعب الفلسطيني ومحاولة طمس الحقائق حول حقه في وطنه ، ووصفه بالإرهاب، وأن ما عملته وما تقوم به الدعاية الإسرائيلية الصهيونية شبيه بالدعاية النازية، وهذه الرؤيا عبّر عنها كارل روان Carl Rwan في جريدة شيكاغو صن تايمز Chicago Sun times (1982/7/2) حينما قال:[كان لهتلر آلة دعاية عظيمة ، وكذلك كان لبيجن

وشارون. فإسرائيل لا تقاتل الشعب الفلسطيني، بل ارهابيي منظمة التحرير الفلسطينية فقط.

هكذا أخبرونا. وليس من المفروض أن نلاحظ بأن إسرائيل في هذه الحرب أرهبت في أسابيع قليلة أناساً أكثر مما فعلته منظمة التحرير طيلة سنوات وجودها].

إن هذه الكلمات تُظهر لنا بصدق ماذا فعلته آلة الدعاية الصهيونية من محاولة تجميل وجه إسرائيل وتشويه صورة الفلسطينيين في عيون العالم الذي يستمد صوره واتجاهاته مما تقدمه له وسال الإعلام.

ثالثاً : السياسة الإسرائيلية تجاه الأدوات الإعلامية الفلسطينية

تتسق السياسة الإسرائيلية تجاه الأدوات الإعلامية الفلسطينية مع سياستها الإعلامية ، فالهدف واحد وهو تغييب الشعب الفلسطيني في الساحة الدولية في الخارج، أما في داخل الوطن المحتل فإن الهدف تدميري للشعب وثقافته، ويستهدف عقول الناس ونفوسهم وأدبهم، هذا ما يصرح به أورى برنشتاين في المجلة الفصلية الأدبية الصادرة في النصف الأول من شهر آذار عام 1982 ، ونقلتها جريدة الفجر المقدسية بتاريخ 82/3/15 ويقول برنشتاين: "إن الحرية التي نمنحها اليوم للشعب الفلسطيني في المناطق المحتلة ليست سوى حرية الجهلة. إنما نسمح لهم فقط بالحركات المعروفة مسبقاً يقوم بها الرجال الذين بدون روح. إننا لا نريدهم أن يفكروا أو يختاروا، إننا لا نرفض فقط الاستقلال السياسي للفلسطينيين وإنما نطالب أيضاً بنفوسهم وأدبهم ومسرحياتهم وقصصهم".

من هذا المنطلق حرصت السلطات الإسرائيلية على ممارسة سياسة القمع لجميع المؤسسات الإعلامية وأدواتها الفنية ووضعت أمامها العراقيل باعتبارها

وسائل نقل الثقافة العربية الفلسطينية وحمايتها، وباعتبارها وسيلة لتدعيم الشخصية الفلسطينية المناضلة في مواجهة الشخصية الصهيونية التي تحاول طمسها بل وتنكر وجودها. ولا غرو أن نجد الممارسات الإسرائيلية ضد المؤسسات الإعلامية تكاد تكون واحدة.

ولذا سنستعرض ممارسات السلطات الإسرائيلية تجاه المؤسسات الإعلامية الفلسطينية التالية: الصحافة، والكتّاب، والمسرح.

وقبل أن ندخل في الحديث عن هذه المؤسسات، نشير إلى أن الإذاعة العربية(إذاعة القدس) قد أُغلقت بعد الاحتلال، ويستقبل المواطنون الفلسطينيون إذاعة إسرائيل باللغة العربية ، والبرنامج العربي للتلفزيون الإسرائيلي ، التي تسعى في برامجها العربية للترويج للفكر الصهيوني ، وزعزعة الروح المعنوية لدى الشعب الفلسطيني وتشويه ثقافته.

أ- الاحتلال الإسرائيلي والصحافة الفلسطينبة:

عرفت فلسطين الصحافة العربية عام 1876 حيث صدرت صحيفة القدس الشريف ، التي يحررها الشيخ علي الريماوي ، وعبد السلام كمال، ومع مطلع القرن العشرين ازدهرت الصحافة في فلسطين بصدور كثير من الصحف.

وقبل الاحتلال كان يصدر في الضفة الغربية أربع صحف يومية هي الجهاد ، والدفاع ، وفلسطين ، والمنار ، ومجلة الأفق الجديد المجلة الأدبية. وبعد الاحتلال توقفت الصحف العربية عن الصدور وأصدرت سلطات الاحتلال جريدة "اليوم". وبعد عام من الاحتلال صدرت صحيفة القدس بتاريخ 1968/11/8 لصاحبها محمود أبو الزلف، ثم صدرت جريدة الفجر بتاريخ 72/4/7 حيث أصدرها بولص العجلوني وأشرف على تحريرها يوسف نصري نصر الذي

اختطف في 74/2/10 ولم يظهر حتى الآن، وصدرت جريدة الشعب لصاحبها ومحررها المسؤول محمود يعيش في 72/7/21، وصدر العدد الأول من جريدة الطليعة الأسبوعية بتاريخ 78/2/27 وصاحبها ومحررها المسؤول الياس نصر الله ورئيس تحريرها بشير البرغوثي.

وصدرت جريدة الميثاق في 80/2/15 بالإضافة إلى العديد من الصحف والمجلات الأدبية التي صدرت وتعثّر صدورها وما زال يصدر أمثال جريدة الوحدة وجريدة الشروق، وجريدة الأسبوع الجديد، وجريدة الشرق الأوسط، وصوت الجماهير ، ومجلة البيادر الأدبية ، ومجلة الشراع ، ومجلة التراث والمجتمع ، ومجلة الكاتب ، ومجلة العودة.

إن الانتعاش الذي شهدته فلسطين المحتلة في السبعينات في إصدار كثير من الصحف والمجلات وإنشاء دور النشر العديدة، كان يمثل أسلوباً لمجابهة الاحتلال الإسرائيلي، وتأكيداً على الهوية الوطنية.

وقد يتساءل البعض لماذا شرّعت السلطات الإسرائيلية الأبواب أمام إصدار هذا العدد من الصحف؟

لا مندوحة من القول بإن السلطات الإسرائيلية سهّلت إصدار الصحف في الضفة الغربية لهدف تنفيسي ، ولتطبيع العلاقات مع الشعب الفلسطيني ، حيث تنشر الأخبار دون أن تعلق عليها. والمتتبع لتاريخ الصحافة يدرك أن تلك السلطات كانت تدرك أن بيدها السيطرة على الصحافة ، والتحكّم فيما يُنشر أو لا يُنشر وهذا ما سنناقشه.

تعيش الصحافة الفلسطينية في ظل ظروف صعبة تتمثل في الرقابة العسكرية على الصحافة الفلسطينية، ومنح الترخيص وسحبه، ومنع التوزيع والاعتداء على الصحفيين وتقييد حرياتهم.

1 - الرقابة العسكرية الإسرائيلية على الصحافة الفلسطينية:

تعاني الصحف الفلسطينية من الرقابة العسكرية، حيث تقوم السلطات الإسرائيلية بالرقابة المسبقة على كل ما يُنشر في الصحافة، وخاصة أنه ما زال العمل جاريا بأنظمة الطوارئ البريطانية الإستعمارية ، التي طبقتها على المستعمرات. وللرقيب الحق في شطب ما يشاء من المواد المعدّة للنشر، وللرقيب الحق في إغلاق الصحيفة.

والرقابة تشمل كل المواد بما في ذلك صفحة الولادات والوفيات، وصفحات التسلية وحالة الطقس، وورود أخبار بعد دوام الرقيب يعني عدم إمكانية نشرها في الصحافة العربية.

وأما حجم المحظور نشره في الصحافة العربية الفلسطينية، فإنه يشكل نسبة مرتفعة ، تزيد عن ¼ المادة المعروضة على الرقابة.

ويتحدث ميرون بنفنستي عن الرقابة في عامي 1982- 1983 ، حيث أظهرت دراسة عنها أنه تم حظر نشر 220 موضوعاً لمجلة الشراع تشكل 29٪ من مجموع ما نُشر ، و 139 موضوعاً حُظرت جزئياً، وهذا يعني أنها شوّهت أو فقدت معناها وتكاملها ، وتبلغ نسبتها 18.3٪ من مجموع ما نُشر. أما جريدة الفجر الإنجليزية فقد فقد مُنعت من نشر 367 موضوعاً في عام 1982 تشكل 34٪ من مجموع ما نشرته، أما المواضيع التي حُظرت جزئياً فقد بلغت 214 موضوعاً تشكل 20٪ من مجموع ما نُشر.

وأما طبيعة الموضوعات التي مُنعت من النشر فهي تشمل الموضوعات التي تتحدث عن مصادرة الأراضي ، والاعتقال وأوضاعه ، والممارسات القمعية ضد الفلسطينيين. ونشرت جريدة عال همشمار الإسرائيلية بتاريخ 80/5/5 أنه قد أُعيد فرض رقابة مشددة على الصحف العربية الصادرة في القدس، ولن يُسمح لها بنشر انتقادات حول تصرفات السلطة في أعقاب الحادثة في الخليل، بل ولن يُسمح لها بنشر بيانات لشخصيات في المناطق. وتابعت الصحيفة المذكورة أنه سيُسمح فقط بنشر المعلومات الواردة في وسائل الإعلام الإسرائيلية.

وفي تقرير نشرته مجلة العالم الثالث الألمانية في حزيران 1985 وهي صادرة عن المعهد الدولي لدراسات العالم الثالث التابع لجامعة هايدلبرج جاء فيه:

["ولا يُسمح للصحف العربية بترجمة مقالات نُشرت بالعبرية في الصحف الإسرائيلية ، أو بنشر معلومات حول الأوضاع المحلية، وخصوصاً في الأوقات التي تشهد اضطرابات وأعمال عنف (احتجاجاً على الممارسات الصهيونية). وهنالك رقابة صارمة على الصور، وأبيات الشعر ، وحتى الآيات القرآنية، وخصوصاً تلك التي تعظّم أولئك الذين سقطوا أثناء المظاهرات مثل الآية (ولا تحسبن الذين قُتلوا في سبيل الله أمواتاً بل أحياءٌ عند ربهم يُرزقون).]

وينقل إلينا الباحث تيسير عبد الحافظ مسودى تجربة الرقابة في داخل فلسطين المحتلة وتأثيرها على الصحافة بقوله:

"لقد وصف أحد أصحاب الصحف اليومية المعاناة التي يلاقيها من الرقيب العسكر بالقول: إنه صراع يومي مرير يفرضه علينا مقص الرقيب العسكري، هذا الصراع يتمثل في شعورنا الدائم بضرورة إيصال الحقيقة للقارئ والتي هي أمانة تفرضها علينا مهنة الصحافة، ومقص الرقيب الذي يأمرنا إما بحذف هذه الحقيقة أو نشرها مشوّهة ومبتورة.

إن مقص الرقيب لا يتورع عن إلغاء إعلان لأن صيغته لم تعجبه ، أو منع رسم كاريكاتوري لأن مضمونه لم يرق له. وكثيراً ما كانت تصدر الصحف دون نشر افتتاحيتها واستعيض عن ذلك بكلمة (نعتذر) إشارة إلى أن الرقيب العسكري قد منع نشر الافتتاحية.

إن الآثار الناجمة عن مقص الرقيب جسيمة، فهي أولاً تترك آثاراً سلبية في نفوس القائمين على الصحف ، وتولّد فيها الشعور بالإحباط والاكتئاب، كما تخلق لهم مشاكل مع الكتّاب الذين يجدون مقالاتهم، وقد نُشرت مبتورة مشوّهة فيظنون أن أصحاب الصحف وراء ذلك. كما تزعزع ثقة القرّاء بالصحف ، عندما يجدون أن الصحف لا تنشر الأخبار المتعلقة بواقعهم ، ولا تعكس معاناتهم، ولا ترتفع إلى مستوى الأحداث المحلية والعالمية".

2 - منح الترخيص وسحبه:

لسلطات الحكم العسكري حق منح الترخيص وسحبه للصحف العربية في الضفة الغربية وقطاع غزة ومن حق السلطات الإسرائيلية عدم منح التراخيص – بدون إبداء الأسباب- لمن يطلب إصدار صحف جديدة حتى لو استوفت الشروط، ومن أمثلة ذلك حجب إصدار ترخيص عن إصدار صحيفة علمية للدكتورة نجوى مخوّل دون إبداء الأسباب، وإذا مُنحت تراخيص في الضفة أو القطاع فإنها تُمنح لمن هم على صلة بقوات الإحتلال أو من هم ليسوا محسوبين على الحركة الوطنية. أما في القدس فقد سُمح بإصدار الصحف لسكّانها لأنها تخضع للقوانين الإسرائيلية وصلتها بوزارة الداخلية وليس مع الحاكم العسكري، ورغم ذلك فهي تواجه مشكلات الرقابة ، وتعطيل منح الترخيص، الذي يحتاج إلى معارك قضائية تصل إلى محكمة العدل العليا.

3. - منع التوزيع:

صدر مع الاحتلال الإسرائيلي كثير من الأوامر العسكرية ومن ضمنها الأمر العسكري رقم (50) وتعديلاته الذي يحظر جلب الصحف ونشرها في المناطق المحتلة، وكذلك الأمر العسكري رقم (101) ، وتعديلاته ، وملحقاته، وهذه الأوامر العسكرية قيّدت عمليات النشر والتوزيع في الأراضي المحتلة، أما الصحف المقدسية فإنها كما يقول تيسير مسودى:

"إن الصحف والمجلات ، التي لديها رخصة بالصدور ، بحاجة أيضاً إلى رخصتين للتوزيع، الأولى: تؤخذ من الحاكم العسكري للضفة الغربية، والثانية: تؤخذ من الحاكم العسكري لقطاع غزة. ولدى (هذين الاثنين) صلاحيات لإجراء مراقبة ثانية على الصحف بعد صدورها وقد يجيز أحدهما التوزيع ولا يجيز الآخر، وقد لا يُجيز (الاثنان) ذلك. وفي هذه الحالة تصادر الصحف التي حُرمت من التوزيع وتُباع بمعرفة الإدارة المدنية ويخصص ثمنها لصالح صندوق الترفيه عن الجندي في جيش الدفاع الإسرائيلي، وفق ما اعترف بذلك الجنرال كرمون مستشار الشؤون العربية في الإدارة المدنية لمجلة إسرائيلية ناطقة باللغة العبرية. والذريعة التي يستخدمها هؤلاء لتبرير ممارساتهم التعسفية: هي اشتمال هذه الصحف والمجلات على مقالات تحريضية أو مخلّة بالأمن، أو لأن توزيع هذه الصحف والمجلات قد يؤدي إلى إحداث توتر في المناطق المحتلة".

وهكذا فإن السماح بصدور صحيفة عربية في القدس لا يعني السماح بتوزيعها في باقي الأراضي العربية المحتلة إذ كثيراً ما يُمنع توزيعها في الضفة الغربية وغزة حتى وإن كان لها تصريح بذلك، وكثيراً ما لا تُمنح تصريحاً بالتوزيع في تلك المناطق المحتلة. والحال ينطبق على الصحافة العربية الصادرة

في الأراضي المحتلة منذ عام 1948، وجاء في تقرير مجلة العالم الثالث Die Dritte Weilt :

"ولا شك في أن بعض ممارسات سلطات الاحتلال منافية للعقل: فعلى سبيل المثال يستطيع عامل فلسطيني من الضفة الغربية يعمل في (إسرائيل)، أن يشتري صحيفة (الاتحاد) ،ولكنه يُصبح عرضة للاعتقال إذا ما عُثر معه على الصحيفة في رام الله أو بيت لحم لأنه نسي أن يرميها عند عبوره (الخط الأخضر)".

4 - الاعتداء على الصحفيين وتقييد حرياتهم وإبعادهم:

من الأمور المعتادة ، التي تمارس ضد الصحفيين في فلسطين المحتلة، اعتقالهم ، وفرض الإقامة الجبرية عليهم، ومنعهم من السفر للاشتراك في المؤتمرات الدولية، ومنعهم من تغطية الأحداث ، التي تجري على أرضهم ، والاعتقال لمجرد حيازتهم على كتب أو صحف تُعتبر محظورة، والاختطاف والقتل مثل ما حصل مع الصحفي حسن عبد الحليم، ويوسف نصري نصر، وكذلك التصنّت على مكالماتهم الهاتفية ،، ومراقبة رسائلهم ، وفرض الغرامات المالية عليهم، وكذلك الإبعاد مثلما حصل مع خليل السواحري، ومحمود قدري، ومحمود شقير، وعلي الخطيب، ومحمود يعيش، وحسن عبد الجواد. وكذلك الإرهاب المباشر من خلال إلقاء القنابل على المكاتب الصحفية، واقتحامها، وتفتيشها، والتهديدات الهاتفية لهم.

ب : الاحتلال الإسرائيلي وإعاقة النشر في الأرض المحتلة

كتب إبراهيم الدقاق رئيس الهيئة الإدارية لجمعية الملتقى الفكري العربي في القدس يقول:

["والثقافة بالنسبة للفلسطينيين تحت الاحتلال مسألة مصير، فهويتهم مهددة، والمحافظة على هذه الهوية أمر أساسي في التحرك والنضال الوطني. لذلك فإن المحافظة على الثقافة الوطنية ، وتنميتها أمر في غاية الأهمية.

وكنّا، في مجال بحثنا لقضايا الإنتاج، قد نبّهنا إلى ضرورة المحافظة على أسلوب حياتنا وتطويره ، وتطوير العلاقة العضوية بين الإنتاج والثقافة والتعليم. وباختصار بين الإنتاج والهوية الوطنية. وتخدم هذه المحافظة هدفاً سياسياً ، كما تخدم هدفاً ثقافياً وإنتاجياً"].

إن هذا الوعي لأهمية الثقافة الوطنية لدى أحد الخاضعين للاحتلال يُعد شاهداً على الاهتمام بالثقافة في الوطن المحتل. وقد تجسّد هذا الاهتمام عملياً بازدهار صناعة النشر في الأرض المحتلة على الرغم من القيود المفروضة عليها. إذ إن الكتاب هو الوسيلة الأولى لنقل التراث ، ولتعزيز الثقافة الوطنية ، وتنميتها.

لقد بدا واضحاً مدى أهمية نشر الكتاب في الأراضي المحتلة بعد عام 1967 وقبل هذا التاريخ لم يكن في الضفة الغربية وقطاع غزة أي دار نشر متخصصة بصناعة الكتاب، ولعل من أسباب ذلك أن دور النشر العربية وخصوصاً في مصر ولبنان كانت تؤدي هذه المهمة، ولذا فإن سوق الكتاب كانت مفتوحة ولا يشعر

معها المواطن الفلسطيني بأن ثقافته مهددة أو محاصرة ، كما حصل مع الاحتلال عام 1967 . وفي أوقات الحصار تعرف الشعوب كيف تخترق هذا الحصار. ولا غرو أن نجد انتعاش حركة التأليف والنشر في الأراضي المحتلة بعد عام 1967 وسيلة لفك الحصار الثقافي الذي فُرض عليهم حيث ظهر في الضفة وقطاع غزة ثلاث وعشرون دار نشر ، ويوجد في مناطق 1948 ست دور نشر ،وتم طباعة 955 كتاباً لمؤلفين فلسطينيين في مختلف المجالات، ومعظمها في مجال العمل الإبداعي الشعر والقصة والرواية. وقد تقلّص عدد دور النشر إلى أربع دور فقط في الضفة الغربية نتيجة المضايقات الإسرائيلية المستمرة.

وقد واجهت دور النشر والمطابع إجراءات لا تقل عما واجهته الصحافة، إذ إنها تخضع لقوانين الرقابة فيما يتعلق بمطبوعاتها ومشوراتها، وتخضع لنفس القوانين والأوامر العسكرية بشأن توزيع المطبوعات.

وهكذا نجد أن قائمة الكتب التي حظر تداولها في الضفة الغربية بناء على أنظمة الدفاع (حالة الطوارئ) 1945 وبناء على أمر بشأن حظر أعمال الدعاية المعادية (رقم 101) لسنة 5727- 1967 ، والإضافات إلى قائمة الممنوعات التي بلغت 54 قائمة إضافية لغاية آب 1982، تشتمل على قائمة من الكتب الممنوعة تبلغ الآلاف. والقائمة تشمل كتباً متنوعة سياسية ، واقتصادية، وأدبية ، وفنية، ودينية ، وهي لمؤلفين عرب وفلسطينيين.

وقد قامت الدور الوطنية الفلسطينية بنشر الكتب الأدبية والسياسية للكتّاب الفلسطينيين بالإضافة إلى إعادة طباعة مؤلفات الكتّاب العرب والأجانب بخاصة تلك التي تمتاز بتوجهها الوطني والقومي. إلا أن كثيراً من دور النشر تقلّص نشاطها أو توقفت نتيجة ما تعرضت له هي والمكتبات والكتّاب والأدباء من قمع

إسرائيلي منظّم ، تمثّل في منع كثير من الكتب ، ومصادرتها ، وحرقها ، واقتحام المطابع والمكتبات.

ويواجه الشعب الفلسطيني مشكلة حقيقية في انقطاعه عن متابعة النتاجات الثقافية التي تصدر في الوطن العربي، سواء أكانت تلك كتباً أو صحفاً أو مجلات، أو دوريات علمية. إذ لا يُتاح للقارئ العربي الفلسطيني في الأرض المحتلة فرصة لرفد ثقافته باتجاهات الثقافة العربية. وهدف الاحتلال الإسرائيلي واضح ومحدد، هو جعل الإنسان الفلسطيني على هامش الثقافة العربية ومحاصرته بحيث يقبل الأطروحات التي يطرحها المحتلون وهذا متساوق مع سياسة إسرائيل في كبت الحريات السياسية في الأراضي المحتلة، وليس من شك في أن كبت الحريات السياسية لا يمكن أن يتحقق نجاحه بدون كبت الحريات الثقافية: حرية الفكر، وحرية الإبداع، وحرية القراءة وحرية الكتابة.

ج: الاحتلال الإسرائيلي والمسرح الفلسطيني

كان المسرح الفلسطيني قبل عام 1948 نشطاً حيث كانت تقام المهرجانات المسرحية قد بلغ عدد الفرق المسرحية في القدس وحدها 15 فرقة ، إلا أن المسرح في الأراضي المحتلة عام 1948 شهد في الستينات إنشاء فرق مسرحية مثل المسرح الشعبي عام (1964) والمسرح الحديث (1965) في الناصرة، والمسرح الناهض (1967) ، والمسرح الحر (1971) في حيفا ، ومسرح الغربال (1977) في شفا عمرو. وقامت هذه الفرق بمبادرات فردية مما جعلها تعاني من مشاكل التمويل ، وعمليات الإغراء المادي من مؤسسات إعلامية أخرى كالإذاعة ،والتلفزيون ، ومن محاربة السلطات الإسرائيلية لهذه المؤسسات المسرحية الملتزمة بقضايا شعبها، وهي لذلك تحرم من حقها في المساعدات المادية، ويتعقب رجال الأمن الفنانين الفلسطينيين ، ويضيّقون عليهم.

وتقوم لجنة الرقابة على الأفلام والمسرحيات الإسرائيلية، بمنع عرض أي مسرحية تعنى بالقضايا الوطنية أو الاجتماعية للعرب الفلسطينيين ، لأنها تُعتبر خطراً على الأمن ، وتحريضية . فكثير من المسرحيات تم منع عرضها. ومن أمثلة ذلك : منع الشرطة لمسرحيتين هما مسرحية "ثمن الحرية" ومسرحية "الناطور" من المشاركة في مهرجان المسرح العربي الأول في فلسطين المحتلة وهددت المشاركين بالاعتقال.

أما الضفة الغربية من الأرض المحتلة فلم تعرف قبل عام 1967 المسرحية كياناً مؤسساتياً منتظماً ، بل لم يزد عن كونه مسرح مناسبات تقوم به المدارس، والنوادي ، ومراكز الشباب الاجتماعية التابعة لوكالة الغوث، ضمن أنشطتها الموسمية، بالإضافة إلى المهرجانات السياحية الموسمية في رام الله والبيرة وأريحا. ولم تكن موضوعاتها ذات صلة بمشكلات الشعب فمعظمها تعالج موضوعات تاريخية.

وبعد حرب 1967 فإن الوطن المحتل واجه هذه الظروف الاستثنائية بالبحث عن وسائل للتعبير عن همومه ، ولإثبات الشخصية الوطنية . ولهذا نشأت الفرق المسرحية للتعبير عن حاجات مستجدة في ظروف غير طبيعية، وكان المسرح وسيلة لأنه يحمل في طياته مهمات تثقيفية وتحريضية.

ويبدأ التاريخ الحقيقي للمسرح في الأراضي المحتلة بتأسيس فرقة "بلالين" التي انطلقت رافضة للواقع الجديد ، الذي خلقه الاحتلال وتألفت عام 1971 في القدس ، وأما أعضاء الفرقة فهم من مدينتي القدس ورام الله، ومن أشهر أعمالها "العتمة، والكنز، ونشرة أحوال الجو، وثوب الإمبراطور، (وتع تخرفك يا صاحبي) ، وعنتورة ولطوف ويونس الأعرج " بالإضافة إلى تقديمها للأغاني الشعبية والرقص الشعبي الفلسطيني (الدبكة).

وكانت المسرحية ظاهرة جديدة فيما تقدمه شكلاً ومضموناً واعتمدت كثيراً على إبراز العلاقة بين العمل المسرحي والجمهور، ليؤكد بذلك دور المسرح الاجتماعي والسياسي في مواجهة الاحتلال، وبعد ذلك ظهرت في رام الله فرقة دبابيس 1973 التي أثبتت وجودها من خلال مسرحية الحق على الحق تأليف إبراهيم جبيل، ومن أعمالها الطرشان والخوازيق وعمارة من ورق.

وكذلك فرقة المسرح الفلسطيني (1973) في القدس، ثم فرقة "بلا – لين" التي انشقت عن فرقة بلالين سنة (1974) وكذلك فرقة الفرافير وفرقة صندوق العجب. ومن أبرز الظواهر المسرحية فريق الحكواتي ، الذي قدم عروضه داخل فلسطين المحتلة ، وفي أوروبا ، ولاقى نجاحاً واضحاً .

وقد تم تأسيس "تجمّع العمل والتطوير الفني" كرابطة لتنسيق أعمال الفرق المسرحية وتنسيق التعاون بن الفرق واحتياجاتها، وقامت بإعداد المهرجان الفني في القدس سنة 1975.

وقد اتسمت التجربة المسرحية ، كما يرى محمد أنيس ، في الضفة الغربية بمجموعة من السمات ، وهي تكريس مفهوم العمل الجماعي والتطوعي، وعدم الالتزام بتقاليد مسرحي معين ، ومشاركة المرأة مشاركة كاملة في التخطيط والتنفيذ، وبروز مفهوم المسرح السياسي . وهذه السمات جميعها ترتبط بالظروف التي يعيشها المسرحيون في ظل الاحتلال، فهم بحاجة إلى مشاركة المرأة، كما أن المسرح السياسي يشكّل أساساً في تدعيم وعي الجمهور، لذلك كان عدم الالتزام بالتقاليد المسرحية ضرورة فنية وسياسية ، لإتاحة الفرصة لمشاركة الجمهور في الأعمال المقدمة.

وقد عانى المسرح في فلسطين المحتلة من ظروف الاحتلال، وبينما فجّرت ظروف الاحتلال إمكانات الشباب المسرحية لاستغلال المسرح كوسيلة تعبير

سياسية وثقافية عن هموم الشعب فإن سلطات الاحتلال لم يرق لها هذا الأمر، ولذا فإن المسرح عانى ويعاني من الاحتلال ، الذي مارس مع المسرح ما مارسه مع الوسائل الإعلامية الأخرى ، مثل الصحافة، والكتاب. إن الرقابة على النصوص المسرحية هي أحد السيوف المسلّطة على المسرح الفلسطيني التي تجيز النصوص أو تمنعها،وأمثلة ذلك : أنه بين عامي 77 – 84 قامت الرقابة بمنع (10) مسرحيات من أصل (27) مسرحية عرضت عليها ، وبعد ذلك اشترطت أن تشاهد المسرحية مسجلة حيّة على الفيديو أو مشاهدة عرض لها على خشبة المسرح قبل أن تقرر السماح بعرضها أو رفضها.

هذا بالإضافة إلى ذلك فإن الاعتقالات وفرض الإقامة الجبرية على المسرحيين من الأمور المألوفة مثل اعتقال مصطفى الكرد (مسرح صندوق العجب) وزكي أحمد سعد (مسرح الفرافير).

رابعاً: السياسة الإسرائيلية تجاه التعليم في فلسطين المحتلة

منذ قيام دولة إسرائيل عام 1948، وهي تسير على نسق مستمر في سياستها تجاه تعليم الفلسطينيين في الأراضي العربية المحتلة عام 1948، وبعد ذلك في الأراضي المحتلة عام 1967، وقد تبلورت سياساتها في السعي الدائب إلى تشويه التعليم، ووضع العراقيل أمام تطوره بهدف تجهيل الشعب الفلسطيني.

ويعبّر عن هذا الهدف تصريح أوري ليراني مدير مكتب مستشار رئيس الحكومة الإسرائيلية للشؤون العربية عام 1961، إذ يقول: [**"لو لم يكن ثمة طلبة عرب لكان الوضع خيراً وأبقى، لو بقي العرب حمّالي حطب وسقائي ماء لربما كان أسهل لنا أن نتحكّم فيهم"**].

إن الجيل الفلسطيني الجديد المتعلم هو جيل واع وملتزم بقضيته وهو أكثر إدراكاً لحقوقه الوطنية وواجباته إزائها. وهذا ما جعل إسرائيل تنتهج سياسات قمعية تجاه المؤسسات التعليمية سواء أكانت المدارس أم الجامعات أم المراكز الثقافية أم مراكز البحوث.

فالمؤسسات التعليمية تعاني من التدهور في كافة المجالات نظراً لممارسات الاحتلال وسياسته نحوها. وتعاني المدارس من مشكلة نقص الغرف الدراسية، ومن النقص في الكتب الدراسية وفي المناهج التعليمية. وقد أصبحت المحافظة على المستويات التي كانت سائدة قبل الاحتلال أملاً للمعنيين بتقدّم التعليم في الأرض المحتلة.

• تعليم عرب الأرض المحتلة منذ عام 1948:

اعترفت صحيفة دافار الصهيونية بواقع التعليم في الأرض المحتلة عام 1948 فكتبت تقول في (1971/9/5):

["حتى الخمسينات لم يتوفر في المدارس العربية المختلفة كتاب تعليم واحد يليق باسمه.. ولم تهتم وزارة المعارف بإعداد كتب مدرسية في مستوى كتب المدارس اليهودية.. ولا يلبي برنامج تعليم اللغة العربية متطلبات التلاميذ العرب المتعطشين لدراسة ثقافتهم وحضارتهم. إن نصف المعلمين في الوسط العربي غير مؤهلين.. وإن قبول المدرسين لا يحدد بناء على مقدرتهم العلمية، فعشرات المعلمين وبينهم مدرسون مؤهلون ، ذوو خبرة في حقل التعليم، رُفضوا أو فُصلوا بسبب آرائهم السياسية ، بينما قُبل عشرات المعلمين في سلك التعليم على الرغم من النقص في إمكاناتهم العملية والمهنية"].

إن كل ذلك أدى إلى مستوى تعليم منخنفض في المدارس الابتدائية العربية ، مما يؤثر على مستواهم في المدارس الثانوية، لذا كانت نسبة رسوب الطلاب العرب ملحوظة في امتحان البغروت (الثانوية العامة) ، مما يؤدي إلى عدم تمكنهم من متابعة دراستهم في المعاهد والجامعات، وما زالت أغلب المناهج التي وضعت عام (1952) إلى الآن تحت التجريب وتتجاهل المناهج في دراسة الأدب العربي الاتجاه القومي والوطني ، والتهرّب الدائم من تدريس موضوعات التاريخ العربي الحديث.

ويتمثل انحدار التعليم العربي في الأرض المحتلة 1948 في أن 11٪ من تلاميذ الابتدائية والإعدادية أمّيّون ، وأن 55٪ من تلاميذ الناصرة يعانون من تخلف في التعليم، وأن الفرق بين أداء الطالب العربي وأداء الطالب اليهودي يصل

إلى عدة سنوات لصالح الطالب اليهودي، وذلك راجع لسياسة التجهيل ، التي تتبعها الحكومة الإسرائيلية تجاه الفلسطينيين.

إن واقع التعليم عند عرب المناطق المحتلة 1948 يكشف عنصرية الكيان الصهيوني، فالقانون الإسرائيلي يعتبرهم مواطنين، ومن ثم ينطبق عليهم ما ينطبق على كل الإسرائيليين ، ولكن الأمر مختلف، إذ إن الإحصاءات التربوية الصادرة في نهاية عام 1984 تؤكد عكس ذلك.

- رغم أن التعليم إلزامي ومجاني فإن هذه الإلزامية طُبّقت على 75.9٪ من الأطفال العرب ، بينما وصلت 97.7٪ من الأطفال اليهود، ومعدل الزام البنات وصل إلى 55.7٪ مقابل 96٪ من البنات اليهوديات. ويبلغ نسبة الأطفال الذين يواصلون المرحلة الإلزامية 60.5٪ فقط من مجموع الذين التحقوا بها ، أي من ناحية واقعية فإن حوالي 55٪ فقط من الأطفال يواصلون المرحلة الإلزامية.
- إن نسبة الطلاب الذين يلتحقون بالثانوية لا تزيد عن 15٪ من مجموع التلاميذ في العام الذي سبقه، إذ يقدّر عدد الذين لا يكمّلون الدراسة الثانوية 55٪ من مجموع الطلاب المسجلين أما الطالبات العربيات فلا تزيد نسبتهن عن 16٪ .
- أما التعليم العالي فإن نسبة الطلاب العرب الذين انتقلوا إلى المرحلة الجامعية بلغت 1.5٪ من مجموع السكان ، وعلى سبيل المثال فإن أكبر الجامعات الإسرائيلية وهي الجامعة العبرية لا تضم من الطلبة العرب أكثر من 2.2٪ من مجموع الطلاب، وإذا أخذنا بعين الاعتبار أن نسبة عرب الأرض المحتلة تصل إلى 16٪ يمكننا أن ندرك الفجوة الكبيرة في التعليم العالي للطلبة الفلسطينيين. وإذا علمنا أن التعليم الثانوي والجامعي ليسا

بالمجان، وأن منح الطلاب المتفوقين والمحتاجين، تذهب معظمها إلى الطلاب اليهود دون غيرهم فإننا سندرك ما يكابده الطالب العربي المعوز لإكمال دراسته.

- بالإضافة إلى هذا فإن المناهج صهيونية تجعل الطالب يعيش تناقضاً بين صدى ازدواجية الثقافة، فالمناهج الصهيونية تناقض تراث الأقلية العربية ، وتعمد إلى تشويه ثقافتها وتراثها.

إن جوهر السياسة الإسرائيلية التعليمية يتمثل فيما يلي:

1- فرض القيود على القطاع التعليمي العربي.
2- عدم تطوير مرافق التعليم في الأرض المحتلة ، فالمدارس بنايات قديمة متصدعة غير صحية.
3- ضعف مستوى المعلمين ، وعدم تخصيص الموارد المالية لتدريبهم.
4- فرض رسوم على التعليم الثانوي والجامعي ، وعدم إعفاء الطلبة العرب منها.
5- الإجراءات التعسفية ضد الطلبة والمعلمين.
6- تشويه المناهج العربية ، وإبقائها منذ مطلع الخمسينيات دون تطوير.
7- فرض اللغة العبرية والثقافة العبرية على الطلبة العرب.

كل هذه الممارسات تهدف إلى احتواء الأقلية العربية ، وإبقاء العرب في أدنى السلّم الاجتماعي ، مما يدفعهم إلى الهجرة خارج إسرائيل.

ولعل من الأمثلة الصارخة على عدم رغبة إسرائيل في تطوير التعليم العربي هو رفضها لإقامة جامعة عربية في مدينة الناصرة، وجاء في رد وزير التربية والتعليم الإسرائيلي زفولون همر على أسئلة الصحفيين حول الجامعة

قولـه: إن المؤسسـات الجامعيـة في الـبلاد تفـي بحاجـات الدولـة التعليميـة للعقـد القادم، وأنه حسب تقديره لا حاجة لإقامة جامعة جديدة (دافار 80/9/15).

- **التعليم في الضفة الغربية وقطاع غزة:**

توجّـه الشـعب الفلسـطيني بعـد هزيمـة 1948 إلى التعلـيم وسـيلة لتحقيـق الذات ، والمحافظة عليها. ولا عجب أن نجد الفلسطينيين بـرغم ظروف التشريد والتشتت في المهاجر يحققون وضعاً تعليمياً متميزاً – إن لم يكن متفوقاً – يمكن قياسه بأكثر الدول تقدماً في العالم.

"فقياساً إلى الولايات المتحدة نجد أن عدد الجامعيين الفلسطينيين قد بلـغ 30 في الألف أي ما يعادل ما بلغته الولايات المتحدة، ويزيد على ما بلغه الاتحاد السوفييني 18 في الألف وعلى فرنسا 9 في الألف".

وهـذا الإنجـاز يـدحض ادّعـاءات إسـرائيل المسـتمرة فيمـا قدمتـه لعـرب "إسـرائيل" مـن دعـم مـن أجـل رفـع مسـتوى تعلـيمهم، فهـم بالمقارنـة لإخـوانهم الفلسطينيين ، الذين لم يخضعوا للاحتلال الإسرائيلي يقفون من حيث التعليم العالي في صفوف متأخرة جداً عنهم.

إن المتتبـع للعمليـة التعليميـة في الأرض المحتلـة بعـد عـام 1967، سـيلحظ ظاهرتين:

أ- العسف الإسرائيلي والممارسات القمعية ضد المؤسسات التعليمية وأفرادها ومناهجها.

ب- التحدي التعليمي المقاوم من جانب الفلسطينيين للاحتلال الإسرائيلي وممارساته ضد التعليم.

أ- العسف الإسرائيلي والممارسات القمعية ضد المؤسسات التعليمية:

يتخذ العسف الإسرائيلي وممارساته القمعية في الأرض المحتلة ضد المؤسسات التعليمية أشكالاً متعددة مثل المناهج التي امتدّت إليها أيدي التزييف، والكتب التي تخضع للرقابة ومنع تداول آلاف الكتب والدوريات، والاعتقالات وفرض الإقامات الجبرية والفصل من العمل للأساتذة والمعلمين والطلبة، وتقييد الحريات الأكاديمية ووضع المعوقات أمام تطوير المؤسسات التعليمية وسد احتياجاتها من الغرف الدراسية والوسائل التعليمية والمكتبات، وفرض رسوم جمركية مرتفعة على احتياجات الجامعات وكذلك حاولت السيطرة التامة على العملية التعليمية من خلال الأوامر العسكرية مثل الأمر العسكري رقم (854) ومرفقاته ، الذي صدر في تموز 1980 ، وهدفه إحكام السيطرة على المؤسسات التعليمية من قبل ضابط التربية الإسرائيلي الذي يشرف على عملية التوظيف وتوسيع الأبنية والتدخل في الأنظمة الجامعية.

وفي المقال الذي نشرته مجلة "العالم الثالث" Die Dritte Weilt الألمانية حول القمع الثقافي في الأرض المحتلة تنقل لنا بعض ما جاء في التقرير الذي أعدته اللجنة الدولية المكلفة من اليونسكو ، لتقييم مدى استخدام سكان المناطق المحتلة لحقهم في الحصول على التعليم والثقافة . وقد ذكرت اللجنة الدولية أنه بالنسبة للبرامج التعليمية ، والمناهج المقررة فإن مجلس الرقابة – الذي لم تسمح لها سلطات الاحتلال بمقابلة أي من أعضائه – يقوم بتغيير فقرات طويلة، أو حتى بحذفها بكاملها. وفيما يتعلق بالأدب يقوم مجلس الرقابة بشطب كافة الأناشيد الوطنية، وفي التاريخ والجغرافيا تختصر الخرائط وتعاد صياغة بعض

الأحداث التاريخية بشكل ينسجم مع توجيهات سلطات الاحتلال. وتستبدل كلمة " إسرائيل " بشكل منتظم بكلمة " فلسطين ".

ويؤدي القرار رقم (854) إلى التدخل المباشر في العمل الأكاديمي، ومن ضمن ذلك أن على الجامعات والمؤسسات التعليمية أن تحصل على تصريح سنوي لممارسة نشاطها، وهذا يجعل للحاكم العسكري حق التدخل في التعيين وفي اختيار الكتب.

وقد قامت سلطات الحكم العسكري بالعديد من الاجراءات القمعية ضد المؤسسات التعليمية ، وتمثل ذلك بطرد العديد من أعضاء هيئة التدريس إذ بلغ عدد الأساتذة المطرودين من جامعات الضفة الغربية 150 استاذاً أي ثلث العاملين بها، وإبعاد بعضهم، كما حصل مع مدير جامعة بير زيت "الدكتور حنّا ناصر" ومدير جامعة النجاح "الدكتور منذر صلاح" ، وكذلك اعتقال الطلاب، وحرمانهم من دخول الامتحانات ، والحد من الحريات الأكاديمية. إن هذا بالنسبة للعدو الصهيوني له ما يبرره كما يروي د. محمد حلاج ، الذي عمل نائباً لمدير جامعة بير زيت لشؤون التعليم العالي، إذ يقول:

["جامعة بير زيت وغيرها من مؤسسات التعليم في الأرض المحتلة مثل جامعة النجاح الوطنية في نابلس ومعهد البوليتيكنيك في الخليل ... الخ، أصبحت من أكبر المؤسسات المستهدفة من قبل سلطات الاحتلال الإسرائيلي، وقد أُغلق أكثرها في وقت أو آخر. جامعة بير زيت تحمّلت أكثر من غيرها من الإجراءات القمعية لسلطات الاحتلال، ذلك أن لدى هذه السلطات فكرة ، سمعتها أنا شخصياً من الحاكم العسكري الإسرائيلي، هي أن هذه المؤسسات هي "رأس الحية" كما وصفها الحاكم العسكري، التي تنظّم العمل السياسي ، وأعمال المقاومة ،التي تجري في الأرض المحتلة، مع أن الحقيقة هي أن المقاومة في

الأرض المحتلة أوسع انتشاراً من أن تكون محصورة في مؤسسة أو في أفراد، ذلك أنها مسألة جماهيرية وليست محدودة في مؤسسة معينة"].

ويرى الدكتور حلاج بأن إجراءات القمع تستهدف من ذلك عدم توفير فرص ملائمة للتعليم العالي للفلسطينيين مما يتيح للاقتصاد الإسرائيلي مورداً للأيدي العاملة الرخيصة غير الماهرة، وكذلك لأن مؤسسات التعليم العالي توفر أطراً لأعداد كبيرة من الشباب المثقف الواعي مما يتولد عنه نشاطات وأفكارٌ وتنظيمات سياسية تواجه الاحتلال.

إن مثالاً حياً لما تواجهه المؤسسات العلمية في الأرض المحتلة يمكن أن يتجسد في جامعة بير زيت .

فبالإضافة إلى إبعاد مديرها، أُغلقت الجامعة في 81/11/4 حتى إشعار آخر بأمر من الحاكم العسكري، وفي 81/11/11 تسلّم نائب رئيس الجامعة أمراً من الحاكم العسكري بإغلاقها لمدة شهرين وفي 82/2/15 تم إغلاقها شهرين مرة ثانية، وفي 82/7/8 أُغلقت مرة ثالثة مدة ثلاثة أشهر. ويمكن للمهتم بمتابعة مثل هذه الانتهاكات أن يجد شواهد لا تُحصى من إبعاد الأساتذة وأوامر بتوقيفهم واعتقال الطلبة وغيرها .

ب - التعليم الفلسطيني المقاوم للاحتلال:

قبل عام 1967 كانت الضفة الغربية وقطاع غزة لا تعانيان من مشكلة التعليم كما حصل بعد الاحتلال. فقبل الاحتلال كانت الجامعات العربية وبخاصة الجامعات المصرية والسورية مفتوحة على مصراعيها — وبدون رسوم — للطلبة الفلسطينيين، وكانت المدارس بمناهجها ، وإداراتها ، وقوانينها ، مرتبطة بواقع ثقافي وتعليمي عربي. وقد توجّه الفلسطينيون باندفاع بعد عام 1948 نحو

التعليم ، لأنه يحقق لهم سلاحاً يواجهون به الحياة حيثما يكونون، واتسعت الجامعات المصرية في الستينات لعشرات الآلاف من الطلبة الفلسطينيين من الضفة الغربية وغزة ومخيمات لبنان وسوريا، وهكذا وبعد أن كان الفلسطينيون يجدون حرية في اختيار جامعاتهم العربية، ويأتي الاحتلال فجأة عام 1967 دون أن يتوقعوه فيجدون أنفسهم في سجن الاحتلال، وإذا خرجوا من وطنهم فإن لدى المحتل طرقاً عديدة لمنعهم من العودة إليه، بخاصة أنهم ذاقوا مرارة حرمانهم من إخوانهم أو أبنائهم الذين صادف أن كانوا خارج موطنهم ساعة وقوع الاحتلال، ولم يستطيعوا العودة إليه، وكانت إجراءات عودة بعضهم معقدة للحصول على ما يسمى "بلم الشمل".

في ظل هذا الواقع الجديد، كان على الفلسطينيين أن يكيّفوا أنفسهم وكان عليهم أن يقاوموا هذا الواقع الجديد الذي يستهدف ثقافتهم ووجودهم القومي وأدركوا أهداف سلطات الاحتلال في فرض عزلة ثقافية عليهم في وطنهم بهدف سلخهم عن الأمة العربية وتجهيلهم. وهكذا فإن ما قامت به إسرائيل كما يقول د. حلاج إنما هو:

["... هجمة على الثقافة والحضارة العربية بالأرض المحتلة كجزء من تغييب الحضور أو الوجود العربي، وهو ما يمثل الطرف الآخر لتهويد فلسطين بشكل عام، وهو الهدف الإسرائيلي الأكبر الذي لا يدركه إلا القليل، حتى بين العرب. فتكوين الوطن القومي لليهود، حتى في أيام الانتداب، لم يكن يعني إطلاقاً إقامة مجتمع يهودي بفلسطين فقط، ولكن له تكملة، هي تقويض الوجود العربي بفلسطين، فالوجود اليهودي بفلسطين لم يكن يقصد له أن يتعايش مع الوجود العربي، بل أن يحل محلّه بعد تقويضه نهائياً. فالشق الأول للاحتلال هو تزايد الوجود اليهودي بفلسطين وتناميه، والشق الثاني هو تقويض الوجود

العربي بفلسطين وانهاؤه. ولهذا أبعاد سياسية وعسكرية واقتصادية واجتماعية وثقافية"[].

ومن خلال وعي وطني وقومي قام الفلسطينيون خلال عقد من الزمان بتأسيس ست جامعات هي جامعة بير زيت (1972) وجامعة بيت لحم (1973) وجامعة النجاح بنابلس (1977) وجامعة الخليل (1979) والجامعة الإسلامية بغزة (1978)، وجامعة القدس التي تضم حتى الآن ثلاث كليات هي كلية الدعوة وأصول الدين في القدس، وكلية التمريض العربية في البيرة، وكلية العلوم والتكنولوجيا في أبو ديس.

وقد موّلت هذه الجامعات ذاتياً ولا تتلقى أي نوع من الدعم من سلطات الاحتلال بل إنها تعمل على تقويضها. إنها في حقيقة الأمر تمثل حسب تعبير عبد الجواد صالح "الثورة التربوية الفلسطينية" في مواجهة القمع الإسرائيلي المتواصل للثقافة الفلسطينية وفي محاولته لطمس شخصيتها الوطنية وهويتها القومية.

وبالإضافة إلى نشوء الجامعات والمؤسسات التعليمية المختلفة، فإن الوعي بأهمية البحث العلمي لمواجهة الاحتلال، تمثل بإنشاء كثير من مراكز البحث العلمي، ففي أقل من عقد من الزمن تم إنشاء المراكز التالية:

1- مركز الوثائق والأبحاث – جامعة بير زيت 1976 .
2- مركز الدراسات الريفية – جامعة النجاح الوطنية 1981.
3- مركز الأبحاث والتوثيق – جامعة النجاح الوطنية 1982.
4- مركز أبحاث رابطة الجامعيين – رابطة الجامعيين في الخليل 1982.
5- جمعية الدراسات العربية (القدس) 1979.
6- جمعية الملتقى الفكري العربي (القدس) 1977.

7- مركز إحياء التراث – جمعية إنعاش الأسرة في البيرة 1972.

وتهدف مراكز البحوث هذه إلى الحفاظ على التراث الفلسطيني ، وجمع الوثائق حول تاريخ فلسطين ، والقضية الفلسطينية ، وإجراء البحوث المتعلقة بتنمية المجتمع. فعلى سبيل المثال جاء في دليل مركز الوثائق والأبحاث لجامعة بير زيت بأن مبررات تكوين المركز تنبع من: ["أهمية البحث العلمي ودوره في تركيز أسس وقواعد نظرية سليمة من أجل خلق وبناء واقع مادي متماسك، وأن مركز الأبحاث منوط به صياغة التراث الفلسطيني من ناحية ، ووضع الخطوط العلمية لإمكانات النهوض التنموي في الضفة والقطاع ، وعلى مختلف المستويات الاقتصادية والاجتماعية والثقافية من ناحية أخرى"].

و ضمن أهداف جمعية الدراسات العربية (القدس) وغاياتها ما يلي:

"إجراء دراسات وأبحاث تتناول المسائل والقضايا الاجتماعية والتاريخية والاقتصادية والتعليمية والثقافية والحضارية والفكرية المتعلقة بشؤون الوطن الفلسطيني الصغير، وتلك المتعلقة بشؤون الوطن العربي الكبير، ذلك أن جمعية الدراسات العربية فلسطينية الموطن، إلى جانب كونها عربية الانتماء، وتعمل الجمعية على تشجيع الدارسين ،والباحثين ، وأصحاب الأقلام على الدراسة والبحث والتأليف ، وتقوم بترجمة دراسات ، وأبحاث ، وكتب من اللغات الأجنبية إلى العربية وبالعكس.

وتتولى الجمعية إعداد تلك الدراسات والأبحاث للطباعة والنشر والتوزيع لتكون في متناول المثقفين وتحت تصرف القرّاء في كل مكان".

وقد أثبتت المؤسسات التعليمية في الوطن المحتل – خلال عمرها القصير – أهميتها في صيانة الثقافة العربية وتأكيد الهوية الفلسطينية المقاومة، وإدراكاً

من هذه المؤسسات لخطورة المسؤوليات التي تتحمل أعباءها، إذ بلغ عدد الطلبة في كليات وجامعات الضفة الغربية عام 1982 حوالي عشرة آلاف طالب وطالبة. وكذلك إدراكاً منها لجسامة الأخطار التي تهددها من قبل الاحتلال فإنها قامت بتأسيس مجلس التعليم العالي يتكون من 37 شخصية تربوية واجتماعية ومهنية وسياسية،ليصبح إدارة مركزية تنسّق بين الجامعات والمعاهد ولتضع خطة تعليمية لتخدم مستقبل التطور الاقتصادي والاجتماعي للشعب الفلسطيني، وانتخبت الهيئة العامة لجنة تنفيذية لها برئاسة الدكتور جابي برامكي، إلا أن سلطات الاحتلال الإسرائيلي اعتبرت المجلس مؤسسة غير قانونية، ورفضت الموافقة على اجتماعه، كما رفضت أن تقوم المجالس البلدية بتمويله ، أو قبول تمويله من مصادر فلسطينية أو عربية من الخارج ، وفرضت الإقامة الجبرية على كثير من أعضائه.

إن الصراع مستمر وإن صمود المؤسسات التعليمية الفلسطينية في وجه الاحتلال واجراءاته يفشل كل خططه الرامية إلى تحطيم التعليم العالي في المناطق المحتلة وتهجير الكفاءات والمثقفين، ورغبته في هبوط مستوى التعليم، والحد من التحاق الطلاب الفلسطينيين في التعليم العالي.

إن المعركة ما زالت محتدمة، وإرادة الشعب الفلسطيني في التعليم إرادة لا تقل صلابة عن تمسكه بأرضه وحقه المقدس بوطنه، ذلك أن الفلسطينيين يدركون أنهم لو خسروا معركة التعليم فإنهم سيخسرون ثقافتهم وسيفقدون تراثهم ، وبذلك يخسرون شخصيتهم ، الأمر الذي يعني فقدان هويتهم فتضيع والأراض والوطن، الذي لا يقبلون عنه بديلاً.

خاتمة

في هذه الورقة حاولنا أن نربط بين استراتيجية العدو وسياساته في فلسطين المحتلة. وقد أظهرنا أن إسرائيل تريد فلسطين بلا فلسطينيين. وإذا كان لا بد أن يوجد بها فلسطينيون ، فإنهم يجب أن يكونوا بشراً بلا هوية، ثقافتهم مشوّهة وإمكاناتهم ضعيفة. يجب أن يكونوا عمّالاً غير مهرة ليقوموا بتأمين عمالة رخيصة لهم. إن هذا كله استتبع سياسات قمعية اتجاه الفكر والمفكرين ، ومؤسسات البحث الفلسطيني ، واتجاه وسائل الإعلام ، واتجاه المؤسسات التعليمية. إن كل السياسات التي اتّبعتها إسرائيل من إصدار قوانين وأوامر عسكرية جائرة، وإلى ممارسة الإرهاب والاعتقال والإبعاد، وإلى مصادرة الكتب والرقابة على الصحافة والكتب والمسرح، كلها تسعى لتصب في نهر واحد وهو السيطرة على أرض فلسطين دون شعب فلسطين، وإذا وُجد فليكن شعباً بلا روح ، وبلا هوية.

إن كل الإجراءات القمعية التي وجهتها إسرائيل تجاه الفلسطينيين ارتدّت إلى نحر موجهيها. وبوجود الاحتلال تأسست ست جامعات بعد أن لم يكن في الأراضي المحتلة اي جامعة، إنها تمثل الثورة التعليمية في مواجهة الاحتلال، وانتعش المسرح كوسيلة اتصالية تعبّر عن هموم الجماهير وتطلعاتها. وانتعشت حركة النشر والتأليف كما لم يسبق لها مثيل.

إن هذه الظواهر كلها تؤكد على حيوية الشعب الفلسطيني وقدرته على العطاء والمقاومة والصمود في وجه المحتلين، وينظر هذا الشعب دوماً إلى المستقبل وهو يستشرفه وطناً حراً ديمقراطياً فيه يقيم أبناؤه وهم مطمئنون بدولتهم

المصادر والمراجع

1. Moshe Menuhin, the Decadence of Juidaism in Our Time, Beirut, The Institute for Palestine Studies, 1969, P. 6

2. ألمر بيرجر ، فلسطين والكتاب المقدس، ترجمة عمر التوني الشيباني، طرابلس، المنشأة الشعبية للنشر والتوزيع، 1978، ص 13.

3. د. صالح أبو اصبع، الحق والبندقية، طرابلس، المنشأة الشعبية للنشر، 1980، ص . ص 47- 49.

4. غاري، ف. سميث، الصهيونية السياسية، انتقادات يهودية، في كتاب الصهيونية حركة عنصرية، ترجمة عدنان كيالي، بيروت، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، 1979، ص 223 .

5. ستيفان غورانوف، العنصرية مبدأ أساسي في الصهيونية، في الصهيونية حركة عنصرية، المصدر السابق، ص 36.

6. نزيه قوره، العرب في إسرائيل منذ عام 1948، الصهيونية حركة عنصرية، ص97.

7. المصدر نفسه، ص 98.

8. نشرة مؤسسة الدراسات الفلسطينية، السنة العاشرة، العدد 4، 29 شباط 1980، ص18.

9. نشرة مؤسسة الدراسات الفلسطينية، السنة العاشرة، العدد 19، 15 تشرين الأول، 1980، ص 21.

10. نشرة مؤسسة الدراسات الفلسطينية، السنة العاشرة، العدد 10، 30 أيار 1980، ص23.

11. رفعت سيد أحمد، الضفة الغربية في الاستراتيجية الإسرائيلية 1967- 1982، شؤون عربية، ع 19، 20 سبتمير/ أكتوبر 1982، ص 90 .

12. د. فـؤاد حمـدي بسيسـو، عـلاج الأوضـاع الاقتصـادية الجاريـة في الوطن المحتل ومتطلبات صموده الاقتصادي، شؤون عربية، عدد 40، ديسمبر 1984، ص 190.

13. تقرير وزارتي العمل والأرض المحتلة بالأردن لبعثة منظمة العمل الدوليـة المنشـور تحـت عنـوان "آثـار الاسـتيطان الإسـرائيلي في الأوضـاع الاجتماعية في المناطق المحتلة"، صامد الاقتصادي، السنة السادسة، العدد 48، آذار / نيسان 1984، ص ص 83- 109.

14. رفعت سيد أحمد، مصدر سبق ذكره، ص 95.

15. المصدر نفسه، ص ص 95- 96.

16. سمـير نايفـه، واقـع الاعتقـال في السياسـة الإسـرائيلية، منشـورات فلسطين المحتلة، 1980، ص 206 .

17. غازي السعدي، من ملفات الإرهاب الصهيوني في فلسطين: مجاز ر وممارسات 1936- 1983، عمّان، دار الجليل، 1985، ص ص 305- 321 .

18. أورى أفنيري، تنظيمات سرية مسلحة للمستوطنين الإسرائيليين، نشـرة مؤسسـة الدراسـات الفلسـطينية، السـنة العاشـرة، العـدد 12، 3 حزيـران 1985، ص1 .

19. أسامه الغزالي، حرب "ابعاد النموذج الإسرائيلي للسياسة المضادة للمقاومة: ملاحظات أولية"، شؤون عربية، تشرين أول / اكتوبر 1981، ص 24

20. غازي السعدي، مصدر سبق ذكره، ص ص 294- 297.

21. الأمـم المتحـدة، الوضـع القـانوني للضـفة الغربيـة وقطـاع غـزة، نيويورك 1984، مقتبس عن رفعت سيد أحمد، ص 98 .

22. نشرة مؤسسة الدراسات الفلسطينية، السنة العاشرة، العدد 18، 30 أيلول 1980، ص18.

23. -Evelyn Kessler, Anthropology: The Humanizing Process Boston: Allyn and Bacon, Inc., 1975, P. 9

24. نشرة مؤسسة الدراسات الفلسطينية، السنة العاشرة، العدد 21، 15 تشرين الثاني 1980، ص 16.

25. أسامه الغزالي، حرب "ابعاد النموذج الإسرائيلي للسياسة المضادة للمقاومة، ملاحظة أولية، شؤون عربية، تشرين أول / أكتوب 1981، ص 31.

26. عبد الجواد صالح، الاحتلال الإسرائيلي وأثره على المؤسسات الثقافية والتربوية في فلسطين المحتلة، لندن، مركز القدس للدراسات الانمائية، 1985، ص419- 420 .

27. عبد الجواد صالح، النهب الإسرائيلي لمركز الأبحاث: إبادة الجنس وإبادة الذاكرة، شؤون فلسطينية، العدد 129- 130 – 131، آب / أيلول / تشرين أول 1982، ص 39.

28. مئير كاهانا، شوكة في عيونكم، ترجمة غازي السعدي، عمّان، دار الجليل للنشر، 1985، ص ص 227- 228 .

29. نشرة مؤسسة الدراسات الفلسطينية، السنة العاشرة، العدد 19، تشرين الأول 1980، ص21.

30. نشرة مؤسسة الدراسات الفلسطينية، السنة العاشرة، العدد 10، 30 أيار 1980، ص24.

31. المصدر نفسه، ص 23.

32. المصدر نفسه، ص 24.

33. Washington Post, June 28, 1982.
34. Ibid.
35. The Washington Post, Sunday June 27, 1982.
36. Alfred Lilienthal, The Zionist Connection, New York, Middle East Perspective 1979, P.P. 271-272.
37. Ibid.
38. Emond Ghareeb (ed) Split Vision: Arab Portrayal In The American Media, Washington D.C., Institute of Middle Eastern and Northern African Affairs, 1977, P. 60.
39. Harold Piety, Zionist Biason American Editorial Pages,In Edmond Ghareeb (ed) Ibid., P. 135.

40. Lilienthal, OP. Cit., P. 272.
41. Washington Post, Tuseday, July 6, 1982.
42. Chicago Sun times Friday, July 2, 1982.

43. عبد الجواد صالح، مصدر سبق ذكره، ص ص 30- 31 .

44. السجل الوثائقي لتاريخ الصحافة في فلسطين لدى يوسف خوري، الصحافة العربية في فلسطين 1876- 1948، بيروت، مؤسسة الدراسات الفلسطينية والاتحاد العام للكتاب والصحفيين الفلسطينيين، د. ت.

45. أسعد الأسعد، الصحافة، منظمة التحرير الفلسطينية ، د. ت، ص 16.

46. المصدر نفسه، ص ص 20- 26. كذلك انظر باسم سكجها، صحافة الأرض المحتلة: وظيفة وطنية في ظل الإرهاب الإسرائيلي، ملف البيان، العدد السادس، حزيران 1982، دبي، مركز أبحاث الشرق الأوسط ، ص59- 60 .

47. باسم سكجها، مصدر سبق ذكره، ص 61. كذلك انظر محمود شقير، الثقافة الوطنية في الأرض المحتلة، الواقع والدلالات والتحديات، صامد الاقتصادي، السنة الثامنة، العدد 59، كانون ثاني / شباط 1986، ص 30.

48. أسعد الأسعد، مصدر سبق ذكره، ص 36- 38.

- باسم سكجها، مصدر سبق ذكره، ص 62.
- وليد الجعفري، الصحافة الفلسطينية في الضفة الغربية وقطاع غزة 1967- 1985 الواقع والمشكلات، صامد الاقتصادي، السنة الثامنة، العدد 59، كانون الثاني/ شباط 1986، ص50- 51 .

49. وليد الجعفري، مصدر سبق ذكره ، ص 50.

50. عبد الجواد صالح، مصدر سبق ذكره، ص 94.

51. نشرة مؤسسة الدراسات الفلسطينية، النشرة العاشرة، العدد 10، 30 أيار 1980، ص13.

52. د. عبد القادر ياسين، ترجمة وإعداد، القمع الثقافي في المناطق المحتلة، جريدة البيان، يوليو 1985.

53. تيسير عبد الحافظ مسودى، مراكز البحث العلمي: ومعوقات النشر في الأراضي المحتلة، بحث مقدم إلى ندوة مشكلات النشر العلمي، بإشراف اتحاد مجالس البحث العلمي العربية وجامعة الإمارات العربية المتحدة، 4 – 1985/11/6، العين، دولة الإمارات العربية المتحدة.

54. وليد الجعفري، مصدر سبق ذكره، ص 51.

55. أسعد الأسعد، مصدر سبق ذكره، ص 38.

56. المصدر نفسه، ص 38- 39.

- وانظر تيسير عبد الحافظ مسودى، مصدر سبق ذكره.

57. تيسير عبد الحافظ مسودي، مصدر سبق ذكره.

58. عبد القادر ياسين، مصدر سبق ذكره.

59. لمزيد من التفاصيل حول وقائع محددة يمكن الرجوع إلى:

- عبد الجواد صالح، الاحتلال الإسرائيلي وأثره على المؤسسات الثقافية والتربوية في فلسطين المحتلة ، (مصدر سبق ذكره)، ص ص 89- 93.

- كذلك وليد الجعفري، الصحافة الفلسطينية في الضفة الغربية وقطاع غزة (مصدر سبق ذكره)، ص ص 52- 53 .

- كذلك أسعد الأسعد، الصحافة (مصدر سبق ذكره)، ص ص 39- 41 .

60. إبراهيم الدقاق، نحو برنامج تنموي من أجل الصمود في المناطق المحتلة، شؤون فلسطينية، العدد 126، أيار 1982، ص 26.

61. محمود شقير، مصدر سبق ذكره، ص 27.

- تيسير مسودى، مصدر سبق ذكره. ويقرر خليل السواحري بأنه في بداية الثمانينات أصبح عدد دور النشر هو 13 دار نشر، تجمّعت كلها في اتحاد

الناشرين الذي تأسس في حزيران 1982، وإذا أخذنا بما أورده محمود شقير بأن في الضفة الغربية وغزة سبع دور نشر وفي مناطق 1948 ست دور نشر وهذا يتسق مع الرقم الذي أورده السواحري فيصبح المجموع 13 دار نشر. السواحري (دور النشر في فلسطين المحتلة)، صامد الاقتصادي، السنة الثامنة، العدد 59، كانون الثاني 1986.

62. انظر عبد الجواد صالح، مصدر سبق ذكره، بشأن المطبوعات المحظور تداولها، ص ص 154- 209.

63. انظر في ذلك المصدر نفسه، ص ص 96- 97.

64. عفيف شيلوط، المسرح العربي في فلسطين المحتلة 1948، صامد الاقتصادي، السنة الثامنة، العدد 59، كانون الثاني / شباط 1986، ص ص 79- 84.

65. محمد أنيس، الحركة المسرحية في الأرض المحتلة: نشأتها- واقعها- ومشكلاتها، صامد الاقتصادي، السنة الثامنة، العدد 59، كانون الثاني / شباط 1986، ص 69.

66. المصدر نفسه، ص 70.

- د. ياسر الملاح، الحياة المسرحية في فلسطين، في مجموعة بحوث عربية مهداة إلى الأستاذ الدكتور/ اسحق موسى الحسيني، بدون نشر وبدون تاريخ، ص 264 .

67. محمد أنيس، المصدر سبق ذكره ، ص 72، 77- 79.

- ياسر الملاح، المصدر سبق ذكره ، ص 264.

68. محمد أنيس، المصدر سبق ذكره، ص ص 73- 77.

69. محمود شقير، مصدر سبق ذكره، ص 31.

70. عبد الجواد صالح، مصدر سبق ذكره، ص ص 102- 103.

71. د. عطا محمد صالح زهرة، الثقافة العربية والتحدي الصهيوني في الأرض المحتلة، شؤون عربية، العددان 33- 34، نوفمبر / ديسمبر 1983، ص 151 .

72. إبراهيم الدقاق، مصدر سبق ذكره، ص 24.

73. د. شبل بدران، تعليم الفلسطينيين بين التربية التقليدية والتربية الثورية، شؤون عربية، العدد 36، فبراير 1984، ص 85.

74. صبري جريس، العرب في إسرائيل، ط2 ، بيروت، مؤسسة الدراسات الفلسطينية، 1973، ص 354 .

75. عبد الجواد صالح، مصدر سبق ذكره، ص 80 .

76. المصدر نفسه، ص 84 .

77. انظر : وهيب أبو واصل، طلاب الأرض المحتلة كيف حالهم، الشاهد، السنة الأولى، العدد الخامس، أيلول 1985، ص ص 20- 23 .

78. نزيه قوره، العرب في إسرائيل منذ عام 1948، الصهيونية حركة عنصرية، ترجمة عدنان كيالي، بيروت، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، 1979، ص 97 .

79. نشرة مؤسسة الدراسات الفلسطينية، السنة العاشرة، العدد 19، 1980/10/15، ص13.

80. عبد الجواد صالح، مصدر سبق ذكره، ص 47.

81. انظر على سبيل المثال: ادعاءات الحاخام مئير كاهانا في كتابه: شوكة في عيونكم، ترجمة غازي السعدي، عمّان، دار الجليل للنشر، 1985، ص ص 83- 107.

82. غازي السعدي من ملفات الإرهاب الصهيوني في فلسطين: مجازر وممارسات 1936- 1983، عمّان، دار الجليل للنشر، 1985، ص ص 177- 185.

- عبد الجواد صالح، مصدر سبق ذكره، ص ص 47- 70.

83. عبد القادر ياسين، ترجمة وإعداد جريدة البيان (دبي).

84. وزارة العمل، ووزارة شؤون الأرض المحتلة – الأردن، آثار الاستيطان الإسرائيلي على الأوضاع الاجتماعية في المناطق المحتلة، صامد الاقتصادي، السنة السادسة، العدد 48، آذار / نيسان 1984، ص 98.

85. مصطفى الصواف، (مقابلة)، المثقف في الأراضي المحتلة، ملف البيان، مركز أبحاث الشرق الأوسط بالبيان، العدد السادس، حزيران 1982، ص 73.

86. المصدر نفسه، ص 73 .

87. انظر على سبيل المثال "منظمة القانون في خدمة الإنسان، انتهاك حقوق الإنسان في الأراضي المحتلة، ترجمة سليم راغب أبو غوش، عمّان، دار الجليل للنشر، 1984.

- عبد الجواد صالح، مصدر سبق ذكره،

- تقرير وزارتي العمل وشؤون الأرض المحتلة، مصدر سبق ذكره.

88. مصطفى صواق، مصدر سبق ذكره، ص 74.

89. تيسير مسودي، مصدر سبق ذكره.

90. المصدر السابق.

91. المصدر نفسه.

92. عبد الجواد صالح، مصدر سبق ذكره، ص ص 74- 7

الباب الأول

الفصل الثالث

دور الأدب

في

بلورة الشخصية الوطنية للشعب الفلسطيني

- وماذا ترى؟
- إنني أكبر الآن
- يحتشد الحزن تحت الأظافر
- يطلبني وطني ... اشتاقت الأرض يا أهلها ... فإليها
- وزاد المسافر قنبلة ورضى الوالدين

"الشاعر أحمد دحبور"

مؤتمر حماية المقدسات والتراث الثقافي في فلسطين

القاهرة 19 - 22 نوفمبر /1988

الباب الأول

الفصل الثالث

دور الأدب

في بلورة الشخصية الوطنية الفلسطينية

في مثل اللقاءات التي تكون فلسطين محورها، تختلط فيها العواطف مع نداءات العقل... ومثل هذا اللقاء القومي الذي ينعقد لحماية المقدسات والتراث الثقافي في فلسطين فإنه يستثير المشاعر ويحفز العقل... وحين طلب مني المشاركة في هذا المؤتمر أحسست بعبء المسؤولية في أن أقف بين نخبة من الوطن العربي... وبين نخبة من أصدقاء العرب من الأجانب.

وقد شعرت بثقل المسؤولية أكثر حينما بدأت أقترب من موضوع المحاضرة التي تمّ تحديد عنوانها كالتالي:

"دور الثقافة والأدب والفكر في بلورة الشخصية الوطنية للشعب الفلسطيني"

ووقفت طويلاً أمام عنوان المحاضرة... ووجدت نفسي أمام عنوان يتسع لأن يكتب فيه مجلد أو أكثر، لا أن يكون موضوع محاضرة ،لا يتسع فيها الوقت إلاّ لساعة ، أو بعضها.

ووجدت نفسي مضطراً أن أحاول أن أحصر نفسي في الحديث عن جانب من جوانب العنوان، وآثرت – لضيق الوقت – أن أركّز على الحديث عن دور الأدب في بلورة الشخصية الوطنية للشعب الفلسطيني ... وهذا لا يعني أن أتجاهل الثقافة

ذلك لأنّ الأدب عنصر من عناصر الثقافة... وكذلك فإن هذا لا يعني أن أتجاهل الفكر ذلك أنه لا يمكن الحديث عن أدب فارغ المحتوى من فكر، فالخاطرة الأدبية والقصة والقصيدة... كلها تعبر عن فكر... والثقافة في حد ذاتها ليست خواء... إنها تعبر عن فكر...

وحينما أتحدث عن الأدب ، كذلك ، فإنني قد أقتبس أكثر ما أقتبس من الشعر للتعبير عن الدور الريادي للأدب في التعبير عن القضية الفلسطينية ، ولذا كثيراً ما ألجأ إلى اقتباسات من الشعر ... ولعل ذلك يعود إلى سببين:

- **أولهما** –أن الشعر مازال يشكل للإنسان العربي أهم وسائل التعبير عن مشاعره وأحاسيسه وفكره وهو لا زال كسابق عهده ديوان العرب... الذي يستثير الناس ويحفز هممهم ويحفظون أبياته ويتغنون بقصائده.
- **ثانيهما** – أن الشعر في مجال المحاضرات يسهل متابعته أكثر من النصوص النثرية الأخرى وخاصة مثل النصوص القصصية.

ولابدّ أن أشير هنا إلى أنني لم أطمع في أن أقدم تحليلاً أدبياً ورؤية نقدية للنصوص التي أقتبسها، فذلك ليس مجاله هنا. وقبل الخوض في مجال موضوع محاضرتنا هذه فإنني أحب أن أوضح نقطة أساسية، تتمثل بمفهوم الشخصية الوطنية للشعب الفلسطيني.

لقد ابتدأت في السبعينات تتعزز قوى الإقليمية في الوطن العربي... ومع بروز هذه القوى وسيطرتها أصبحت قضية العرب الأولى... قضية فلسطين قضية هامشية في الأجندة العربية... وفي الشارع العربي... ولقد اقتُرِفت المجازر ضد الشعب الفلسطيني... وشنّ الإسرائيليون حربهم القذرة ضد الوجود الفلسطيني عام 1982... وشهد العالم الجرائم، التي تقترف في حق أبطال الانتفاضة ... ووقف العرب يتفرجون بينما قامت مسيرات الاحتجاج في الدول الغربية وفاقت

في قوتها وحجمها ما جرى في الوطن العربي. وفي رواية لرشاد أبو شاور جاء على لسان يوناني: ما يلي "قال الراوي الكريتي: التظاهرات يومياً شعبنا معكم أتعرفون؟ إحدى الجرائد نشرت كاريكاتيراً يقول إن اليونان هي أكثر دولة عربية تدعم الكفاح الفلسطيني".[1]

نعم لقد كان الإنسان العربي مغيّباً لا يمتلك حرية التعبير عن نفسه في قضيته المصيرية. ولا عجب أن نرى كاتباً فلسطينياً يكتب حانقاً عن حجم المشاركة العربية في حرب لبنان، ودوافعه قائلاً:

"لكن الواقع أقوى من المفاهيم. فالعرب في وضعهم الراهن، ليسوا أمة واحدة، كما أن القضايا ذات الاهتمام المشترك لا تشكّل الهم الأساسي للدول العربية، ولا تستثنى قضية فلسطين من ذلك.

فالشؤون القطرية تقع في المكان الأول من اهتمامات الأنظمة العربية، سواء على صعيد تثبيت الأوضاع السياسية فيها، أو ترسيخ البناء الاقتصادي (خطط التنمية). ومن هذا المنطلق، تنظر كل دولة إلى مسألة الصراع مع إسرائيل بمقدار ما يمسها الأمر. فالدول المحاذية لإسرائيل يختلف وضعها ودورها من الصراع عن الدول البعيدة. ويمكن رؤية ذلك في تقسيم الدول العربية المتفق عليه فيما بينها إلى دول مواجهة، ودول مساندة.

يقابل ذلك على الصعيد الفلسطيني الاتجاه الذي ساد الأوساط الفلسطينية المنظمة، والقائل بوجوب استقلال القرار الفلسطيني. وجاء ذلك في الإطار الموضوعي للوضع العربي الذي بدأ يترسخ على شكل كيانات قطرية، بالرغم من الاحتفاظ بالشعارات القومية، بعد هزيمة 1967، إن لم يكن قبل ذلك، حيث يمكن التقاط دلائل هذا التوجه منذ مؤتمر القمة العربي الأول في 1964 الذي كرس مفهوم التضامن العربي".[2]

إن مثل هذا التحليل لا يخلو من المرارة وهو في واقع الأمر تحليل غاضب بدين الإقليمية العربية... ومن ثم فإن الحديث عن الوطنية الفلسطينية أو الشخصية الوطنية الفلسطينية ليس بديلاً عن القومية... ولا هو معاد للإقليمية العربية السائدة... فكم من الأخوة العرب هو فلسطيني بانتمائه للقضية؟ وكم من الشهداء العرب الذين رووا ثرى أرض فلسطين ودافعوا عن ثراها وثورتها وهم فلسطينيون بالانتماء لا بالمولد؟. إن تعميق مفهوم الشخصية الوطنية الفلسطينية... هو ضرورة قومية لأنه انتماء للقضية، لأنه انتماء للنضال، لأنه انتماء لهدف العودة والتحرير، انتماء للمستقبل الواعد.

وكما يقول محمود درويش:

"إن فلسطين الأرض – الشعب – المعنى – الرمز – الدلالة – الصراع هي الحلم العربي الشامل، وقد تتساءلون: هل هي يوتوبيا العرب؟ هل هي فردوسهم المفقود، الذي أثرى أدبهم وشعرهم؟

إننا نستمرئ هذه المشابهة ونخشاها، نستمرئها لأنها بلورة مطامح أمة في اسم موحد، لأنها إقرار بالاسم الواحد للحلم الجماعي، ولأنها مبايعة الضياع للرمز العظيم.

ونخشاها لأن مصطلح الفردوس المفقود يتضمن تسليماً بحالة وجودية بلغت حد النهاية. إن علاقة الشعوب بفردوسها المفقود هي علاقة ارتباط بالماضي، الذي يحدده القدر: حنين مجاني، وبكاء للذكرى والعزاء، وفرح بقدرة ماضية على إنجاز جميل مضى. أما الفردوس الفلسطيني المفقود، فإنه علاقة بالماضي والحاضر والمستقبل.

وما زالت ساحة الحاضر ملتهبة بالصراع الذي يقرر مدى دينامية العلاقة بين الماضي والمستقبل. لقد اندلعت أرعب حروب على ساحة هذا الحاضر، ونما الشعب الفلسطيني ونما الصراع من أجل أن يكون هذا الحاضر عتبة للمستقبل لا سقفاً للماضي. ومن هنا، فإن فردوس العرب مفقود مؤقتاً. إنه محتل، وقابل للاستعادة وممكن الاستعادة. ومن هنا أيضاً تأتي حيوية الأدب العربي، وفاعليته في احتواء فلسطين له. لأنه يحلم بجنة ممكنة، ولا يحلم بيوتوبيا".[3]

إذن حديثنا عن الشخصية الوطنية هو حديث عن الانتماء، ولعل الفلسطينيين نتيجة ظروفهم الخاصة أكثر انغماساً في الحلم العربي الشامل الذي تحدث عنه محمود درويش... ففلسطين الأرض... أصبحت مستباحة وأراضيهم نهب للمستوطنين الصهاينة... والشعب مشتت في أرجاء المعمورة، والصراع يعيشونه يومياً معاناة ونضالاً. وهذا كله من عناصر بلورة الشخصية الوطنية الفلسطينية.

وفي حديثنا عن دور الأدب في بلورة الشخصية الوطنية الفلسطينية، فإن مجموعة محاور ثنائية تشكل عناصرها وهي:

- المحور الأول: الأرض – الوطن.
- المحور الثاني: الغربة – المعاناة.
- المحور الثالث: العودة – الأمل.
- المحور الرابع: الصمود – الثورة.
- المحور الخامس: العروبة – الانتماء.

إن هذه المحاور ليست تصنيفاً نهائياً، إذ يمكن أن تتداخل ، بل إنها تتفاعل لتصنع في مزيج متكامل هذه الشخصية المناضلة، التي تقاتل بالحجارة لتجسد حلم العروبة بوطن حر على أرض فلسطين العربية. هذا المزيج من هذه المحاور يصنع

الشخصية الوطنية الفلسطينية وهوية نضال ، وهوية انتماء إلى جزء من الأرض العربية.

المحور الأول: الأرض – الوطن

قبل نحو ثلاثين عاماً، وفي أثناء زيارته لبيروت، قال جون فوستر دلاس: "إن المشكلة الفلسطينية ستحل فقط على مرور الزمن، حينما ينشأ جيل من الفلسطينيين الذين تربوا بدون الارتباط بالأرض".

وكل الذين لا يعرفون العربي الفلسطيني عاشوا على هذا الوهم لأنهم لم يدركوا ماذا تعني الأرض لهم. إنها كما يراها فلسطيني يعيش الغربة في أمريكا هي محور حياة الفلسطينيين... يقول فواز تركي:

" - إذا كان هناك محور مشترك لجميع الفلسطينيين، محور للنفس، فإنه بلا نقاش الأرض... إن كل ميثولوجية الأمل الفلسطيني وحيوية حياته اليومية كانت دائماً مجذرة بالأرض... وفي كل لحظة من نموه منذ الطفولة وحتى الشيخوخة، عاش هذا الفلسطيني على الأرض، وعاش معها، وعاش بعيداً عنها، واكتسب ذكرياته. وقد قام بخطوته الأصلية إلى الوعي الناضج على الأرض وعليها كان دائماً يجد واقع ماضيه وإمكانات مستقبله، ومن ثم فإنها البؤرة الحميمية الخاصة لواقعه الحالي.

... وباختصار فإن صلة الفلسطيني بأرضه لها علاقة بمثالية الذات وانغماسها... ولها علاقة بالمفهوم الأساسي لمكانه في الوجود، ولافتراضاته الرئيسية حول الذات. وبدون أرضه فالفلسطيني ببساطة لا يستطيع تحديد هويته".[4]

وليس غريباً أن نجد الأرض تأخذ حيّزاً كبيراً من ديوان الشعر الفلسطيني وتأخذ حيزاً كبيراً من ديوان الرواية والقصة في فلسطين، وقد أفرد كاتب فلسطيني كتاباً كاملاً يتناول فيه الأرض في جانب من جوانب الشعر الفلسطيني وهو شعر المقاومة.[5]

وقد لاحظ المؤلف في كتابه: "أن الأرض – في شعر المقاومة الفلسطينية – تبدو تجسيداً واحتواءً للهوية الفلسطينية. وقد وقع النظر إليها بطريقتين:

1. عمودياً: فكانت تمثّل تجذر الفلسطيني ورسوخه فيها عبر الزمان.
2. أفقياً: فكانت تمثل الخصوبة التي تحولت إلى جدب ودمار أصاباها بفعل الاحتلال الصهيوني.

كما كانت ثلاثية الرمز المنطلق من الأرض ذات أبعاد دلالية ثلاثة، إذ كانت الأرض:

1. رمز الحق الفلسطيني، فهي تركة ورثها الجيل المعاصر عن الآباء والأجداد.
2. رمز البقاء والمستقبل، فهي ترفض الاستعمار وتتحداه، وتتحول إلى سلاح في يد الفلسطيني يناضل به من أجل إنهاء الوجود الصهيوني العنصري".[6]

ها هم الشعراء يكتبون عن الأرض ، إنهم يعبرون عن ذلك التفاعل الحي بين الإنسان والأرض... إنه نوع من التوحد بين الإنسان والأرض ، ذلك لأنها عندهم هي الوطن. وهكذا تصبح الأرض محوراً للقصيدة ومجالاً لاستثارة المشاعر الوطنية وتوحيدها حول هذا البعد الذي هو أوسع من كونه جغرافيا وأعمق من كونه تاريخاً...

فتراب الأرض امتداد للروح التي منها يستمد سلاحه في وجه الغاصبين:

أسمّي التراب امتدادًا لروحي

أسمّي يدي رصيف الجروح

أسمّي العصافير لوزاً وتين

أسمّي ضلوعي شجر

أستلّ من طينة الصدر غصناً

وأقذفه كالحجر

وأنسف دبابة الفاتحين.[7]

إن الأرض التي توحد الفلسطينيين، وتعطيهم هويتهم، تصبح حلماً لدى الشاعر ولدى الفلسطيني كي يموت في ثراها... تقول فدوى طوقان:

كفاني أموت على أرضها

وأدفن فيها

وتحت ثراها أذوب وأفنى

وأبعث عشباً على أرضها

وأبعث زهرة

تعبث بها كف طفل نمته بلادي

كفاني أظل بحضن بلادي

ترابا، وعشبا، وزهرة.[8]

إن الأرض لدى الفلسطيني هي الوطن الذي يسكن جسده... هذا الحلول الذي يندر أن نجده عند كتاب آخرين فالأرض كما يقول لنا شاعر:

وجهي هو الأرض الجديدة

والعصافير السعيدة

والصلابة والتحدي

هل تستطيعون التحدي؟

يا أرض ردي

الرمل بيتي

كل الجهات سواحلي

بيسان صدري

والعواصم حدّي

يا أرض رُدّي

وتخللي لحمي الجميل

روائح الجسد الجميل.[9]

إن الانتمــاء إلى الأرض والالتحــام بهــا يمــثلان للفلســطيني عنصــر الانتمــاء الأساسي لوطن يحتله الغاصبون، وبهذا الانتماء يتجسد البعد للهوية الوطنية الفلسطينية، الـتي تجعـل أطفـال فلسـطين، وهـم مولـودون في المنـافي، وآبـاؤهم مولودون بعيداً عن قرى ومدن آبائهم، مازالوا يذكرون لك أنهم من يافا أو حيفا أو اللد تلك المدن التي لم تكتحل بها عيونهم ولا عيون آبائهم... هذه الظاهرة الفلسطينية، ظاهرة الانتماء للأرض هي التي أدهشت الغاصبين عند احتلالهم للضفة الغربية وغزة وجعلتهم يدركون أن هناك شعباً يعرف كيف يحافظ على ذاكرة اسمها الوطن.

يقــول محمــود درويــش: "خــلال حــرب حزيــران، فــوجئ كــثير مــن الجنــود الإسرائيليين بأن الفلسطينيين يحملون ذاكرة، وبأنهم يتذكرون وطناً ضاع. وأكثر ما فاجأهم هو أن الأطفال الذين ولدوا بعد ضياع الوطن مازالوا متعلقين بهذا الوطن. وروى جندي إسرائيلي أنه حين دخل أحد مخيمات اللاجئين وجد أن السكان لا يزالون يعيشون بالطريقة ذاتها التي كانوا يعيشون بها في قريتهم السابقة. إنهم موزعون وفقاً لما كانوا عليه. القرية ذاتها والشارع ذاته. وقد اهتاج الجندي.

- لماذا؟

كنت عاجزاً عن الفهم. لقد مرت تسع عشرة سنة، ومازالوا يقولون: نحن من بئر السبع، وقال لي جندي شاعر أنه لم يشعر بأنه غريب في فلسطين يوماً واحداً في حياته إلاّ حين دخل إحدى القرى العربية في الضفة الغربية بعد الحرب الأخيرة، كان في الزي العسكري، ورأى طفلة في الشارع تنظر إليه نظرةً جعلته يشعر بالزلزال. من عيون الطفلة التي لا يستطيع شرح نظراتها أدرك أنه محتل. لم

يُخفِ الجندي دهشته من رفض عيون الطفلة. قال: هذه الطفلة... من أين جاءت بالذاكرة؟ ومن علمها أن لها وطناً... من علمها". [10]

المحور الثاني: الغربة – المعاناة

لأن الأرض محور حياة الفلسطيني تصبح كل بلاد الدنيا بالنسبة له منافي إجبارية... وبها يتولد شعور الغربة... وعنها تنتج أشكالاً متعددة من المعاناة.

مخيمات اللاجئين تفرد مساحات واسعة من البؤس الإنساني... تحصيل لقمة العيش مرارة وكد وآلام... التعبير عن كيانه يقابل بالقمع والسجون... هويته الفلسطينية تصبح تهمة... وأسماء أبنائه دائماً على قوائم الممنوعين في مطارات العالم... ويصبح الطفل الفلسطيني مخلوقاً مشبوهاً... لا يسمح له بالدخول إلى المطارات العربية... إن هذا الواقع يعيشه الفلسطينيون كل يوم ، ونقرأ في الصحف قصصاً عن الرحلات المكوكية بين مطارات أجنبية وعربية لأسرة فلسطينية ، لأن المطارات العربية لا تتسع لقدم طفل فلسطيني يسمح له بالدخول في المطار العربي... إن هذا الواقع يصرح به وزير داخلية عربي حين يناشد جميع الدول العربية: "عدم تعقيد الأمور" أمام الفلسطينيين الذين يحملون جوازات سفر أردنية مؤقتة لمدة سنتين وطالبها بتحمل مسؤولياتها أمام أبناء الشعب العربي الفلسطيني، كما طالب بوضع الجميع أمام مسؤولياتهم، لأن جميع الدول العربية أرادت ورغبت في اتخاذ قرار وإجراء يترجم التوجه العربي لإبراز الشخصية الوطنية الفلسطينية من خلال قرارات عملية "وجاء قرار الأردن مسايراً للمطالب العربية ومطلب منظمة التحرير الفلسطينية ومتجاوباً معها".

وقال إنه "شيء مؤلم أن تقوم دول عربية بإزعاج أبناء الشعب الفلسطيني الذين يحملون جوازات سفر مؤقتة وتتعامل معهم وكأنهم شعب من كوكب آخر وكأنه عليهم علامة استفهام". [11]

لقد تحدى الفلسطينيون غربتهم ومعاناتهم من أجل البقاء وتوجهوا نحو الإنجاب والتعليم، حتى أصبحوا كما لاحظ دون بيرتز في مقالته حول الانتفاضة:

"الشباب الفلسطينيون هم من بين أفضل الجماعات تعليماً في الشرق الأوسط، وكانت لديهم فرص محدودة لتطبيق مهاراتهم العالية وخصوصاً عند عودة الآلاف من العمال من دول الخليج عقب تخفيض إنتاج النفط في أوائل الثمانينات. وعدد السكان في المناطق المحتلة يزداد بنسبة سريعة، أسرع مما توقعه خبراء السكان من الفلسطينيين والإسرائيليين لينتج اكتظاظاً في القرى والمدن ومخيمات اللاجئين". [12]

في الغرب وجد الفلسطينيون أنفسهم في حالة حصار دائم في العمل والتعليم والتنقل وممارسة حقهم في التعبير عن ذاتهم، وقد كبر حجم المعاناة حينما توزع الفلسطينيون في المنافي... وتأثر الفلسطينيون من خلال مواقع هجراتهم في البلدان العربية والأجنبية.

وكان لذلك جوانبه السلبية. كانت مظاهر الغربة بين الأهل واضحة ، ويراها البعض ضرورية.. فكان الفلسطينيون في مواقفهم تحت الوصاية لاجئين في مخيمات كانت هي مصانع للثورة وكان أشد ما عاناه الشعب الفلسطيني في غربته عن الوطن ما يمكن أن نسميه بظلم ذوي القربى، فقد كانت الثورة الفلسطينية تعبيراً عن حلم عربي كبير في العودة، وكان التدخل العربي بها من جانب يمكن أن يفسر بالمسؤولية القومية للأقطار العربية تجاه فلسطين،

ولكن الجانب الثاني كان يمكن تفسيره بتنازع المصالح القطرية على حساب المصالح القومية.

وهكذا نجد أن حجم المعاناة الفلسطينية أخذ بعداً من المعاناة الفلسطينية اليومية للمعيشة، وأخذ بعداً من الإحباطات العربية، ويجسد أحمد دحبور هذه المعاناة المزدوجة في قصيدته المشهورة " راوية المخيم " ، يقول فيها:

اسمع، أبيت اللعن، راوية المخيم

افتح له عينيك، وافهم:

هذي الخرائب، والمجاعة، والخفوت

هذي (الإعاشة) والصدى الخاوي، وأشباح البيوت

فيها كبرتُ

بها كبرت،

وفوضتني عن جهنم

أن أسكن اللهب السليط على خيوط العنكبوت

ومهمتي ألا أموت

ولقد بلوت الموت دهراً في المخيم

وبقيت حياً

حاربت، في شطرنج ذي القربى،

فهدم قلعتي فيلي الملجم

وبقيت حياً

عشرين حوجلة سقيت من الدم المر المسمم

وبقيت حياً

لأشد أمعائي خيوطاً في الربابة

لأسل صوتي جارحاً، كالجوع، مجلواً نقياً:

"الجوع لا يقوى عليها

"والموت – سخا الموت – ليس يرد عن وطن شبابه.[13]

كل الهموم الفلسطينية، وكل أشكال المعاناة تحدد اتجاهاً واحداً للفلسطيني، ترسم له طريقاً وحيداً، وحلماً وحيداً وهو طريق الحرية. إن درب الحرية للفلسطيني هو درب معاناة باهظة التكلفة يدفع ثمنها الشهداء والسجن والتعذيب في السجون ونسف الدور والأبعاد إلاّ أن للحرية بابها ذاك الذي قال عنه شوقي:

وللحرية الحمراء باب   بكل يد مضرجة يدق

هذا الباب هو الذي ترقب الشاعرة فدوى طوقان أن يفتح مصراعيه... كي يهرب ليل الاحتلال ويعم ضياء الحرية والنصر... تقول في قصيدة بعنوان حريتي:

حريتي حريتي حريتي

سأظل أحفر اسمها وأنا أناضل

في الأرض في الجدران في الأبواب في شرف المنازل

في هيكل العذراء في المحراب في طرق المزارع

في كل مرتفع ومنحدر ومنعطف وشارع

في السجن في زنزانة التعذيب في عود المشانق

رغم السلاسل رغم نسف الدور رغم لظى الحرائق

سأظل أحفر اسمها حتى أراه يمتد في وطني ويكبر

ويظل يكبر

حتى يغطي كل شبر في ثراه

حتى أرى الحرية الحمراء تفتح كل باب

والليل يهرب والضياء يدك أعمدة الضباب.[14]

لقد ظل هاجس الغربة عن الوطن يشكل معاناة يتمنى معها لو يعود إلى الوطن ويدفن فيه... لكن هذا الهاجس وهذه المعاناة والأمنيات من الصعب تحقيقها ، فهذا الشاعر الشهيد علي فودة يناجي ربَه بقوله:

حرام أن أموت بغربتي فارحم

وخذني حبة القمح التي بحواصل الأطيار قد نامت

وفي قنيّر وادفني

فلن أندم[15]

المحور الثالث: العودة – الأمل

تظل فكرة العودة إلى الوطن هي أكبر من حلم، إنها تمثل الأمل الذي يحرك الفلسطيني ويدفعه للنضال من أجل وطنه، إنها الأمل بالانتصار، رغم كل أشكال المعاناة التي واجهها ويواجهها، ففكرة العودة هي هاجس الفلسطيني الذي لا يتنازل عنه. وكما يقول فواز تركي:

"من النادر أن تجد فلسطينياً يقول لك متى سيعود إلى فلسطين، لكن من الأندر أن تجد فلسطينياً يقول لك إنه لن يكون هناك عودة. إن فكرة العودة حتمية في الوجود الفلسطيني، وهي مغامرة عاطفية لروحه وإيمانه".[16]

هذه المغامرة العاطفية يعبر عنها الشاعر بقوله:

عيني يا عيني يا عيني يا وطني

أتحامل، هذا الفجر، على جرحي وأجيء

في وجهك أرضك مثخنة... وأجيء

أحرقت ورائي ما وهبته بحار التيه من السفن

وقصدتك أنده في الطرقات:

باسم الفقراء التواقين تحرك يا وطني

فأنا المطعون بكل حراب الأهل على كل الساحات

وأنا المتناثر لحمي بين الأسنان المنثورة في المدن

أنكمش بالفرح الآتي وأضيء

يتلملم جرحى بالفقراء، ويأمرني، فأضيء

وأحارب حتى تصبح يا وطني وطني.(17)

إن الأمل بالعودة للأرض ليس مثاراً للتساؤل... لقد كانت فكرة العودة دوماً أسلوباً للتعبئة. ولأن العودة إلى الوطن هي أمل لا ينتهي لذا لم يكن غريباً أن تجد كثيراً من أسماء أبناء الفلسطينيين كلها ترتبط بالوطن وبفكرة العودة أو وسيلة العودة كما يرون: لهذا نجد أسماء عديدة للأبناء مثل عائد وعائدة وعودة وكفاح ونضال وثائر وبيسان وحيفا... وأخيراً انتفاضة.

إن العودة عند الفلسطيني هي الفرح الحقيقي ، الذي سيتحقق بالفداء ، وهذا هو صوت حسن البحيري ينشد لنا:

وطني، وأمجادي على ثغر الزمان تبسم

ولعودتي يوم به عرس العلا يترنم

والثأر في صدري براكين اللهيب تزمزم

قسماً برايات الفداء هفت إليها الأنجم

بترابك الطهري وهو على اليهود محرم

لن يستقروا فوق أرضك والعروق بها دم[18]

لقد غنى شعراؤنا للعودة كثيراً، إنها كانت حافزاً للهمم وباعثة للأمل أن الفلسطيني يعيش في منفاه وهو يحلم بالعودة، ويعلم أطفاله أنهم سيعودون يوما ما وهذا في حد ذاته ديناميكية تدفع إلى العطاء. لقد كان أول نشيد وطني فلسطيني لمنظمة التحرير يقول:

عائدون عائدون إننا لعائدون

فالحدود لن تكون والقلاع والحصون

فاصرخوا يا نازحون إننا لعائدون[19]

قبل هذا النداء كان شاعرنا الكبير أبو سلمى قد غنى لأمل العودة قائلاً:

غداً سنعود والأجيال تصغي إلى وقع الخطى عند الإياب

نعود مع العواصف داويات مع البرق المقدس والشهاب[20]

كان نداء العودة هو خيط يوحد الفلسطينيين في المنافي وفي ظل الاحتلال لقد غنّى شعراؤنا في ظل الاحتلال للعودة... وكانوا بانتظار إخوانهم... إنه الحلم الذي يوحدهم، يقول توفيق زياد:

أحبائي ... برمش العين

أفرش درب عودتكم،

برمش العين

وأحضن جرحكم

وألم شوك الدرب،

بالكفين...

ومن لحمي

سأبني جسر عودتكم،

على الشطين[21]

وفي قصيدة لسميح القاسم تصبح الآلام رمزاً للوطن تنتظر عودة ابنها الذي يكتب لها رسالة العودة يقول فيها:

سأعود إلى حضنك

أبني عليّة

أتزوج، أنجب

ذريّة

وأخفف من حزنك[22]

ويتضح هنا كيف أن العودة مصاحبة بالإنجاب، الذي يخفف الأحزان عن الأم، إنه يمثل معنى الاستمرار والمستقبل بأجيال جديدة... وهو في حد ذاته جزء من التحدي الديمغرافي للكيان الصهيوني.

لقد كبر أطفال فلسطين، وهم يرددون نشيد "سنعود" الذي أنشده أبو سلمى وهتفوا معه:

غداً سنعود والأجيال تصغي	إلى وقع الخطى عند الإياب
نعود مع العواصف داويات	مع البرق المقدس والشهاب
مع الأمل المجنح والأغاني	مع النسر المحلق والعقاب
مع الرايات دامية الحواشي	على وهج الأسنة والحراب[23]

المحور الرابع: الصمود – الثورة

ظل الشعراء هم صوت الثورة الصادق، وضميرها الذي يعبر عن حلم الشعب... لقد استمر الشعراء في ممارسة دورهم التحريضي الذي يحض على الصمود ويدعو إلى الثورة ويطالب باستمرارها والحفاظ عليها.

لقد كانت مهمة الشعراء كبيرة... إنهم يهونون من المعاناة، ويخففون من آلام الفقد، وينفخون في الأرواح الآمال للصمود في وجه الاحتلال وأشكال القهر والمعاناة في المنافي العربية.

لقد كان الشعر الفلسطيني في الأرض المحتلة يمثل الريادة للوعي الوطني والصمود في وجه المحتل.

وفي قصيدة (هنا باقون) لتوفيق زياد تصوير لهذا الدور الريادي والتحريضي الذي يقوم به الأدب في صنع جيل صامد ثائر:

هنا على صدوركم، باقون كالجدار

نجوع... نعرى... نتحدى...

ننشد الأشعار

ونملأ الشوارع الغضاب بالمظاهرات

ونملأ السجون كبرياء

ونصنع الأطفال... جيلاً ثائراً... وراء جيل

كأننا عشرون مستحيل

في اللد، والرملة، والجليل.

إنا هنا باقون.

فلتشربوا البحر

نحرس ظل التين والزيتون

ونزرع الأفكار، كالخمير في العجين.

برودة الجليل في أعصابنا

وفي قلوبهم جهنم حمرا

إذا عطشنا نعصر الصخرا

ونأكل التراب إن جعنا... ولا نرحل.

وبالدم الزكي لا نبخل لا نبخل لا نبخل.

هنا لنا ماض وحاضر ومستقبل.[24]

وكلما ازدادت المعاناة تنامى الوعي وعظم الانتماء، فإن الصمود لشعبنا يكبر ... وتكبر معه إرادة الصمود الذي يعني للفلسطينيين رفضاً للاحتلال.. وتصبح مواجهة الاحتلال أمراً اعتيادياً، ومن خلال هذا يتنامى الصمود ليصنع مداً للثورة المتصلة التي تقدم أجيالاً من أبنائها الذين يقاتلون...يقول

"قل لا يموت اللاجئون

خيم... وليل مشمس

فأس... ورأس يابس

زنزانة... ويقاتلون

قل: لا يموت اللاجئون

قل: هل أتاك دم من النبأ الفلسطيني؟

أشهد أن حرفته التحمل،

أنه المطعون حيث يكون".[25]

وهكذا يصبح النضال من أجل فلسطين شكلاً آخر من أشكال الانتماء الذي ينمو مع مقدار العطاء... وتصبح أشكال الصمود والقتال من أجل فلسطين سبيلاً لارتباط أكبر عند الفلسطينيين... إن عاماً متواصلاً من العطاء لانتفاضة شعبنا المباركة في الأرض المحتلة في ظل ظروف قاسية... تفسر معنى الانتماء، ومعنى تناميه كلما ازداد العطاء، هذا المعنى الذي عبر عنه أبو سلمى بقوله:

كلما حاربت من أجلك أحببتك أكثر

أي تراب غير هذا الترب من مسك وعنبر

أي أفق غير هذا الأفق في الدنيا معطر

كلما دافعت عن أرضيك عود العمر يخضر

وجناحي يا (فلسطين) على القمة ينشر.[26]

ويصبح الفدائي الذي يحمل روحه على راحته هو زاد الثورة وهو وقود المقاومة، ويقوم الشعر بغرس روح التضحية والفداء بتمجيد الفدائي الذي تحدث بلسانه الشاعر الشهيد عبد الرحيم محمود:

سأحمل روحي على راحتي	وألقي بها في مهاوي الردى
فإما حياة تسر الصديق	وإما ممات يغيظ العدا[27]

ويغني الشاعر الشهيد كمال ناصر للفدائي، الذي قدّم حياته في سبيل وطنه ، لأن موته يعني حياة للوطن، يقول:

حبيبي

إذا ما أتاك الخبر

وجاء الرفاق إليك

وفي مقلتيهم عليك، بقايا حذر

ترفق بهم، وابتسم للجميع

فموتي حياة للجميع

سفحت ربيعي خريفاً، ليبقى الربيع.[28]

إن الفدائي هو العطاء الذي به تجسدت كرامة الفلسطيني، وبه كذلك تجسدت هويته النضالية والوطنية ويصبح الفدائي عند هارون هاشم رشيد هو رمز لكل الوطن بأبنائه وأرضه وهضابه وقراه ومقدساته، يقول بلسان الفدائي:

أنا آت

أنا الأغوار

والهضبات والقمم

أنا كل فلسطين التي

سرقوا... التي ظلموا

أنا أقداسها ثارت

أنا المهد أنا الحرم

أنا كل قراها كل ما

هدوا وما هدموا

أنا كل اليتامى والأيامى

والثكالى كل من ظلموا

أنا اسمي فدائي... أنا

يا ألف ويلهم.[29]

استطاع الشعر أن يغرس في الأجيال معنى التضحية والاستشهاد فالفداء هو عطاء، به لا تنتهي حياة المرء لأنه يهب الحياة للوطن... ولذا فإن الفدائي الذي يستشهد، تكون دماؤه نداء لغيره لإكمال المسيرة... وهذا صوت معين بسيسو يهتف بلسان الفدائي فيقول:

أنا من سقطت فخذ مكاني يا رفيقي في الكفاح

واحمل سلاحي لا يخفك دمي يسيل من السلاح

وانظر إلى شفتي أطبقتا على هوج الرياح

وانظر إلى عيني أغمضتا على نور الصباح

أنا لم أمت أنا لم أزل أدعوك من خلف الجراح.[30]

المحور الخامس: العروبة – الانتماء

في قصيدة للشاعر الإسرائيلي أبشلوم كور يقول:

في حديثي مع آيريت

توصلنا إلى نتيجة

أننا يجب أن نقاتل

يجب أن نقتل

كل الذين يبحثون لهم عن وطن.

يجب أن نقتل

حتى يكون لنا وطن

من النهر إلى النهر.[31]

هذه الأطماع الصهيونية التي تمتد من النيل إلى الفرات، تحمل معها العقيدة الصهيونية المتسمة بالعنف والتوسع والتحدي للأمة العربية. وتحمل كذلك معها هذه الروح المتعطشة للدماء، والتي اقترفت جرائم لا تحصى ضد الشعب الفلسطيني، بدءاً بدير ياسين وقبيا ومروراً بصبرا وشاتيلا. وفي مواجهة هذه الجرائم التي ترمي إلى طمس الشخصية الفلسطينية فإن الشعب الفلسطيني واجه ذلك بالانتماء إلى الشخصية العربية الفلسطينية في مواجهة الشخصية الإسرائيلية الغاصبة.

وفي قصيدة لسميح القاسم بعنوان "ما زال" يقدم صورة مكثفة لمعاناة الفلسطيني، وأمله في الانتصار.ويلجأ لتصوير ذلك باستحضار صورة من التاريخ لأسلافه، الذين فتحوا بسيوفهم العالم ، ودماؤهم ما زالت تقطر منه وهو يأمل باستمرار ذلك التاريخ المجاهد الوضيء:

دم أسلافي القدامى لم يزل يقطر مني

وصهيل الخيل ما زال، وتقريع السيوف

وأنا أحمل شمساً في عيوني وأطوف

إن امتداد التراث بما فيه من أمجاد لدى الشاعر، هو الذي يجعله يحمل معه هذا التراث الفلسطيني ليتخطى جراحه، حيث يحمل شمساً في عينيه ليقتحم الدجى وليست هذه الشمس بنورها سوى عدالة قضيتة، التي ترد عدالتها إلى التاريخ ذاته، وإلى دماء أسلاف الشاعر التي روت هذه الأرض.[32]

إن التراث في الأدب الفلسطيني عامة والشعر خاصة يشكل معيناً يمتاح منه الشعراء، لأنه يقوي بالنسبة لهم علاقات الارتباط بالوطن... إنه عندهم تحذير لوجودهم الذي يرتبط بعناصر الثقافة العربية وتاريخها، وهو الذي يرتبط بعناصر الثقافة الشعبية في فلسطين، وحيث تصبح الحكاية الشعبية، ويصبح الزيت والزعتر شارات إلى الانتماء وعلى خصوصية هذا التراب الذي يربط الشعب بالتاريخ وبالوطن... هذا الانتماء يعني للأديب الفلسطيني معادلة تغور في لا وعيه لأنه يعزز انتماءه وهذا الانتماء الذي يحدد هويته العربية.

ولذا كانت صرخة محمود درويش في وجه الاحتلال "أنا عربي" تجسيداً للانتماء الرافض، وتجسيداً لروح الثورة التي يحملها هذا الانتماء:

سجّل

أنا عربي

ورقم بطاقتي خمسون ألفا

وأطفالي ثمانية

وتاسعهم سيأتي بعد صيف

فهل تغضب...

إذن

سجّل برأس الصفحة الأولى

أنا لا أكره الناس

ولا أسطو على أحد

ولكني إذا ما جعت

آكل لحم مغتصبي

حذار... حذار... من جوعي

ومن غضبي.[33]

تشكل العروبة بالنسبة للفلسطيني مقوماً أساسياً للانتماء... لقد كانت معادلة الصراع، تمثل العربي في مواجهة الصهيوني وهذه المعادلة ما زالت عنده هي محور الصراع... الفلسطيني عربي في ثقافته... عربي في انتمائه... عربي في نضاله... بل وعربي في شتاته.

ولهذا كان التوجه القومي عند الفلسطينيين عميقاً، والتزامهم به قوياً... مهما تنوعت اتجاهاتهم الفكرية وانتماءاتهم السياسية، فالعروبة نبض في عروقهم، يقول سميح القاسم:

مثلما يبسم في ود غريب لغريب

مثلما يرجع عصفور إلى العش الحبيب

مثلما يحمل تلميذ حقيبة

مثلما تعرف صحراء خصوبة

هكذا نبض في قلبي العروبة.[34]

والعروبة هي انتماء للتاريخ وهي نداء لتحقيق التحرير والنصر، يقول هارون هاشم رشيد:

صلاح الدين في أعماقي يناديني

وكل عروبتي للثأر... للتحرير تدعوني

وراياتي التي طويت على ربوات حطين

وأطفالي هناك... هناك في عمر الرياحين

....

تنادي الأمة الكبرى... وتهتف بالملايين

تقول لهم إلى القدس... إلى قبلة الدين

إلى حرب تدك الظلم... ترهق روح صهيون.[35]

إن الانتماء العربي هذا كان يحمل معه جانباً آخر من المعاناة الفلسطينية من الواقع العربي الذي احترف الهزائم، واحترف الصمت إزاء النضال الفلسطيني ولهذا يتساءل أحد شعرائنا:

لمن أنت يا وطني العربي؟

اتسعت فكنت البلاد جميعا،

وضقت فما أنت لصف:

جياعك ،

أو بائعيك،

لمن أنت يا وطني؟

ضمك الخوف واحترفتك الهزائم حينا،

وأصغيت للغيظ حينا،

وها أنا... حرقة الغيظ فيك:

أنا ضد من باع وابتاع واكتشف المجد في خلوة،

ضد كل الثمار التي بعد لم تغص في حلق من يأكلونك،

ضد الجنون الذي ليس يكفي،

لمن أنت؟[36]

وفي قصيدة أخرى للشاعر نفسه فإنه ينعى بمرارة الرصاص العربي الذي توجه إلى صدور الفلسطينيين بدلاً من صدور الأعداء:

قلت لكم مرارا

إن الطوابير التي تمر ...

في استعراض عيد الفطر والجلاء.

(فتهتف النساء في النوافذ انبهارا).

لا تصنع انتصارا

إن المدافع التي تصطف على الحدود، في الصحاري

لا تطلق النيران... إلا حين تستدير للوراء.

إن الرصاصة التي ندفع فيها... ثمرة الكسرة والدواء:

لا تقتل الأعداء

لكنها تقتلنا... إذا رفعنا صوتنا جهارا

تقتلنا، وتقتل الصغارا[37]

ولا شكّ في أن خيبة الأمل من الوضع العربي عززت لدى البعض الانتماء الفلسطيني، وعلى سبيل المثال فالصمت العربي في حرب بيروت 1982 وأحداث طرابلس جعل كثيراً من الشعراء يندبون ذلك الموقف العربي المتخاذل... وقبل

أشهر قليلة من وفاته يكتب معين بسيسو قصيدة وهاجس الموت الفلسطيني يطارده ويكتب في قصيدة صارخاً ونادباً وغاضباً أحداث طرابلس الدامية:

الآن تعرف أن منشوراً

بحجم الكف

مكتوباً برمش العين

في نابلس

أبقي من جرائدهم مطرزة

بأسلاك الذهب.

الآن نعرف أن هذا الصمت

ذا الأشواك من شيم العرب[38]

إلاّ أن الشاعر ذاته الذي يغضب من الصمت الرسمي العربي ومن الصمت المفروض على الجماهير العربية، يجد صورة أخرى من التضامن الجماهيري بين الشعبين الفلسطيني واللبناني يعبر عنها في قصيدة إلى جدران بيروت، تصوّر المعاناة المشتركة والمصير المشترك:

هنا ...

متراسنا هنا

وهذه الطيور في سمائكم،

أطفالكم، أطفالنا...

رفاقنا

نقسم الرصاص في حواصل الطيور،

بينكم وبيننا...

حبات قمح

حبة لكم وحبة لنا...

متراسنا هنا

نقص بالأصابع المنديل فوق جرحنا

فقطعة لجرحكم،

وقطعة لجرحنا

أطفالنا سيحملون كيس رملكم،

أطفالكم، سيحملون كيس رملنا(39)

كلمة أخيرة:

إن الأدب له دور ريادي، والشعر بخاصة له مسؤولية تحريضية ومسؤولية طليعية تقتحم مجالات تتسم بالنبوءة والتعبير عن تطلعات الناس وآمالهم. إن الشعر الفلسطيني شعر مقاتل وشعر تنبؤي وشعر تحريضي. إنه يرفع من معنويات الناس فيشعرون بأهمية الانتماء للوطن والفخار به، والاستعداد للتضحية من أجله... وهو يفضح أشكال التعسف والاضطهاد والعنصرية والصهيونية... وهو يزرع في النفوس روح الانتماء والصمود والتحدي.

لقد كان واضحاً هذا الدور الريادي لدى أدبائنا، بل وقد عبر شعراؤنا عن هذا الدور — المسؤولية — بوضوح في كتاباتهم وأشعارهم.

إن مسؤولية الشعر عند معين بسيسو لم تكن تحريضية فحسب، إنها مسؤولية طليعية لاقتحام آفاق جديدة لدى الجماهير ترفع مستوى وعيهم وذوقهم الفني. وفي آخر حوار له مع مجلة فلسطين الثورة قبل وفاته يحدد معين بوضوح مهمة الشاعر بقوله:

"ومهمة الشاعر ليست فقط مهمة السياسي، أي أن يكون في حدود الآفاق الجماهيرية، بل عليه أن يفتح آفاقاً جديدة للجماهير. وفي الأدب كما في السياسة على الكاتب والشاعر الطليعي أن لا يكون في تلك الحركة الجماهيرية وإلا تحول الشعر إلى شكل من أشكال الديماغوجية وعملية الخداع والتضليل للجماهير نفسها. بل يجب على الشاعر والكاتب أن يكون في مقدمة النضال الجماهيري بكل ما يملك من قوة إبداع".[40]

لقد كان واضحاً الدور المقاتل للشعر الفلسطيني في الأرض المحتلة. كان واضحاً في مهمته التي تصورها الشعراء، فالشعراء كالسكاكين تدمي الأعداء... يقول توفيق زيّاد:

وآكل حائط الفولاذ

أشرب ريح تشرين

وأدمي وجه مغتصبي

بشعر كالسكاكين[41]

ومثل هذه الرؤية نجدها لدى سميح القاسم الذي يرى في قصيدته "أعلنها" أن بقاء الكلمات العربية والأغاني الشعبية والأشعار سوف تكون جزءاً من الحرب في وجه الأعداء ولذا يعلن في ختام قصيدته:

أعلنها... وليشبع من خبر العار

الجوف الجبناء... وأعداء الشمس

ما زالت لي... نفسي

وستبقى لي... نفسي

وستبقى كلماتي... خبزاً وسلاحاً في أيدي الثوار[42]

وقد عبر الشاعر حنا أبو حنا باعتزاز عن قوة الشعر وتأثيره في قصيدة عنوانها يدل على مضمونها "نار القصيد"، يقول فيها:

شرف لشعري أن يقض

مضاجع الخصم اللدود

فاعجب لشعر يستثير الرعب

في مهج الحديد

أقوى من السجن المزنّر

بالعساكر والسدود

أقوى وأصلب من حشود علوجهم

أبدأ نشيدي[43]

إن أربعين عاماً من الغربة، والمعاناة والتشتت والحروب المتصلة ضده لم تستطع أن تطمس شخصيته... إنها عملت باعتبارها محركات لتغذية انتمائه الذي جسده الأدب، انتماءً عربياً لوطن اسمه فلسطين، وكانت فلسطينية الانتماء هوية انتماء لوطن محتل هوية وطنية حقاً: فلسطين في مواجهة كيان غاصب دخيل اسمه إسرائيل... إن الانتماء الوطني لفلسطين يعني انتفاء لوجود ذلك الكيان الغاصب ولشرعيته.

ولهذا كان الإعلان عن فلسطينية الفلسطيني هو مصدر للإعلان عن الأمل والارتباط بالأرض والوطن، إعلان عن الصمود والثورة وانتماء للعروبة التي تحتضن الوجود الفلسطيني وتعطيه معنى لوجوده في مواجهة الصهيونية. وهكذا يعلن شاعر بكل فخار فلسطينيته فيقول:

- فلسطيني أنا اسمي فلسطيني
- نقشت اسمي على كل الميادين
- بخط بارز يسمو على كل العناوين
- حروف اسمي تلاحقني، تعايشني تغذيني
- تبث النار في روحي وتنبض في شراييني[44]

ولدى شاعر آخر تصبح فلسطينيته تجسيداً للتاريخ، وتصبح المعاناة والغربة له ليست إلاّ مزيداً من الانتماء... ويصبح حلم الشاعر أن يفنى فلسطينياً ويشاء له القدر أن يستشهد وهو يدافع عن ثورة شعبه التي تسعى لاستعادة الوطن. يقول الشاعر الشهيد علي فودة:

- فلسطيني... فلسطيني
- أقول لكم بأني مثل جدّي
- مثل زيتوني فلسطيني
- فلسطيني على مر الدهور أنا فلسطيني
- فلا شرق ولا غرب
- ولا الأيام تشقيني
- إذا ما الكرب عشعش في شراييني
- فلسطيني
- ولن أنسى بأني عاشق أبداً فلسطيني
- وأني قد ولدت... درجت... ثم حلفت بأن أفنى فلسطيني[45]

لقد كان الشعر مجرد وسيلة من وسائل النضال التي عملت على بلورة الهوية الوطنية الفلسطينية... ولكن الوسائل التي أسهمت في بلورة هذه الهوية متعددة.

ولتحديد هذه الوسائل والعوامل التي فعلت ذلك فإن هذا يحتاج إلى دراسة لما يلي:

1. دراسة فن المقالة في الصحافة وإسهامها في نشر الوعي الوطني لدى الجماهير.
2. دراسة مضامين الكتب الفكرية التي تناولت القضية الفلسطينية من جوانبها السياسية والاجتماعية والاقتصادية والثقافية.
3. دراسة أسلوب التنشئة الاجتماعية لدى الأسرة الفلسطينية ودوره في غرس الروح الوطنية والوعي بأبعاد قضيته الفلسطينية.
4. دراسة التراث الشعبي ودوره في بلورة الهوية الثقافية الفلسطينية.
5. دراسة الحالة الاجتماعية والسياسية لمعيشة الفلسطينيين في منافيهم مترامية الأطراف.
6. دراسة تأثير الثورة الفلسطينية ودورها في التربية السياسية ونشر الوعي، والانتماء للوطن.
7. دراسة أدبيات الثورة الفلسطينية وفنونها من غناء وموسيقى ورسم وغيره ودورها في بلورة الوعي لدى الجماهير الفلسطينية والعربية.

إن هذا الموضوع واسع ومتشعب ولذا فإنه يحتاج إلى كثير من الدراسات التي يمكنها أن تتناوله من مختلف الزوايا التي أسهمت إسهاماً مباشراً في تجسيد الهوية الفلسطينية باعتبارها هوية وطنية نضالية تمثل روح الجماهير العربية وارتباطها بأرض فلسطين.

لقد تبلورت الشخصية الوطنية الفلسطينية هوية نضالية من خلال المعاناة والانتماء والنضال وهي ما زالت تناضل من أجل تحرير الوطن ليعود لفلسطين وجهها العربي...

الهوامش

1. رشاد أبو شاور: الرب لم يسترح في اليوم السابع، اللاذقية، دار الحوار للنشر والتوزيع، 1986، ص156.
2. أحمد شاهين: "حجم المشاركة العربية في حرب لبنان ودوافعه" مجلة شؤون فلسطينية، الأعداد 129- 130- 131/1982.
3. محمود درويش: "ورقة إلى دفتر طوكيو: الكتابة في درجة الغليان"، شؤون فلسطينية، عدد 35 تموز/يوليو 1974، ص 40.
4. Fawaz Turkey: Meaning no Palestinian History; Text and Context. A.S.Q Volume 3, No 4, Fall 1981, p. 371.
5. انظر: محمد القاضي: الأرض في شعر المقاومة الفلسطينية، ليبيا، الدار العربية للكتاب، 1982.
6. محمد القاضي: المصدر نفسه، ص 94.
7. محمود درويش: ديوان أعراس، بيروت، دار العودة، ص 83- 84.
8. فدوى طوقان: الليل والفرسان، بيروت، دار الآداب، 1969، ص 102- 103.
9. عبد الله الشحام: الأرض تاريخي وبداك جغرافيتي، ص 91- 92.
10. محمود درويش: يوميات الحزن العادي، بيروت، دار العودة، ط2، 1978، ص ص 57- 58.
11. جريدة الخليج، الشارقة، 11 سبتمبر 1988.
12. Don Peretz (Intifadeh: The Palestinian Uprising) Foreign Affairs Volume 66, Summer 1988, p.p. 965-966.
13. أحمد دحبور: الأعمال الكاملة، بيروت، دار العودة، 1983، ص 213- 214.
14. مجلة الجيل: مجلد 3، أعداد 7- 12، تموز – كانون أول 1982.

15. علي فودة: فلسطيني كحد السيف، بيروت، منشورات عويدات، 1969، ص 109.
16. فواز تركي: مصدر سبق ذكره، ص 381.
17. Fawaz Turkey: Meaning no Palestinian History; Text and Context. A.S.Q Volume 3, No 4, Fall 1981, p. 381.
18. حسن البحيري: لفلسطين أغني، دمشق، مطبعة دار الحياة، 1979، ص 110.
19. هارون هاشم رشيد: عصافير على أغصان القلب، مختارات، القاهرة، دار الفتى العربي، 1985، ص 68.
20. أبو سلمى: عصافير على أغصان القلب، مختارات، ص 57.
21. توفيق زيّاد: المصدر السابق، ص 64.
22. سميح القاسم: الأعمال الكاملة، بيروت، دار العودة، 1973، ص 180.
23. أبو سلمى: مصدر سبق ذكره، ص 57.
24. توفيق زيّاد: المصدر السابق، ص ص 18- 19.
25. أحمد دحبور: الأعمال الكاملة، ص 574.
26. أبو سلمى: مصدر سبق ذكره، ص 146.
27. عبد الرحيم محمود: عصافير على أغصان القلب، ص 170.
28. كمال ناصر: عصافير على أغصان القلب، ص 163.
29. هارون هاشم رشيد: المصدر السابق، ص 170.
30. معين بسيسو: الأعمال الكاملة، ص 51.
31. خليل السواحري: حرب الثمانين يوماً في الشعر الإسرائيلي، عمان، دار الكرمل للنشر والتوزيع، ص 18، 19.
32. صالح أبو إصبع: الحركة الشعرية في فلسطين المحتلة، بيروت، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، 1979، ص 97.
33. محمود درويش: عصافير على أغصان القلب، مختارات شعرية.

34. سميح القاسم: الأعمال الكاملة، ص 500.

35. هارون هاشم رشيد: عصافير على أغصان القلب، ص 120.

36. أحمد دحبور: الأعمال الكاملة، ص 317.

37. احمد دحبور: المصدر نفسه، ص 210.

38. معين بسيسو: فلسطين الثورة، العدد 494، سنة 1984.

39. معين بسيسو: الأعمال الكاملة، ص 639.

40. معين بسيسو: مقابلة مع مجلة فلسطين الثورة، العدد 494، سنة 1984.

41. توفيق زيّاد: عصافير على أغصان القلب، ص 40.

42. سميح القاسم: الأعمال الكاملة، ص 479- 480.

43. حنا أبو حنا: عصافير على أغصان القلب، ص 72.

44. هارون هاشم رشيد: مصدر سابق، ص 120.

45. علي فودة: فلسطيني كحد السيف، بيروت، منشورات عويدات، 1969، ص 7- 8.

الباب الثاني:

في الشعر المقاوم

الفصل الأول: أربعة أصوات تغني لفلسطين

الفصل الثاني: المفارقة واستدعاء التراث في قصيدة للمناصرة

الفصل الثالث: محمود درويش والتضاد التعبيري

الفصل الرابع: توفيق زيّاد والبعد الدرامي في أشعاره

الفصل الخامس: الشعر العربي والانتفاضة الأولى

الباب الثاني

الفصل الأول

أربعة أصوات تغني لفلسطين :[2]

[عبد اللطيف عقل و محمود الدسوقي و ليلى علوش ويعقوب حجازي]

مدخل :

كتب نزار قباني يقول:

"شعراء الأرض المحتلة

يا أجمل طير يأتينا في ليل الأسر..

يا حزناً شفاف العينين

نقياً مثل صلاة الفجر..

يا شجر الورد النابت في أحشاء الحجر..

يا مطراً ينزل رغم الظلم ورغم القهر..

نتعلم منكم كيف يغني الغارق في أعماق البئر..!"

---

[2] دراسة نشرت فيي كتاب (طرابلس : المؤسسة العامة للنشر والتوزيع 1978) لذلك نتحدث عن الشعراء الشباب الذين كانوا كذلك قبل نحو خمس وثلاثين سنة وتم المحافظة على الدراسة وإعادة نشرها كما هي التزاما بالأمانة العلمية .

وفجأة كفت كل الأبواق عن النفخ وقارعو الطبول عن دقها وتوقف الراقصون على أنغام شعر المقاومة عن رقصهم.

لقد خرجت الحناجر العربية تزغرد في كل مكان لطلقات المقاومة ، وبعد عام 1967م كانت رايات الفدائيين تعلو كل بيت، فبينما كنا خارجين مذهولين من هزيمة حطمت الوجود وأغلى الأمنيات، رأينا المقاومة حلماً جميلاً آملاً وواعداً فتشبثنا بها وألفينا من حجر الأسر أصواتاً تغني للحياة وللوطن ولانتصار الثورة، وتتحدى جبروت العدو، فارتمينا على أعتاب حناجرها، نتعلم كلماتها، نقدسها ونرفعها شعارات وأهازيج للانتصار ورايات خافقة في دنيا الكلمة..

وأخذت المجلات والصحف تتسابق في نشر قصائد محمود درويش وسميح القاسم وتوفيق زياد وسالم جبران وكأن ميلادهم الشعري جاء مع الهزيمة، ومع انطلاقة المقاومة. وخرجت أقلام النقاد والأدباء تتحدث عن شعراء الأرض المحتلة بهالة من العظمة والإبداع المتفوق وتهلل لهم وتحيطهم بالقدسية، مما حدا بشاعر عظيم من شعراء الأرض المحتلة أن يقف في وجه هؤلاء النقّاد صارخاً: "أنقذونا من هذا الحب القاسي". ويقول:

("نعترف، بصراحة العاشق العصري، بأننا لسنا أهلاً للتقديس بزمان لا يجوز فيه التقديس كما لا يجوز فيه اليقين المطلق. إن أخطر ظاهرة تستوقفنا في هذا السياق، هي أن وتيرة الحب قد أوصلت بعض المراقبين الأدبيين بالعالم العربي إلى محاولة وضع شعرائنا ليس في مكان أوسع منهم فقط، وإنما إلى محاولة وضعهم على امتداد مساحة الشعر العربي المعاصر بحيث يغطونها كلها".

إن ما في هذه المحاولة من خطورة يتعدى حدود المبالغة الفنية والتأكيد غير المسؤول للواقع إلى الإعتداء على حركة التاريخ، ولا يغفر لهذا الموقف كونه

ناشئاً عن نية طيبة وحماس حقيقي وعطف عميق على ظروف الحركة الشعرية في بلادنا" (شيء عن الوطن ص28).

إذن فدرويش أدرك ما لذلك الاهتمام الموقوت من خطورة على حركة الشعر العربي بعامة والفلسطيني بخاصة، وكان محقاً في ذلك فإن مسألة الاهتمام بالشعر الفلسطيني ارتبطت ارتباطاً وثيقاً بالحدث السياسي، وماتت بانطفاء جذوته وكان من المفروض أن تكون المتابعة لتلك الحركة الشعرية دون اهتمام بالتوقيت المشروط بحركة المقاومة.

فالشعر بحد ذاته هو تعبير عن وجدان الشعب، والاهتمام بحركته إنما هو رهن بحركة شعبنا هناك...

ولكن ما جرى كان شيئاً آخر... فحتى دخول توفيق زياد عضواً في (الكنيست الصهيوني) لم يثر أدنى نقاش أو اهتمام من جانب الكتّاب والنقّاد، اللهم إلا رسالة لوم من معين بسيسو في مجلة الأسبوع العربي موجهة لتوفيق زياد.

والآن ماذا يكتب النقّاد عن شعراء الأرض المحتلة؟ بل ماذا يقولون عن الأرض المحتلة نفسها؟ لقد انحسر مد حركة المقاومة، وازداد ضغط قوى الرجعية، وأصبحت قوى الثورة العربية في مرحلة دفاع، وتهافتت دول المواجهة سعياً للحل السلمي ً.

وبعد أن كانت الجماهير تعيش مرحلة غليان وتفاعل ثوري وأمل بالنصر، أصبحت تعيش مرحلة اليأس الذي أسهمت في ترسيخه أجهزة الإعلام بتخطيط غريب قتل أشياء كثيرة في نفسية المواطن العربي. إذ استطاع أن يبدل كلمة الكيان الصهيوني بكلمة إسرائيل، الكلمة غير المقبولة،! وبعد أن كان العرب

يطالبون بتحريرفلسطين كلها وعودة اليهود من حيث جاؤوا، أصبحوا يطالبون بالتعايش معهم في دولة ديموقراطية.

وبعد أن كان الفلسطينيون يشكلون الأمل والثورة ، و يلاقون ترحيب الأبطال أصبحوا يلاقون الموت بدعاوى السيادة الإقليمية والدفاع عن النفس، في مجازر رهيبة.

وبعد أن كان العرب يطالبون بالتحرير الكامل أصبحوا يطالبون بإزالة آثار العدوان.

وبعد أن كان العرب لا يقبلون المفاوضات.. جلسوا في مؤتمر واحد وخيمة واحدة.

أربع ظواهر في شعر الأرض المحتلة:

في ظل هذا النكوص كله، يعيش أدباؤنا في فلسطين المحتلة، يرون أمتهم التي يتمثل بها الأمل والرجاء وهي تعاني من التفسخ والانحطاط في هذه المرحلة مما لا يحسد عليه، وهم يرون كذلك وضع شعبهم في الأرض المحتلة وقد أفرغ من قياداته وطاقاته الشبابية بعد هزيمة 1967 . وهم كذلك يلعقون مرارة الحياة الاقتصادية هناك، ويعايشون بألم تخطيط العدو الماكر لابتلاع طاقات العمال العرب بالأجور المرتفعة، وحرمانهم من العمل بأرضهم. وفي إطار حرب رمضان — تشرين 1973فإن ما قدمه الجندي العربي من بطولة وتضحية وانتصار أفسده السياسي بما قدمه من تنازلات.

في هذا الجو النفسي والسياسي والاجتماعي يعيش شعراء الأرض المحتلة، مشهوروهم الذين تعرفنا عليهم، وغيرهم من أصوات جديدة أو قديمة مجهولة، وفي إطار تلك الظروف العامة تجسدت في شعرهم ظواهر عديدة :

أولاً : الارتباط بالتراث الشعبي الفلسطيني

الارتباط بالتراث له ما يبرره ، ففي مواجهة محتل يحاول طمس الشخصية تكون العودة إلى الجذور والارتباط بها وربط الجماهير بها مسألة هامة كما يقول سميح القاسم:

"نحن جزء من هذا الشعب العربي، نمتلئ بأنغامه وأشعاره وأساطيره وحكاياته، نطورها لتصل إلى الحدث: الدخول إلى قلب الجماهير والتأثير فيها وإبداع شعر مثير جميل"(عن الموقف والفن- ص 55).

وقد أعلن توفيق زياد بصراحة حينما أوضح بأن معرفة الشباب والشعب بالتراث الشعبي هو أمر ضروري ليتربى على تقاليد إنسانية ووطنية.

إذ يقول:

"إنما ننظر إلى الأدب الشعبي من وجهة نظر الحاضر والمستقبل ففي مسيرتنا نحو الحرية السياسية والإجتماعية نحن بأمس الحاجة إلى أن نشحن ذلك السلاح الأصيل،.. إنه لازم لنا، لنصقل به أنفسنا حتى يزدهر على ما هو خير وطيب فيها"(عن الأدب والأدب الشعبي الفلسطيني. ص 29- 30)

ثانيا: الارتباط القومي

ولعل ذلك ليس بحاجة إلى تفسير، فالشعراء وهم يعايشون الصراع عربياً – "صهيونياً" وليس فلسطينياً – "صهيونيا" ولإثبات هويتهم توجهوا بشعرهم إلى هذه الزاوية، ولذلك غنّوا لبورسعيد كما غنّوا للخرطوم وصنعاء ولثورة الفاتح من سبتمبر، قال سميح القاسم: إنني أنظر للقضية الفلسطينية من خلال قضية التحرر العربية كلها ومن خلال الحركة الثورية العالمية... وهذا واضح في شعري... إنني أعيش في كابوس (فلسطين ثانية) في البحرين مثلاً والجنوب العربي، مذبحة (كفر قاسم) نظرت إليها في إطار العدوان الثلاثي على مصر، وها أنذا أنظر إلى مختلف جوانب القضية (عن الموقف والفن- ص 56).

ثالثاً: الاتجاه الإنساني والأممي

على الرغم من أن الشعراء يغنون لشعبهم ولأراضيهم فإنهم في أحيان عديدة يلجأون إلى ذلك الإتجاه الإنساني في التعبير عن الإخاء والتسامح ولهذا الاتجاه دوافعه:

أ - إن هؤلاء الشعراء يعيشون تحت سنابك محتل يدّعي امتلاك الأرض والوطن فهم يعانون من جرائه ظلماً إنسانياً فادحاً.

ب - إن الانتماء الماركسي وسيلة للنضال لدى بعضهم – وفق تصورهم – كان يُلجئهم إلى اتخاذ ذلك الاتجاه الذي يتمشى مع الأممية التي تنادي بها الماركسية.

رابعاً: تجسيد الأرض والوطن بالمحبوبة

وهذا يبرره العشق للوطن والذوبان في حبه، ثم يبرره كذلك القدرة على التعبير بواسطة التجسيد بمنجاة من السلطة وتعسفها. واختيار رمز الأم يعني الحميمية والحب والالتصاق

نجد هذه الظواهر في حركة الشعر العربي الفلسطيني في الأرض المحتلة عند معظم الشعراء هناك. نجدها عند الدرويش وسميح القاسم وتوفيق زياد وسالم جبران كما نجدها عند غيرهم.

ويحق لنا الآن أن نتساءل: ماذا قدم الشعراء الآخرون؟

❖ أصوات ناشزة:

في البدء لا بد أن نشير إلى أن الشعراء المقاومين في الأرض المحتلة ليسوا هم كل الشعراء فبينهم ظهر شعراء لا يعرفون قيمة الكلمة المقاومة الملتزمة ، لأنهم ينادون بالسلام بدون ثمن ويمدون الأيادي للعدو دون أن يقدم لشعبهم شيئا سوى القمع والتنكيل ومصارة الأراضي وتشويه الهوية ولعلهم لا يدركون قيمة الفن وأهميته، فالفن كما يقول أرنست فشر: "يستطيع أن يرفع الإنسان من التمزق والتشتت إلى الوحدة والتكامل".

والفن يمكّن الإنسان من فهم الواقع وهو لا يساعده على تحمله فحسب بل ويزيد من تصميمه على جعل هذا الواقع أكثر إنسانية وأكثر جدارة بالإنسان. إن الفن نفسه جزء من الواقع الاجتماعي. فالمجتمع يحتاج إلى الفنان هذا العرّاف الأكبر ومن حقه أن يطالبه بأن يكون واعياً بوظيفته. ولم يكن هناك من

يشكك في هذا الحق في أي مجتمع ناهض على العكس في المجتمعات المضمحلة، (أرنست فشر، الاشتراكية والفن ص- 74.)

إن مثل هذه الأصوات القليلة في معظمها أصوات غير فنية ، ولا تعبّر عن واقعها الفلسطيني، ولا تعمل من أجل جعل واقعها أكثر إنسانية وأكثر جدارة بالإنسان الذي يطمح دوماً للتحرر وامتلاك إرادته واستعادة حقوقه.

- فهذا شاعر (كجورج حبيب خليل) له مجموعات شعرية "ورد وقتاد – على الرصيف- بلادي – لهب الحنين"، يغني للإخاء مع الأعداء ويقول:

في سبيل الإخاء دوماً ننادي وإلى خصمنا نمد الأيادي

إذ حملنا في الصدر أسمى المبادي فلنعش أخوة لهدي البلاد

صحيح أن هذا الشاعر لا يملك طاقات شعرية خلاقة وعظيمة لكنه صوت خارج من أعماق الأرض المحتلة ودعوته مؤداها الاستسلام للأعداء إذ يقول:

لم لا ندفن الحزازات والأحقاد دفناً من بعده لا تعود

هذه الأرض تُزغرد .... إلا إن تآخى عربانها واليهود

وأسوأ ما يقدمه هذا "الناظم" ليس فقط وحدة الإخاء بل الاستكانة والمذلة واستعذابه لصوت "الفرد" أي "مسدس" الأطفال بدلاً من حبه للرصاص وطلقات المدافع الأسلوب الوحيد لتحرير بلاده:

آه ما أجمل ألعاب الصغار

إنهم لا يحملون "الفرد" حباً بالدمار

إنه "فرد" أجل لكنه من دون نار

آه ما أجمل ألعاب الصغار

وبرغم أن لجورج خليل بعض القصائد التي يدعو فيها للبقاء في الوطن وعدم الهجرة منه والتغني بطبيعة البلاد وسحرها إلا أن معظم قصائده وجدانية وقصائد مناسبات تدعو للتآخي مع الأعداء. ولعل شعره كان رديئاً لأكثر من سبب وليس بسبب مضمونه فحسب ، إذ ينطبق عليه وصف "ريتشاردز" للشعر الرديء "التوصيل فيه رديء أي لأن الأداة فيه عاطلة وأحياناً أخرى يكون الفن رديئاً لأن التجربة التي يسعى إلى توصيلها عديمة القيمة وفي بعض الأحيان يكون رديئاً لهذين السببين معاً .(مبادئ النقد الأدبي- 261)

وقد كان شعره رديئاً للسببين معاً.

❖ ومن المفيد أن نشير إلى تجربة شاعر آخر هو (**ميشيل حداد**) وديوانه المسمى بـ (الدرج المؤدي إلى أغوارنا).

وهو ديوان خليط من قصائد الشعر الحر والقصائد النثرية. وقد كتب دراسة وتقييماً للديوان الدكتور شموئيل موريه" الصيهوني " أستاذ الشعر العربي في الجامعة العبرية، ويمكننا أن ندرك لماذا كل هذا الاهتمام الذي أولاه الدكتور موريه لهذه المجموعة.

إن المجموعة كما توحي هي درج مؤد إلى أغوار شاعرها، وهي بذلك عملية استبطان ذاتي لرؤاه ومشاعره وأحلامه الذاتية وعالم العقل الباطن ورؤاه المعقدة غير المنطقية والتجربة الشعرية عند ميشيل كما يقول "موريه":

(هي رؤيا جديدة وخلق جديد وتداع جديد، تبتعد عن الحادثة أو الواقعة وعن المجتمع وعن الصور الشعرية التقليدية) وتجارب الشعر التقليدي ومضامينه لذلك لا تستطيع مثل هذه التجارب الشعرية الحديثة اتخاذ الأوزان والهياكل الإيقاعية التقليدية- (الدرج المؤدي إلى أغوارنا ص- 142.)

إن تحليل مورييه ذاك يجعلنا ندرك لماذا اعتبر هذه المجموعة (بأنها تحمل طابع التجديد في الشعر العربي الحديث، وهي الأولى من نوعها التي تصدر في هذه البلاد)- (الدرج المؤدي إلى أغوارنا ص- 142).

إن مورييه يهش لهذا الديوان، لأنه يلجأ إلى رؤى معقدة وإلى السريالية مستغلقة الفهم ،ويبتعد عن الحوادث والوقائع والمجتمع، أي أن الشاعر هنا يفقد دوره الاجتماعي في ظروف يعيشها شاعر كميشيل حداد، ومن هنا فإن الكلمة تتنصل من مسؤوليتها الاجتماعية والوطنية في مقاومة الاحتلال، ومن هنا طرب "مورييه الصهيوني" لهذا الديوان. ومورييه عدو العرب لا تعنيه كثيراً لغة العرب ولا شعرهم، ولذا فإنه يلغي فكرة الموسيقى في القصيدة ويستبدل بها الموسيقى الداخلية، ولذا فإنه يصر على اعتبار قصائد المجموعة كلها قصائد شعر لا نثر.

ويمكن القول فإن هذه المجموعة هي إدانة لكاتبها الذي انغلق على نفسه هارباً من مسؤوليته الاجتماعية ليثرثر لنا عن:

الهدف المغلق – الأيام المليئة بالمهاميز – الدفء وشرار البلوط – شجون على مشبك الشعر – على طريق الجلجلة.

وفي "أعصاب سافرة" يقول:

- نريد أن نضطجع ونقهقه..

- فتطل أخفافنا من تحت الأسرّة..
- اصمت أيها الجلاد المتفلسف..
- تتحدث عن امرأة معطاء..
- عن دفء يكحل العين..
- عن ماعز يلبس الحداد
- على جيل يشتهي ويعيش..
- يا ضياع الصاروخ المتكبر..
- يا خيبية عشرين قرناً..
- لتثكل أمك أيها الفلك..
- لماذا خلقنا بلا نساء.

إن القارئ لتلك الأبيات من هذه القصيدة النثرية قد يعجزه محاولة جمع الصورة التي يريد أن يرسمها، فالصور تفقد منطقيتها حتى لو حاولنا ربطها عن طريق التداعيات –غير الموجودة – لإنها تظل بعيدة عن الفهم حتى تصل درجة الغموض غير المبرر فنياً ولا مضموناً، فهو إذ يتحدث عن الرغبة في الاضطجاع والقهقهة تطل الأخفاف من تحت الأسرة، ويأتي الأمر هنا للجلد المتفلسف بأن يصمت.. إذ إن تحت الأغطية ذقوناً ثرثارة..أي ثرثرة هذه التي لا تستطيع أن توصل فكرة أو معنى مفهوما لدى متلقيها.

لقد كان الأجدر بميشيل حداد أن يصعد الدرج المؤدي إلى أغوار شعبه ليكتب عنه المهدد من الأعداء في كل لحظة بوجوده وهويته وبإرادته وحريته ولقمة عيشه، بدلاً من أن يكتب إننا مهددون بالطاقة الذرية والعلم. وعليه أن يبحث عن حقيقة الموت.. والحياة لشعبه ومأساته وهو يبحث عن مأساة الشخصية وعن الحقيقة التي تكمن وراء الموت والحياة.

❖أربعة أصوات تغني للوطن والأصالة والثورة:

هناك في الأرض المحتلة تنبت البرية أزهاراً، وتصوغ لنا أشعاراً، هناك شعراء صلتنا بهم وثيقة، وأسماؤهم أعلام كمحمود درويش وسميح القاسم وتوفيق زياد. وهناك شعراء صلتنا بهم قليلة، وأسماؤهم لو ولدت في عام طغيان الحماس العاطفي لحركة المقاومة لكانت كلها مشهورة.

أسماء مثل: عبد اللطيف عقل ومحمود الدسوقي وليلى علوش ويعقوب حجازي. ولنرتحل في جولة معهم..

1 - محمود الدسوقي:

شاعر له ثلاثة دواوين: موكب الأحرار 1963م، وصور مع الأحرار 1969م، ثم ديوانه الأخير ذكريات ونار 1970م الذي صدر عن المطبعة الحديثة بتل الربيع.

الدسوقي شاعر الكلمة المقاتلة، التي تقرع بعنف باب الارتباط بالأرض والوطن والحرية ولا يعيب كلماته تلك إلا المباشرة التي يستخدمها ولعل صوته المرتفع الذي يغني به كان يقصد مخاطبة الجماهير وشدهم إلى ترابهم.

فحينما يكتب محمود درويش:

- "سجل:
- أنا عربي
- ورقم بطاقتي خمسون ألفاً
- وأطفالي ثمانية.

- وتاسعهم سيأتي بعد صيف.
- فهل تغضب".

فإن محمود الدسوقي يعلن كذلك عن عروبته في ديوانه (ذكريات ونار):

- "وتسألني
- والاستغراب باد في محياها
- من إسرائيل؟
- نعم عربي
- وهل تنسى
- ... فلسطين
- نعم عربي فلسطيني
- رغم حوادث المأساة
- ليس البعد ينسيني
- أنا عربي فلسطيني.." (ذكريات ونارص- 7- 8)

هذه القصيدة التي يصرخ الدسوقي بها ليؤكد الذات بصوت عال –يعذر فيه- نالتها أيدي الرقابة، فمزقت منها المقطوعة السادسة بأكملها.

وكذلك فإن قصيدة بعنوان "القائمة السوداء " لا نجد منها سوى فتات قصيدة نثبته هنا:

- "بلغ
- أني خطر
- أمن الجمهور أهدده
- بلغ...

- ...
- ...
- أرضي والدار مصادرة
- شعبي االأغلال تقيده
- وأخي فالكوخ له بيت
- الحكم الجائر يبعده
- وأنا في السجن ألا تدري
- ويقول ألا من أنكده
- والشمس ستشرق تسعده
- بلغ ما شئت فلي أرضي..
- بالظلم وحكم يسنده" (ص- 23- 24)

وهذه ليست القصيدة الوحيدة التي مسختها يد الرقابة فهناك قصائد عديدة.

منها "أرض الميعاد خطاب وجواب"(ص- 32)

- "جواب
- الرد على ديان
- ديان. تمهل.. من شعبي..
- أهديك نصيحة إخوان
- أرض الميعاد
- ألا اتركها
- ما عاد الكون يصدقها
- ما عاد الرب جلالته

- يرضى تشريد الإنسان
- أرض الميعاد.. خرافتها زالت
- ما عاد يكون لها ثان"

ومحمود الدسوقي جرب سجون الأعداء وظل يقاومهم فهو يقول في رسالة إلى رئيس الحكومة أشكول:

- "ترى يا سيدي تسمع
- ترى يا سيدي تعلم
- لماذا؟ لا ولن أفهم
- ولكن سيدي عفواً
- فأصل جدودنا عرب
- نعم عرب" (ص- 30)

والتأثر بنزار قباني في هذه القصيدة واضح تماماً في قصيدته المشهورة "الحب والبترول" التي مطلعها:

"متى تفهم"

هناك قصائد كثيرة يحكي لنا فيها عن سجنه وعذابه به، لكن ذلك لا يمنعه من تذكر وطنه ومن الإيمان بالأمل الطافح بالنصر لشعبه، يتمثل ذلك في قصائده:

غرفة التأديب، وعيد وذكريات، ووراء القضبان، ومن عام لعام، وفي ظلام السجن وفي الزنزانة، وأيها الليل.

والشاعر يغني دوماً للأرض:

الأرض أرضي والبلاد بلادي

مهما بعدت فحبها بفؤادي

أروت دماء أبي وأمي غرسها

وبهما تغنى قبلهم أجدادي (ص57)

والشاعر يدعو للصمود ومقاومة التهويد بمباشرة تذكرنا بقصائد إبراهيم طوقان التي كانت تندد ببيع الأراضي وبالسماسرة يقول:

يا ساكن الشاغور اصمد إننا

نأباه حكم النهب والتشريد

واصمد بأرضك أو لتهلك دونها

واهتف لتلغ سياسة التهويد

إن الإنسان الرافض والذي يقاوم العدو يمتلك الأمل ولولا ذلك الأمل ما قاوم وما رفض، ولذا فإننا في كل أشعاره وغنائه نغني للفجر الآتي:

- "فغد الحرية نرقبه
- فغد الفجر غداً يأتي" (ص- 71)

وفي قصيدة أخرى

- "فمهما طال ليل الظلم
- يأتي بعده الفجر" (ص- 74)

وقد يؤخذ على الشاعر أنه غنى في قصيدتين للسلام والأخاء:

الأولى بدأها بقوله:

بئست الحرب في أثرها

غير بؤس ونحيب وشقاء (ص98)

والثانية – (ص100)

أحب الناس كل الناس من قاص ومن دان

ولعل الظروف في ظل الاحتلال والظروف الاجتماعية التي يعيشها هناك كان لها تأثيرها على فرض هاتين القصيدتين. ثم إن الغناء للسلام ليس عيباً ما دام الشاعر يغني لحرية بلاده.

ويمكننا القول بأن أهمية الدسوقي تكمن في مضمونه، وإن كان ليس مجدداً أكثر مما جاء به سابقوه ومعاصروه، إلا أنه صوت ما زال يصرخ في وسط الأعداء.

"عربي فلسطيني"

وإذا أخذنا على شاعريته المباشرة والخطابة في طرح القضايا .. فإنه لا يفوتنا أن نشير إلى أن لغته كثيراً ما تقترب من لغة النثر مما يفقد بعض قصائده روحها الشعرية رغم وزنها، وفي بعض قصائده نشعر وكأنها صنعة ناظم.

كقوله في قصيدة – من عام لعام – (ص44- 45)

- "وحقك شعبي
- فلن أرتضي بوعيد ووعود
- فبيتي وأرضي هنا صودرت
- وشرد أهلي وراء الحدود.." الخ.

وكذلك الأبيات التي لا تبعد في روحها عن نظم النظام:

- عذاب بات يأباه الذليل
- وظلم في حقيقته طويل
- إذا عم الفساد بلاد قوم
- فما للظالمين سوى الرحيل
- إذا كثر الطغاة بأرض قوم
- فتحقيق العدالة مستحيل (ص- 25)

والشاعر لا يستخدم الرمز سوى في قصيدة واحدة، هي "بيضة دجاجة" والرمز فيها بالغ الوضوح..

- "بيضة وضعتها خلسة يوماً دجاجة ..
- ما لنا فيها، ولا في بيضها والحق حاجة"

2 - يعقوب حجازي:

إذا انتقلنا إلى شاعر آخر وهو يعقوب حجازي ذلك الذي ولد عام النكبة في عكا، وتبلور اتجاهه الشعري – كما يقول محمود دسوقي – بعد مأساة حزيران.. فسنحس في قصائده مأساة شعبه وجرح بلاده اللذين كان لهما أثر عميق في نفسه وشاعريته.

إن قصائد يعقوب حقيقة قطرات من دمه إنها تنزف حباً للأرض ودفاعاً عنها وأملاً في حريتها.

ولعل أفضل ما يمكن أن نصف به شعره تلك الوصية التي كتبها بنفسه:

- "وأنا حفرت قصائدي في الشمس، في ضوء القمر
- عفو الجراح الداميات إذا نذرت لها الفكر..
- لا تعتبوا إن طال درب الحزن في ليل الضجر..
- فغداً يضيء قصائدي..رعد يعود مع المطر" ص44

إن الشاعر ينطلق قومياً هاتفاً لوطنه العربي (في أغنية عربية ص18):

- "دعيني أعبر الليل الذي سميته أحزان
- ليسري في دمي دجلة
- ويروي غلتي.. من مائه أسوان
- دعيني أعبر الأسلاك ملهوفاً إلى السودان..
- دعيني آه يا أماه أن أحيا بلا حزني
- وأعرف أن هذا العالم المرفوع حولي كله وطني"..

وهكذا يصبح الوطن العربي عند الشاعر هو ماسح أحزانه ، لأنه يدرك أن وحدته هي التي تحقق له النصر وتعيد لوطنه وجهه العربي، وهو يصرخ في الحاضر مع زملائه الشعراء الآخرين "أنا عربي فلسطيني" وذلك في وجه تهويد فلسطين.. يسمعنا أغنية فلسطينية:

- "خذيني يا فلسطين
- فجرح النكبة العابر..
- يناديني..
- لأبني مجدك الزاهر..
- بقلبي، في شراييني.
- ....
- ....
- فهذا الجرح يا وطني يذوّبني
- ويجعلني.. أنادي الجرح يا أمي
- أناديك
- وأهتف في أعاديك..
- فلسطيني.. فلسطيني.. فلسطيني".

إن أحزانه ورؤياه القاتمة لآلام وطنه المأسور، تمتزج امتزاجاً رائعاً بالأمل والنصر..

وذلك له تفسيره، حيث إن الشاعر ولد في حضن المأساة وآلامها ورأى تعسف الأعداء وظلمهم وتعذيبهم للشعب وسرقتهم للأرض.. ولكنه في الوقت نفسه يشاهد الفدائيين وهم يقذفون بأنفسهم في حضن الموت، وهو شاب في

مقتبل العمر يمتلك الحماس والإرادة، ولذا فإنه يحمل الأمل في النصر وهو إذا كان يغني بحزن:

- "أغنياتي كلها حزن ولكن
- ما انتهت يوماً
- ولا ضاع السؤال.." (ص- 24)

فإنه يمتلك الأمل بانتصار بلاده يقول:

- "لا تخافي يا بلادي
- سوف يلقانا النهار
- فرحة لا بد أن يأتي خلفها، أحلى انتصار"(ص- 24)

لقد غنى بمرارة وبألم حينما رأى عالماً من المحبة قد انتحر وحينما أحرق المسجد الأقصى..

- "سمعت يا أحبتي ما يدمع الحجر
- سمعت أن عالماً من المحبة انتحر
- رأيت بابلاً تنهار
- والأقصى
- ويولد القمر
- مشوهاً
- مشوهاً كما الضمير..
- يا أمتي
- يضيع في خبر"

إن هذا الشاب يملك دوماً ضوءاً ينير طريق المستقبل لذا فهو يصرخ في وجه غاصبي أرضه:

- "سأمحو عار مأساتي..
- وأهتف في جموع الناس
- آت فجرنا .. آت"

لقد استطاع الشاعر أن يعبّر ببساطة آسرة عن حبه للوطن ويهتف:

- "قربان هذا الشعب دمي
- فاشربوا
- وارفعوا نخب المذلة واطربوا
- وخذوا إن شئتموا
- مني حنيني
- لكن سأهتف
- يا بلادي.. لك حبي.. لك روحي وعيوني" (ص- 20)

وحينما يتجسد حبه لوطنه فيصبح أكثر من حب عادي حينما يكون اسمه بالقلب والروح يقول:

- "أسير.. أسير يا وطني
- ولا أخشى على جرحي
- وهل يخشى
- أسير القلب والروح"- (ص- 21)

ومن شدة وجده وحبه لوطنه فإن تشبيهاته للحبيبة كانت ترتد إلى الأرض والوطن وهذا نوع جديد في التصوير:

- "حبي إليك أسيرتي، حب الرجال إلى الوطن
- حب الشعوب إلى الثرى خلف المحن.." (ص- 75)

وهو لا يجد في تشبيهه ذلك غضاضة.. إن حبه للأرض ولمحبوبته لا ينفصلان ولأن حبه لوطنه يفوق كل شيء فإن تشبيه حبه لمحبوبته بحب الرجال للوطن يصبح أمراً طبيعياً.

هذا الشاعر الناشئ ننتظر منه الكثير من الإبداع إذ امتازت أشعاره بموسيقى جميلة هادئة فيما يغني لحب وطنه:

- يا بلادي
- أنت جرح لا يساوم
- أنت عندي
- دمعة الحزن المصفد في المحاجر

وهذه الموسيقى الجميلة تثور أيضاً حينما يعلن التحدي للعدو فتصطخب كلماته وتموج بمشاعره:

- سأقطع صخرة الأحزان
- أقلعها من الجذر
- ومن عمق الدجى
- أستل لي فجري- (ص- 51)

وتمتاز أشعاره بقصر مقطوعاتها وكأنه يقصد أن تنطلق بين الناس أغنيات يرددها أبناء شعبه فتكون سلاحاً، وهو يمتلك شاعرية تبشر بالخير والعطاء المثمر.. إن موسيقاه بجمالها، وقدرته على التعبير ببساطة آسرة تجعلنا

ننتظر المزيد من الشاعر الشاب يعقوب حجازي وخاصة بعد أن ينطلق من أسر تأثير محمود درويش وتوفيق زياد وسميح القاسم.

3 - ليلى علوش :

نلتقي ليلى علوش بديوانها "بهار على الجرح المفتوح" 1971م/ ثم ديوانها "سني القحط يا قلبي" 1972م .

تغني ليلى علوش للحزن وللوطن المصلوب وللناس البسطاء الذين ما هزموا.. وتغني كغيرها من الشعراء خلف سور الأعداء للفجر الآتي:

- "ضياعاً صرت يا طفلي
- ومن خلف جيوش الحزن كالظل..
- كمثل غمامة تجيء ضوء الشمس معقودة
- فلا حرٌّ يبددها
- ولا بردٌ فيسكبها
- على قلبي
- غمامة هم
- برغم البرد، رغم الحر موجودة"

هذا الحزن النابت في عالم الهزيمة كنار تشب في قلبها ولا يخمد أوارها إلا يوم النصر:

- "النار (الشبت) في قلبي من عامين
- وأضلتني، وأحالتني ظلاً مأسور القدمين
- النار الشبت في قلبي.. من عامين

- وأذلتني وأراقت في الساحة دمي
- صنعت مني
- برقاً.. مطراً
- وحزاماً للفجر الآتي
- جعلتني.. وهمي اغالي
- أتقصى ماهية ذاتي.."

هنا تصبح الهزيمة نقداً ذاتياً، وتصبح طريقاً جديداً للمعرفة، وتطرح الإجابة على الهزيمة تلك النار التي شبت من عامين صنعت بقلب شاعرتنا ناراً أحرقتها.. لا بل صنعت منها مطراً لتطفئ تلك النار.. وصنعت منها حزاماً لفجر بلادها المنتصر.

إن الأرض في شعر ليلى تشكل بعداً أساسياً، لأن الارتباط بها ارتباط بالجذور التي تصلنا بالوطن، لذا فإنها في قصيدة "تحدّ"، توجه تحدياً صارخاً في وجه الأعداء:

- "إذا ساعدت جلادي
- وقدمت السياط الحمر
- والخازوق والخنجر..
- وبتّ ألوب فوق الشوك
- عطشاناً، وعرياناً
- فلا سحب توافيني..
- ولا خوف ولا مئزر
- أبقى دائماً أكبر
- وأسل الرغيف "الحاف" من أشداق

- وحش الليل.
- وزيت سراجي الموعود..
- أعطره من المحجر..
- لأني دائماً أكبر..
- وأبقى دائماً أكبر.." (بهار على الجرح المفتوح ص 66-68)

وهذه القصيدة لا تخلو من تأثر واضح السمات بقصيدة "هنا باقون" لتوفيق زياد:

- "هنا على حدودكم باقون كالجدار
- ونملأ الكؤوس للسادات..
- ونمسح البلاط في المطابخ السوداء
- حتى نسل لقمة الصغار
- من بين أنيابكم الزرقاء.." – (ديوان الوطن المحتل ص506)

ويصبح الالتصاق بالأرض عندها أفضل أنواع التحدي:

- سأعزق أرضي المعطاء
- مرات ومرات..
- وأبني البيت..
- أبنيه من الأضلاع..
- أساس البيت أحفره
- وأجبل بالدم المنذور..
- كل سقوفنا الخضراء.
- أجبلها..

- وأعزق أرضي المعطاء مرات ومرات
- على حلم الجفون السمر..
- بجيل عامل آت" (بهار على الجرح المفتوح ص 68- 69)

ومما يلفت النظر في ديوانها تلك الصيحة التي أطلقها بعنوان (أممية) بها تنادي بالإخاء:

- "قلبي متسع للإخاء
- قلبي متسع للدنيا" (بهار على الجرح المفتوح ص 52)

ولكنها في الوقت نفسه لا تجعل سعة قلبها بداية للاستسلام والاستكانة للأعداء تقول:

- أدب بأسرى
- لكني..
- لا آبه بالذل.. المزعوم" (بهار على الجرح المفتوح ص 53)

وفي ديوانها الجديد (سني القحط يا قلبي) صدوره عام 1970م أي بعد عام من أحداث أيلول بعمّان إلا أنها برغمها ظلت تمتلك صوتاً قوياً طافحاً بالأمل.

فهي تعري اضطهاد المحتل:

- "آه لو يفتح جلادي بابا
- وترى كم جرحوني..
- وترى كم أثقلوني..

- بالمراسيم الجديدة" (سني القحط يا قلبي ص- 98)
- "أنظر الجلاد أضحى
- سوطه الدامي بظهري..
- أنظر الرسم.. تأمل
- قبضة الجلاد أمست..
- من يد الجلاد تخجل" (سني القحط يا قلبي ص- 128)

وهي تعبر دوماً كما نرى عن العدو بالجلاد، ولذا فإن طرحها لمقاومة العدو لم يكن صراخاً أو هتافاً، ولم يكن فيه توجيه مباشرة نحو الأعداء، وهذا قد يعكس ظروف حياتها.. لقد عاشت ليلى في القدس العربية، حيث كانت الأفواه مكمّمة بينما الناس في الأرض المحتلة يعيشون جواً من الديمقراطية تتيح لهم حرية القول. لا العمل. ولذا كان التناول مختلفاً فهي دوماً تشير إلى العدو بلفظ الجلاد ولا تقول عنه العدو – أو اليهود- :

- "قالوا لي جلادك يطغى
- موتوراً.. ولدمك عطشان..
- فأجبت..
- لجلادي سوط
- مخطي الهيبة والسلطان" (سني القحط يا قلبي ص- 77)

وهي هنا تحارب الأصوات الانهزامية لتدعو للصمود في الأرض ذلك لأن:

- "الشمس قريب مطلعها
- وستمضي الظلمة والسجان"

ولن يتحقق ذلك في نظرها إلا بالبقاء في الأرض:

- "بل أبقى
- كالجذر عماداً للأغصان
- فأنا منذور لبلادي..
- وسأبقى رهناً للطوفان..
- وبأرضي قد هب وجودي
- عملاقاً يتحدى الشيطان" (سني القحط يا قلبي ص- 80)

هذه ليلى علوش في ديوانها، وإن كانت في ديوانها الأخير "سني القحط يا قلبي" قد تطورت فنياً فابتعدت عن المباشرة في أغلب قصائدها.

إلا أننا نشير إلى عدة ملاحظات:

❖ أولاً – التكرار الممل الرتيب الذي دأبت على استخدامه في قصائدها، أحياناً للفظة الواحدة وأحياناً أخرى للبيت الشعري الواحد.

- "فإذا الأصوات ضده
- وإذا الأسماء ضده
- وإذا الأحداث ضده
- والمناديل المنداة العديدة..
- آه يا حبي ضده"

إن هذا الشعر لن يجعل من القارئ صديقاً له بل سيكون من المؤكد (ضده) وكذلك خذ مثلاً آخر منها:

- إن تقمصت السنابل يخذلوني
- إن تقمصت الجداول يخذلوني
- إن تقمصت الصنادل يخذلوني

- إن تقمصت الأساطير القديمة
- والأساطير الجديدة يخذلوني

وكأن اللغة العربية ضاقت ذخيرتها ولا يوجد منها سوى كلمات (إن تقمصت يخذلوني).

❖ ثانياً – وأغرب ما في شعرها ظاهرة استخدام "ال" مع الفعل. حقيقة أنها جاءت على نحوها بيت للمتنبي ولكنه جاء على نحو الشذوذ، وصحيح أن مدرسة "مجلة حوار" (مجلة شعر المشبوهين) قد استخدمت هذا الاستعمال ولكنه استعمال شاذ – وإن استخدمه المتنبي – وعامي قد سقط دعاته ومستخدموه.

فالشاعرة تقول:

- "وفوق السطوح
- تنام الجياع
- التمادت طويلا..." (سني القحط يا قلبي ص 47- 48)
- "إنني نسر الأعالي القيدوه" (سني القحط يا قلبي ص- 59)
- "عقد الحريم" الكبلتكم أزمنا
- ما زال فيكم طيفها المتواري" (بهار على الجرح المفتوح ص 72)
- "حبيبتي الظلت على الرمل دليلا" (بهار على الجرح المفتوح ص 29)

وقد تكون الكاتبة قد أخذت "ال" من الذي الموصولة، وهي تستخدم بذلك استخداماً شائعاً من اللغة الدارجة باستخدام "ال" مع الفعل.

ولكن ذلك كله لا يبرر هذا الاستخدام المتعمد الذي لا يتلاءم مع روح اللغة.. وإن دل على شيء فإنما يدل على فقر معجمها الشعري.

❖ ثالثاً –تلجأ الشاعرة كذلك إلى الترقيم في إطار الأبيات وليس في إطار القصيدة، ولست أدري إذا كان هذا تجديداً من طرفها أم لا ، وحتى ولو كان ذلك صحيحا فإن هذه الأرقام تفقد الشعر شاعريته ، لأنها تفتح الباب أمام التقرير ، وأمام تحطيم الإنسياب الشعري.

انظر حين تقول:

- "إنما وجهي يبقى رصداً

1. للزائر الساقط المنذور في صدر الشتاء
2. لسلال الموسم المشبوب حباً.
3. للصغار".

فالأرقام تأتي حاجزاً يقطع الاسترسال الشعري.

والشاعرة على أية حال تلجأ إلى استخدام ألفاظ كما هو دارج في اللهجة الفلسطينية كما عند زملائها فتستخدم:

- العفش، واللسان المهيري، المنعوف..الخ.

لا نريد أن نقسو على ليلى الشابة كثيراً إنها في أولى محاولاتها، وإذا كانت هناك مقطوعات تفتقد روح الشعر مثل:

- "كانت أرضنا
- موعودة للآخرين
- فانسل من خلف الجدار.
- قذيفة موعودة للغاصبين
- وقد تورد وجهه الإيمان

- من وهج السنين
- .. الخ.." (بهار على الجرح المفتوح ص42)

ولكن كلماتها تظل تحت الاحتلال صرخات قوية في وجه الغاصب الذي أسمته "بالجلاد" و "السجان" ومرة أخرى "بالشوك" و "مارس إله الحرب" ومرة أخرى "بالسلطان" و "البساطير" و "العهد الجديد" وتبشر في مستقبلها بعطاء يغني الكلمة الشعرية "المقاومة".

4 - عبد اللطيف عقل

في "أغاني القمة والقاع" يثور عبد اللطيف عقل بأسلوب أكثر عمقاً ونضجاً وفنية.. فمن خلال معاناته الألم ينبجس إحساسه بواقع شعبه الأليم فيشهر سيفاً ليحطم الماضي والرواسب التي أعاقت شعبه عن إحراز النصر... إنه يغني للوطن بعذوبة دون صراخ، ويغني للمقاومة، دون ضجيج.. إنه يثور على عدوه ولكن بلا فقاقيع... إنه يحمل على كتفه أعباء الكلمة المناضلة بعمق وبرمزية تستجيب لها النفس.

إنه يدين الخيانة ويدين التخلف الحضاري وعدم استغلال الطاقات العربية. إنه يجسد دور الكلمة بأشعاره، يهدم واقعاً صنع الهزيمة... ويحل مكانه — ولادة النصر من جوف الهزيمة... فالرمال سوف تسقيها الأمطار ومن جوف المدن تصنع الحياة.. وبالقوة يصنع النصر، هذا عبد اللطيف عقل يسبر غور الحياة وبعمق يتفحصها كناقد فيرسم لنا صورة اغتيال المواطن العربي الوقت وهو يلعب النرد وورق اللعب:

- "تعب النرد ولولا
- نعس النرد كنا

- نملأ المقهى مشاهد
- أنا لولا (القص) غاب..
- كنت أرويتك، أجهزت عليك..
- همد المقهى.. وظل التبغ مصلوباً
- وأعقاب السجائر..." (أغاني القمة والقاع ص- 79).

وهو ينقم على صورة الخيانة التي يسقط فيها بعض ضعاف النفوس(أغاني القمة والقاع ص- 58).

إن الألم يعتصر فؤاد الشاعر وتستحيل كل عذوبات الحياة مرارة وألماً لأن الهزيمة التي مني بها شعبه جعلته:

- "أذوق مرارة الأشياء
- وأشعر أن طعم الحزن مزروع بأعصابي
- وفي عيني مزروع
- وفي شفتي وأهدابي.
- أذوق حلاوة الألم." (أغاني القمة والقاع ص- 26).

إن الصورة الرائعة التي يرسمها لنا جعلت من المطر في بلاده الذي يكون دوماً رمز الخير والبركة والبهجة بصورة مغايرة للواقع دموعاً... لأن الحرب جاءت خاطفة في حين لا يمتلك العربي إرادته:

- "المطر دموع
- شتاء الشرق دموع..
- وصيف الشرق اللاهب جوع..
- الحرب هنا خطف، لحظات..

- أسرع من أن تمسكها الكلمات..
- أسرع من أن تلحق خطو الحرب..
- الأخبار" (أغاني القمة والقاع ص27- 28).

إن النتيجة الحتمية التي وصل إليها الشاعر حينما شتم العرب وهو ممارسة أقسى أنواع (الماسوشية) تجاه نفسه فيصرخ قائلاً:

- "واصلبوني. واصلبوا كل صبي وصبية
- يا عبيد الهمجية..
- يا عبيد الجهل، يا طلع الصحارى
- يا جمالاً، يا جماهير الرمل، أبناء الجواري
- والآباء العربية...
- ...
- اقتلوني يا عبيد الغرباء
- فقديماً يقتل الجهل الذكاء" (أغاني القمة والقاع ص31- 32).

إنه يصرخ بأن النتيجة لهذا كله كانت:

- "عطشي يشرب عمري..
- فمتى
- يشتهي صحراء عمري مطراً؟" (أغاني القمة والقاع ص- 49).

إنه ينتظر المطر يرى أن الكلمات لم تعد سلاحاً للنضال فالقوة هي التي تستعيد الحق المسلوب، ولسنا في موقع بيان صحة ما يقول، ولكن يتبين لنا من إرادة القتال لديه أنه يفكر بالكلمات على الرغم من كونه شاعراً:

- "ما مر زمان تنتصر الأفكار به
- ما مر زمان.
- بالقوة منذ البدء،
- يحطم رأس الإنسان، الإنسان"(أغاني القمة والقاع ص 62).

إنه يشتم الإعلام والكلمات:

- "القهوة تبرد، والمذياع..
- عاصفة تجتاح الأصقاع..
- العهد يطل مع الكلمات..
- والشارع تنهبه الخطوات
- وأمس يأتي في لحظات..
- أشرى مرات وأباع..
- غنى أغنية المذياع" (أغاني القمة والقاع ص130).

إنه أكثر من ظاهرة اجتماعية يعريها بعنف وهو يشتم ذلك الزيف الاجتماعي والمظهرية التي تعيشها الفتيات:

- خطبت ليلى طبيباً
- جهزت من سوق (بيروت) و "سوق الحميدية"
- وجميلات المدينة.
- يتحدثن عن الشبكة، عن سحر الهدية
- والمصاغات الثمينة..
- والذي تشتاقه عند سماعك
- أن (ليلى) اجتازت الجسر ولم تدفع جمارك" (أغاني القمة والقاع ص131- 132)

ونحن هنا لا يعنينا أن تدفع ليلى الجمارك أم لا للعدو، ونحن هنا لن نشتم العدو لأنه يبتز أموالنا من عامة المواطنين، ولكننا مع الشاعر نسخر من أولئك الذين يحفلون بمظاهر الترف وهم يعانون من كابوس الاحتلال..

لقد وقف الشاعر لاعناً التقاليد بعد أن سخر من تلك المظهرية بقوله:

- "كلما أكتب عن شيخ القبيلة
- لاعناً مسبحته.. أو ..
- ناقداً عنف هزيم النارجيلة
- هاجياً طربوشه المعزول من أوهام تاجر
- أوقد الأوباش حولي النار واهتاجوا شباباً وحرائر" (أغاني القمة والقاع ص132))

إن قصيدة (خمس أغنيات للضياع) التي اجتزأنا منها المقطوعتين السابقتين تقوي أسباب الضياع الذي نعيشه ، ففي قصيدة واحدة استطاع أن يعري زيف الكلمات الإعلامية التي باتت تتاجر بالإنسان العربي، ثم يسخر من العالم الذي يصبح هو فقط قواعد اللغة العربية. ويكتشف زيف المظاهر الذي يشغل فتاة تخرج من الأرض المحتلة للتسوق من دمشق وبيروت ويصبح الخبر الذي يهم الجميع هو هل دخلت ليلى دون أن تدفع جمارك؟ "خطبت ليلى طبيباً"(أغاني القمة والقاع ص131)

ولذا فإن الشاعر يقف لاعناً شيخ القبيلة ، لأنه هو الذي يقود ، وهو هنا يعني وبذكاء حقيقة أن القائد المزيف لا يكشفه إلا صوت شاعر، بمعنى آخر الأصوات المثقفة، وبالذات المثقف الملتزم.

ونلتقي مع عبداللطيف عقل في الكراسة الرابعة من ديوانه بعنوان "أوراق بين القمة والقاع" وفيها تمتزج أحاسيس الموت الذي يعتريه ويعلن عن عسف العدو ويغني لوطنه المعلق على الشفاه.

على الرغم من ذلك فإن كراسته الأخيرة هذه هي امتزاجات بين الحلم والواقع وتصبح في بعض الأحيان معميات تبعد صورها عن الجمال الفني، بل هي عبارة عن تداعيات وتمويهات لمعان متداخلة... يصعب فهم بعضها.

يقول في المقطوعة الثالثة من الورقة الثانية:

- "شربت نور العين..
- فاحمرت أهدابي..
- وتقيأت قصيدة الوزن والقافية
- في مدح أعمدة الكهرباء
- طردوني من الشارع
- فضاجعت معادلة بعدة مجاهيل"(أغاني القمة والقاع ص142)

إن هذا التنقل بين هذه الصور التي تبدو متناقضة شرب نور العين.. والقصيدة الصورية التي تمدح أعمدة الكهرباء في مضاجعة معادلة بعدة مجاهيل – تخلو تماماً من روح الشعر والموسيقى.

ويمكننا الإشارة إلى ظاهرتين في شعر عبد اللطيف عقل:

❖ أولاً: استخدم لغة الحديث اليومية كاستخدامه كلمات مثل " الأوباش " و" يفرفط "كما مر معنا العديد من الأمثلة عند تحليل نصوصه سابقا :

"العدم النامي في عينيك،

أساور حناء

هو فيك هنا

مهما طينت به الأشياء"

ومثل:

"عصب القين اشتهاء، (والدوالي)

"ويظل السهد في عيني

ينتشر لأهدابي، وينساح على جسم الوسادة"

"أنا لولا القص (غاب)

"هدبها المقصوف بالذل سكاكين شهيد

"لسعته الشمس فامتد على وهم الحبر

"أوقد الأوباش حولي النار

"وهو يفرفط أوراق سجائري.

❖ ثانياً: استخدامه لرموز أساطير يونانية

في الكراسة الأولى التي عنوانها مأساة أوديب هذه يعطيها بعداً رمزياً جديداً فأسطورة أوديب تكتسب، معاني جديدة لدى الشاعر، فأوديب هنا يعني الخلاص القادم المنتظر ويعبر عن الصراع بين الجديد والقديم (لايوس) والعراف هنا هو المعرفة، الذي يقوم القديم (لايوس) بالأمر بقتله وقتل كل وليد وإغلاق أبواب طيبه.

وأما جوكست فإنها الأم والأرض التي تعطي حبها لأبنائها..

هذه الأصوات الشابة القادمة من الأرض المحتلة، برغم ما تعانيه من ظروف القهر والاحتلال تقاوم بالكلمة وترفع راية عروبتها عالية ونحن ننتظر الخير الكثير والعطاء الفني المتجدد من هؤلاء الشعراء الشباب.

الهوامش :

1. أرنست فشر، الاشتراكية والفن، 1966م، القاهرة.
2. توفيق زياد، عن الأدب والأدب الشعبي الفلسطيني، 1970م، بيروت.
3. جورج حبيب خليل، بلادي.جورج حبيب خليل، ورد وقتاد.
4. جورج نجيب خليل،: بلادي، مطبعة الجليل، عكا، د.ت.
5. جورج نجيب خليل،: لهب الحنين، فلسطين، 1971 .
6. رتشادز، مبادئ النقد الأدبي، ترجمة، 1963م، القاهرة.
7. سالم جبران: كلمات من القلب، مطبعة دار القبس العربي، عكا.
8. سالم جبران، : قصائد ليست محدودة الإقامة، دار الآداب، بيروت، ط1، 1970 .
9. سميح القاسم، عن الموقف والفن، 1970م، بيروت.
10. سميرة:الخطيب، القرية الزانية، الفكر الجديد، القدس، ط1 ، 1971 .
11. عبد اللطيف عقل،: قصائد عن حب لا يعرف الرحمة، منشورات صلاح الدين، القدس، 1975.
12. عبد اللطيف عقل،: هي أو الموت ، منشورات مكتب الصحافة الفلسطيني، نابلس، الناصرة، 1973
13. ليلى علوش: أول الموال آه، القدس، ط1 ، 1975 .
14. ليلى علوش: سني القحط يا قلبي، مكتبة المحتسب، ط 1 ، 1972 .
15. ليلى علوش،: بهار على الجرح المفتوح، القدس، حزيران، 1971 .
16. محمود الدسوقي،: ذكريات ونار، المطبعة الحديثة، تل أبيب ، 1970 .
17. محمود درويش، شيء عن الوطن، 1971م، بيروت.
18. نزار قباني، شعراء الأرض المحتلة، 1968م، بيروت.
19. يعقوب حجازي،: قطرات من دمي، مكتب السلام للصحافة والتوزيع والترجمة، عكا،1971.
20. يوسفالخطيب،: ديوان الوطن المحتل، دار فلسطين، دمشق، 1968 . ويشتمل على دواوين لمحمود درويش، وسميح القاسم، وتوفيق زياد، وقصائد لسالم جبران، وراشد حسين، وعصام العباسي، وسليم يوسف جبران، ونايف صالح سليم، وحبيب زيدان شويري، وشادي الريف.

الباب الثاني

الفصل الثاني

المفارقة واستدعاء التراث في قصيدة:

[ذهب الذين أحبهم] لعزالدين المناصرة

نص قصيدة ذهب الذين أحبّهم

جاء الشتاء وأنت ترتادين آفاق الشتاء

ورأيت أشجار العذاب تطل من قلب المساء

لا حور، لا صفصاف، لا زيتون، يرفع رأسه نحو السماء

لا قلب جدتي العجوز

يدعو بأن يهمي المطر

خطواتهم فوق القبور الصامتات .... وجدتي

تمشي أمام الدار، تصرخ :يا ذئاب

قوموا، ارحلوا مثل الذباب

يا أهل وادينا

ماذا بأيدينا

نبكي روابينا

لو تنفع الأشعار !!!

ويردني شبح الشباب عن البكاء

أي المدائن غاضبات ؟!!

كنا ننثّر خبزنا الطاغي لكل الكائنات

كنا جبالاً راسيات

سرنا إلى البعيد يحثّنا الركب

وتركت ربعكم الحنون

حتى إذا وصل المغني في تقاطع الغيوم

شفنا نجوم القدس، مسبلة العيون

(وتلفّت القلب)

ويمر تحت السروتين مغنياً:

هل مر تحتكما أليفي

يبكي فينشغ دمعه

والريح تنشج ... والمطر

يهمي على القصر المنيف

هل مرّ تحتكما وليفي ؟!!

في الليل يرتد البكاء المر منهمراً إلى صدري

وطني يضيع ولا أقول :

آه .... من الليل الطويل

لو كنت أملك أن يردّا

(ذهب الذين أحبهم

وبقيت مثل السيف فردا)

1. طقس القصيدة:

جاء أول شتاء بعد هزيمة حزيران، 1967، ليكون شتاء ليس ككل الشتاءات التي كان ينتظرها أهل الضفة الغربية وقطاع غزة ... فهذا الشتاء ذو لون آخر، ووقع الخطى فيه غريبة، ها هم جنود الاحتلال يدنسون أرض الوطن، والناس لا يملكون شيئاً يفعلونه... ويقف الشاعر مذهولاً بهول الفاجعة. هذا وطن بكامله يضيع ... في هذه القصيدة يغني الشاعر ببكائية للوطن، ويظل يحلم مع الأمل.

2. تحليل النص:

تبدأ القصيدة في أحد مقاطعها من نقطة تبدأ مع الزمن وتنتهي به. إنها تسير مع دوران الأرض فالمقطع يبدأ بدورة من دورات الأرض بفصولها وتكون البداية مع "الشتاء" حيث يقول:

- "جاء الشتاء وأنت ترتادين آفاق الشتاء
- ورأيت أشجار العذاب تطل من قلب المساء"

وتنتهي قصيدته كذلك بدورة أخرى من دورات الأرض كذلك وهي تعاقب الليل والنهار حيث تنتهي القصيدة مع المقطع الأخير والذي يقول فيه:

- "في الليل يرتد البكاء المر منهمراً إلى صدري
- وأصبح يطول الليل يا دهري
- وطني يضيع ولا أقول
- آه من الليل الطويل"

وما بين الشتاء وبين الليل، يخيم على القصيدة جو من التفجع والبكاء والفراق والألم. ما بين الشقاء والليل ذهب الذين نحبهم. إن القصيدة هي رحلة مع عذاب فردي، لكنه ذو بعد جمعي: إنه عذاب وطن كامل.

- "ورأيت أشجار العذاب تطل من قلب المساء
- لا حور لا صفصاف لا زيتون يرفع رأسه نحو السماء"

ويعتمد الشاعر في تصوير المعاناة عن طريق سلسلة من النوافي:

- "لا حور لا صفصاف لا زيتون يرفع رأسه

- نحو السماء
- لا قلب جدتي العجوز
- يدعو بأن يهمي المطر"

فالنفي هنا لوجود العدو والتعبير عن رفض الاحتلال، لأن المطر الذي هو خير ونعمة، يصبح غير مرغوب، فيه في ظل الاحتلال، لأن خيره سيعطي ثمره للأعداء، إن التطلع نحو السماء يصبح نقمة في ظل الاحتلال، وها هو قلب الجدة لا يدعو بأن تهطل الأمطار لأنها لا تريد أن تصيب بخيرها الأعداء واختيار الجدة لم يأتِ عبثاً، فالجدة هنا الأصالة والصلة المستمرة بالوطن. ولكي يؤكد هذه الصلة بأنّها علاقة مستمرة عبر التاريخ بين الأحياء والأموات. تأتي خطوات الغزاة لتمتهن المقابر، وكأنها تعبر عن رغبتها في نفي التاريخ وانتمائنا لهذا الوطن ولهذا كانت صرخات الجدة:

- "تمشي أمام البيت، تصرخ: يا ذئاب
- حتى القبور!!"

كأنها خلال مفارقة تصويرية أرادت أن تقول حتى القبور (دنستموها) فما بالكم مع بيوت الأحياء!؟

هذا المقطع تحمل موسيقاه إيقاع الأسى والحزن من خلال استخدام قافية ساكنة أما المقطع الثاني، وهو مقطع قصير فيمثل صرخة مناجاة لأهل الوطن ولهذا يطلق قافيتها لتلائم تلك الصرخة ومن خلال هذا النداء المصاحب الاستفهام الاستنكاري يقول:

- "يا أهل وادينا
- ماذا بأيدينا

- نبكي روابينا
- لو تنفع الأشعار"

هنا تكون الإجابة واضحة: لا شيء بأيدينا، لن تنفع الأشعار التي فيها نبكي روابينا ومن هنا ينتقل إلى المقطع الثالث ... فالبكاء الذي تساءل عنه في المقطع الثاني يصبح مرفوضاً ... "ويردني شبح الشباب عن البكاء".

إن الشباب هم الذين يمثلون الأمل وهكذا يرتد الشاعر إلى الواقع الذي يواجهه الشباب ... وما هو هذا الواقع؟ انظر إليه ماذا يقدم من خلال مفارقات تصويرية تعتمد على استخدامه للنواي في أسطره الشعرية، وعلى أسلوب الالتفات في الصور الذي يقدمه لنا وكأننا نتابع شريطاً سينمائياً من الصور.

1. الغزاة السائرون كالطوفان.
2. المدن العربية التي لا تقف غاضبة في وجه الغزاة.
3. ينتقل إلى استنكار الحال الذي نحن فيه ومن خلال مفارقة تصويرية جميلة "كأنا لم نكن شيئاً ولا كنا جبالاً راسيات".
4. العودة إلى القدس المسبلة العيون ...

لقد قدم لنا الشاعر ، هنا صورة انتقاله من الربع الحنون ... إلى ربع حنون آخر ألا وهو الوطن حيث بدت ديار القدس مسبلة العيون، وكي يعمق الشاعر صورة الارتباط العاطفي والتاريخي فإنه يستعير صوت شاعر من التراث بقوله "وتلفت القلب" فهذه الجملة مقتبسة من قول الشاعر الشريف الرضي:

ولقد مررت على ديارهم	وطلولها بيد البلى نهب
فوقفت حتى ضج من لغب	نضوي ولج بعذلي الركب
وتلفتت عيني فمنذ خفيت	عنها الطلول تلفت القلب

إن هذا الاستدعاء لصوت الشاعر يحمل أكثر من دلالة، فاستخدام صوت تراثي يحمل معه رباط التاريخ الذي يربط صوت الشاعر التراثي بالحاضر، ويستحضر معه دلالة السياق الذي قيلت فيه ... والتي توحي بالطلل والخراب والذكرى ... وهذا كله يستدعي في المقابل صورة المحتل وتخريبه الوطن وذكريات الشاعر الجميلة مع الوطن. وليكون الاقتباس كذلك فاتحة كي (يتلفت القلب) إلى صورة من التراث يستحضرها في المقطع الرابع من القصيدة هذه الصورة التي تمثل صورة النبي (ص)، وأبي بكر حينما كانا يختبئان في غار (ثور)، وكانت الحمامة تعشش على باب الغار الذي يغطيه نسيج العنكبوت. ويتجلى جمال التصوير في هذا المقطع من خلال المفارقة التصويرية التي يقدمها الشاعر صورة، فهناك سروتان تظللان الشارع، ونحن نعرف أن شجر السرو وطوله لا يتيحان ظلاً وارفاً لأن شجرة السرو ليست وارفة الظلال، ولكنها تحمل ميزة أخرى وهي ميزة الارتفاع والسمو وكأنها رمز الكبرياء والكرامة التي تظلل هذا الشارع الذي يمتد ليشمل كل البلاد.

- "يا سروتان تظللان الشارع
- المهود في أقصى الشمال
- يمتد من باب المدينة راكضاً حتى الجبال"

ولكن هذه الجبال أصبحت مرتعاً لقوات الاحتلال التي شبهها بالثعالب:

- "متعرجات الخطو تمشي في مساربها الثعالب"

وتبلغ جمالية التصوير عند الشاعر حينما يقول:

- "هتف اليمام على علاليها وعششت العناكب

- في سقف كل مغارة تحمي جنود الاحتلال"

إذ إنه يقدم لنا صورة تستحضر التاريخ وتفارقه في آن واحد:

1. فهنا جنود الاحتلال يختبئون في مغارات تعشش العناكب في سقفها فهي مغارات محمية وبدون رعاية إلهية.
2. بينما كانت العناكب تعشش على باب مغارة الرسول وصاحبه لترعاها العناية الإلهية.
3. وهنا يهتف اليمام هنا يحلق على علالي المغارات بينما كانت الحمامة قد عششت في المغارة.

وكأنه يقول إن الرعاية الإلهية لا يمكن أن تكون مع المحتلين، فها هو اليمام يهتف من أعالي المغارات، وكأنه يرشد عنه لى المحتلين، وتعشش العناكب، في سقف المغارات لا على أبوابها لأنها لا تريد لها الحماية. ويتابع الشاعر قصيدته باستخدام قافية النون ساكنة وكأنها تعبير عن الأنين وينتقل بعد ذلك في أحد المقاطع إلى استحضار صورة تراثية أخرى وهي صورة نقر الدفوف عند استقبال الرسول عندما وصل إلى المدينة حيث غنوا له "طلع البدر علينا من ثنيات الوداع".

كأن نقر الدفوف استقبالاً للمخلص، وهنا الصورة تحمل معها دعوة للخلاص مع الأمل بهطل الغيث محتجب الحصول لوجود الأعداء المحتلين. وها هو الشيخ يرفع صوته الآن مخاطباً ربه قائلاً:

- " يا ربنا الجبار
- قد أحرقتنا النار
- في أرضك الجرداء
- ماتت أغانينا"

إنها دعوة الخلاص من النار المحرقة (نار الأعداء) ودعاء حتى يعود الخصب إلى الأرض ودعاء إلى أن تحيا الأغاني من جديد ليشي ذلك كله إلى الأمل. لقد قدم لنا صورة آملة في إنهاء الخريف الذي خيم على الوطن:

- "وتهز أفئدة الصبايا البيض أوراق الخريف"

ولكن الصورة هنا يكتنفها الإبهام، فلماذا قال الشاعر أفئدة الصبايا البيض ...؟ وهل البياض صفة للأفئدة أم الصبايا؟ ولماذا لم يوضح لنا كيف تهز الأفئدة أوراق الخريف؟ هل يريد الشاعر أن يقول لنا إن الأفئدة البيضاء للصبايا بما تمثله من نقاء وطهارة وبراءة تهزّ أوراق الخريف لتبشر بفصل جديد ينتهي معه الاحتلال الصهيوني. ويستخدم الشاعر كثيراً أسلوب الالتفات فبعد أن بدأ فقرته الشعرية بضمير المتكلم:

(الآن اسمع في الضحى نقر الدفوف) ينتقل الشاعر إلى استخدام ضمير الغائب

- "ويمر تحت السروتين مغنياً:
- هل مرّ تحتكما أليفي؟؟
- يبكي وينشج دمعة
- والريح تنشج والمطر
- يهمي على القصر المنيف
- هل مر تحتكما وليفي؟؟"

واستخدام أسلوب الالتفات بكثرة يمثل نوعاً من الإشارة إلى صوت الشاعر، الذي يعبر فيه عن قضية شعب وهنا إلى صوت صاحب شاعرنا الذي بات يبحث عن صاحبه، وحيث إن الاحتلال جاء ليشتت الآلاف، ويفرق بينهم، ويكون مع صدى صوته وهو يغني ليس سوى ارتداد البكاء، وتكون استجابة الطبيعة ليست سوى رد

على غنائه وبكائه، فالرياح تنشج بالبكاء وتكون الإجابة لسؤال: هل مر تحتكما أليفي؟ واضحة ويعود الشاعر مرة أخرى ليرتد صوته إلى صوت الشاعر ذاته حيث يقول:

"في الليل يرتد البكاء المر منهمراً إلى صدري"

وتكون خاتمة القصيدة هذه، صورة للمعاناة والمأساة التي ألمت بشاعر يفقد وطنه، وتطول لياليه، ويكون آخر القصيدة استحضاراً للتاريخ كله حينما يستعير صوت الشاعر عمرو بن معد يكرب في قصيدته المشهورة، يعبر فيها عن ألم المعاناة والوحدة في زمن تفرق فيه الخلان والأخوان، ولكنه لا يتحسر على ذلك على الرغم من أنه فقد أحباءه في وطنه.

الباب الثاني

الفصل الثالث

محمود درويش والتضاد التعبيري

في قصيدة "نداء من القبر"(*)

نص القصيدة :

- 1 -

أنا ... عمر موتي ثماني سنين

وعمر أبي مثل عمري

نناشد أحباءنا الطيبين

وكل الذين

يريدون أن يكبروا

على الأرض لا تحتها

وأن ينضج القمح في حقلهم

وهم يزرعون وهم يحصدون

(*) قصيدة عن مجزرة كفر قاسم من ديوان: يوميات جرح فلسطين.

وأن يخمر الخبز في بيتهم

وهم يخبزون، وهم يأكلون

نناشدهم لا تناموا

لكي تكبروا

على الأرض لا تحتها

وحذار... هنا الشمس

دود وطين

وتحسب أعمارنا بالمنون

أنا .. عمر موتي ثماني سنين

وعمر أبي مثل عمري.

2 ـ

سألناكم:

لا نريد على القبر ماء وزهراً

فلا شيء حي سوى

قطيع أفاع... ودود

سألناكم:

لا نريد ثياب حداد

فلا لون في القبر إلا

السواد:

سألناكم: لا نريد

مواويل حزن طويلة

فنحن هنا راقدون

وعودتنا مستحيلة.

3 -

سألناكم: أن تغنوا

لأرضكم الباقية

وترووا حكايتنا القانية

لأبنائكم...

لتبقى على علم المجرمين

دمانا

إشارة درب إلى الهاوية

سألناكم: أن تصدوا

الرصاص عن الآمنين

لينجو أحياؤكم...

والذين غداً يولدون

فما زال نبع الجريمة ثرّاً

أهيلوا عليه التراب

وكونوا

على حذر صامدين.

تحليل النص

قصيدة محمود درويش "نداء من القبر" ليست واحدة من أعظم قصائده أو أهمها، ولكنها إحدى قصائده العديدة التي تمتلئ بنبض الإيقاع، وعمق الفكرة، وروح المقاومة مع بساطة في الأداء.

تتكون قصيدته هذه من مقاطع ثلاثة، ولكن أكان ضرورياً أن تأتي كذلك؟ في محاولتنا لفهم القصيدة لعلنا نجيب عن هذا التساؤل.

الشاعر يتناول فكرة بسيطة، ليخاطب بها عاطفة جمهوره وعقله في آن معاً...

"ها هو شهيد من شهداء كفر قاسم، استيقظ من موته بعد ثماني سنين من المجزرة قام محتجاً على أبناء شعبه الذين ما زالوا يلبسون ثياب الحداد ويغنون المواويل الحزينة، وطالبهم الكف عن ذلك، لأن الحزن لا يجدي، ولا يجدي غير الوقوف أمام الأعداء مصدر الجريمة، والصمود في وجه مغتصبي وطنه".

هذه هي القصيدة، نداء مباشر من أحد الشهداء إلى الأحياء كي يكونوا أحياء حقاً، لسان الشهيد هنا ينطق بقوة وأحياناً بعبارات مباشرة، ليعبر عن القضية التي استحضر من أجلها.

فماذا قالت القصيدة؟ وكيف عبر الدرويش عن ذلك؟

القصيدة كما أشرنا، تتناول استحضار شهيد من قبره، جاء ليخاطب الأحياء، وهذا الموقف الأسطوري ليس هو بحد ذاته القضية، بل يجعلنا نتساءل ماذا يمكن أن يحقق؟

إن استيقاظ الشهيد – الموقف الأسطوري – ونداءه للأحياء أمر غير منطقي، ولكن يقف هناك منطق آخر مواز للامنطقية الأسطوري... فالشهداء دوماً يتركون دماءهم كنداء للثأر، وهنا يصبح نداء الشهداء للأحياء جانباً أسطورياً غير منطقي يوازي دماء الشهداء التي تدعو للثأر. ويبدأ الشاعر بتقديم الشهيد إلينا.

"أنا عمر موتي ثماني سنين

وعمر أبي مثل عمري..." (يوميات جرح فلسطيني - 65-)

هكذا تبدأ "القصيدة – المأساة" حيث يتقدم الشهيد دون استئذان ليعرف بنفسه "مات منذ ثماني سنين".

لكن ماذا يعني الموت هنا والآلاف يموتون عرباً وغير عرب؟ وتجسيداً للمأساة، وإيحاء بما وراء هذا الموت "كان عمر أبي مثل عمري" مات أبوه معه، هنا تكمن المأساة إذ تموت في كفر قاسم أسر بأكملها.

ومنذ البيت الأول تنساب إلى قلوبنا مأساة الشهيد التي تناولها الشاعر بإيقاعات هادئة، مستخدمة تفعيلات المتقارب "فعولن– فعولن- فعولن- فعولن" المتكررة، وبقافية تلتزم السكون، لتعطي رتابة تكرار التفعيلة والتزام السكون بالقافية سكوناً ورتابة يشبهان ذلكما السكون والرتابة المخيمان على القبور صمتاً هو أشبه بصمت الموتى حتى لو كانوا شهداء...

ويبدأ الشهيد حديثاً هادئاً لا يبتعد في لهجته كثيراً عن لغة الحديث اليومي "الأحياء- الطيبين" ونحن دوماً نتحدث عن الرجل الطيب ونتحدث عن نضج القمح في الحقول، والزراعة والحصاد... وإن جاءت كلها بترتيب مختل، فالزراعة قبل الحصاد والحصاد بعد النضج... ويتحدث عن الخبز "الخامر" الذي يصلح للأكل، هذه أمور كلها هي حديث الناس في معاشهم، ويبدأ الشهيد في مناشدتهم وكلمة "المناشدة" لا تعني الإلزام، إن الشهيد – الميت لن يخرج من قبره حاملاً السيف ولا مكبر الصوت، وإنما سوف يخرج هادئاً يناشد أحياءه الطيبين.

ويستخدم الشاعر في عرض قضيته أسلوباً يمكن وصفه "بالتضاد التعبيري" حيث يأتي بالشيء وضده، تعميقاً للمأساة، وفصلاً تاماً بين قضية الشهداء وقضية الأحياء الذين لا يتحركون من أجل وطنهم.

(الأحياء – الأموات)... (الزهور على قبور الأموات – الأفاعي والدود)... (مواويل الحزن – الغناء)... (الظلمة – الضياء).

❖ فالشهيد نجد عنده في القبر: (الموت، ظلمة القبر، الأفاعي، الدود، الطين، العمر الذي يحسب بسنوات الموت، والرقدة الطويلة).

❖ في المقابل ماذا يبقى للأحياء... وماذا يريد الشهيد لهم أن يصنعوا؟

شهيدنا هنا مجرب، خبر الحياة والموت، لذا فإن استخدامه أسلوب النصح والمناشدة بمثابة الأمر:

"نناشد أحياءنا الطيبين

وكل الذين يريدون أن يكبروا

على الأرض لا تحتها" ص- 65

هؤلاء الذين يوجه الشهيد إليهم مناشدته هم الأحياء – فعلاً – بإرادة الحياة التي تصنع المستقبل، لا الأحياء – الأموات، الذين يستسلمون لأقدارهم ولعل الشهيد الذي أحكم عليه الرتاج بصندوق الموت المغلق لم يتمكن من تحقيق هدفه وأمنيته فخرج لمناشدة أبناء قومه الأحياء... ولا ننسى أن الدين الإسلامي يعتبر الشهداء "أحياء عند ربهم يرزقون"... وقد تكون هذه الآية الكريمة هي

إحدى مخزونات الشاعر الفكرية التي جعلت شهداءه أحياء يخاطبون الأحياء عما هو حقيقة بهم، فالأحياء لهم الحياة بقمحها وخبزها، كإرادة للحياة المادية:

- *"نناشد أحياءنا الطيبين*
- وكل الذين
- يريدون أن يكبروا،
- على الأرض لا تحتها،
- وأن ينضج القمح في حقلهم،
- وهم يزرعون وهم يحصدون،
- وأن يخمر الخبز في بيتهم،
- وهم يخبزون، وهم يأكلون،
- نناشدهم: لا تناموا
- لكي تكبروا، على الأرض لا تحتها" ص–65

فالشاعر، وهو يؤكد – عن طريق شهيده – أن يصنع مواطنوه الأحياء مستقبلهم بإرادة قوية وهم رافعو رؤوسهم.

- يريدون أن يكبروا على الأرض لا تحتها
- فإنه يطالبهم باليقظة والعزيمة والإرادة المقاتلة والصمود وذلك بالعمل.
- "نناشدهم: لا تناموا
- لكي تكبروا، على الأرض لا تحتها"

هنا نجد الشاعر قد استطرد في فكرته تلك، وكان بإمكانه أن يوجز فيها إذ إن قوله "يريدون أن يكبروا" صورة بسيطة وجميلة تعبّر وتغني عن استطراداته:

– وأن ينضج القمح في حقلهم

– وهم يزرعون وهم يحصدون

– وأن يخمر الخبز في في بيتهم، وهم يخبزون،وهم يأكلون.

ذلك لأنه أعاد مرة أخرى تلخيص ما قاله:

– "نناشدهم: لا تناموا

– لكي تكبروا، على الأرض لا تحتها"

ومرة أخرى حاول تكثيف ما أراده بالتضاد التعبيري وإن كان ذهنياً خالصاً حيث يقول:

– "نناشدهم: لا تناموا لكي تكبروا

– على الأرض لا تحتها...

– حذار ... هنا الشمس دود وطين

– وتحسب أعمارنا بالمنون...

– أنا عمر موتي ثماني سنين...

– وعمر أبي مثل عمري" (ص.ص65- 66)

هنا يحذرهم الشهيد من شمسه التي هي في القبر دود وطين، ويحذرهم من عمره الذي يحسب بالموت، وهو يريد لهم الشمس الساطعة شمس الحياة التي تنكشف معها حقيقة وضعهم، ويريد كذلك أن تحسب أعمارهم بسنوات الحياة وهم فوق الأرض لا تحتها... ويمكننا الإشارة هنا إلى هذه الصورة البسيطة التي جاء بها للتعبير عن أفكاره.

"نناشدهم لا تناموا لكي تكبروا" وهي تعبير عن المستقبل وإرادة الحياة والعمل، "تكبروا على الأرض لا تحتها" تحمل أيضاً نفس المعاني . "الشمس دود وطين" تعبير عن تلك الظلمة والفناء واللاجدوى اللائي يكتنفن حياة الميت.

وفي نهاية المقطع الأول، يجعلنا الشاعر نتساءل كيف تكون الحياة؟ والمأساة ما زالت قائمة.

– "أنا عمر موتي ثماني سنين،

– وعمر أبي مثل عمري"...

ويأتي تكرار مطلع قصيدته هذا فنياً، إذ يقف شاهداً – كوسيلة فنية – على المأساة القائمة وناقوساً يحذر من خطرها. بل وتتعدى فائدته أكثر من ذلك، بحيث يصبح موصلاً نفسياً يحاول به الشاعر أن يوثق الوشائج النفسية لكيان القصيدة العضوي بكامله.

– "أنا عمر موتي ثماني سنين...

– وعمر أبي مثل عمري"

إذا كان المتحدث ميتاً ومعه أبوه، وإذا كان الأحياء قد اعتادوا أن يضعوا الماء والزهر على القبور ويلبسوا الحداد ويغنوا المواويل الحزينة فإن الشهداء يطرحون تساؤلات على الأحياء ليكونوا أكثر واقعية منهم.

– "سألناكم: لا نريد...

– على القبر ماء وزهراً

– فلا شيء حي سوى

– قطيع أفاع ودود" ص–66

إن الشهداء يرفضون الماء والزهر، حيث لا يوجد شيء حي في المقابر سوى الأفاعي والدود، ويطلبون الماء والزهر للأحياء تعبيراً عن إرادة الحياة وإشراقة المستقبل، وليدرك الأحياء أن الماء والزهر ليسا للدود ولا للأفاعي التي قتلت الشهداء في الحياة، ونهشت لحمهم في الموت.

ويكون تساؤل الشهيد الاستنكاري نوعاً من التضاد الذهني الذي يشمل المقطع الثاني بكامله:

- "سألناكم: لا نريد
- على القبر ماء وزهراً
- ....
- فنحن هنا راقدون
- وعودتنا مستحيلة"...

فإذا كان سؤاله "للأحياء بأنه لا يريد منهم، ولا يريد ولا يريد..." فإن نقيض النفي، هو ما يريده لهم. بمعنى أن التضاد الذهني الذي تخلفه صور النفي المتعددة هذه إنما تحمل في طياتها معنى إيجابياً وحيداً هو صورة لما يريده الشهداء للأحياء ...

ولا يخلو هذا المقطع كسابقه، من استطراد في التصوير فثياب الحداد بمدلولها الحزين تغني عن مواويل الحزن الطويلة بل ويقوم كذلك باستخدام أسلوب تقريري يخنق الصور التي تسبقها.

- "فلا لون بالقبر إلا السواد"
- "عودتنا مستحيلة..."

في المقطع الثالث من القصيدة يجيب الشاعر عن بعض تلك التساؤلات التي طرحها في المقطع الثاني:

- "سألناكم أن تغنوا لأرضكم الباقية
- وأن تغضبوا، وتروا حكايتنا القانية
- لأبنائكم...
- لتبقى على علم المجرمين دمانا...
- إشارة درب إلى الهاوية...
- سألناكم أن تصدوا الرصاص عن الآمنين...
- لينجو أحياؤكم... والذين غداً يولدون...
- فما زال نبع الجريمة ثرّاً...
- أهيلوا عليه التراب
- وكونوا على حذر صامدين..." ص67-

إذن، لا المواويل الحزينة مجدية ولا الزهر على القبور مؤمل، ولا الحداد بلونه الأسود مجد، إنما يجب أن تغنوا للأرض، وأن تغضبوا لتصنعوا الثورة وتربوا أبناءكم على حكايات الوطن، واللون الأسود لا بد أن يقابل اللون الأحمر لتظل دماء شهدائنا شارة لا تنسى تصبغ علم الأعداء...

تمّت صورة هذا التضاد الموحي، بين ما يفعله الأحياء وما يريد الشهداء لهم أن يفعلوه، لأن القضية التي استشهد من أجلها الشهداء في كفر قاسم لم تنته بعد، وكما تعني أن كثيراً من المجازر ستقع في أية لحظة.

"فما زال نبع الجريمة ثرّاً".

والنبع بطبيعته عطاء فياض مستمر حتى ولو كان للجريمة، لذا كان على الأحياء عبء مسؤولية ذات شقين: تجاه أنفسهم وتجاه وطنهم ومستقبله.

- "سألناكم أن تصدوا الرصاص عن الآمنين...
- لينجوا أحياؤكم.. والذين غداً يولدون".

وهذا لن يتم بدون حذر من الأعداء إذ علينا أن نهيل عليهم التراب كي نطمر نبعهم متمسكين بالصمود كأداة أدوات الانتصار. إن هذا المقطع لم يُجب على كل التساؤلات الواردة في المقطع الثاني، ففيه مثلاً يقول:

"فنحن هنا راقدون وعودتنا مستحيلة".

والتضاد الذهني الذي يولده هذا البيت يكمن في "أن الشهداء الذين اقتلعوا من أرضهم بالموت وتستحيل عودتهم إليها، يقابلهم الأحياء الذين اقتلعوا من أرضهم بالقهر ولكن عودتهم ممكنة".

فنلحظ بهذا المقطع ارتفاع نبرة الحديث عن سابقيه ، ولعل حديثه عن الصمود والمقاومة والدعوة للثورة على الغاصب تبرر هذه النبرة.

نشير هنا إلى استخدامه لكلمة "نبع" للدلالة على العدو "نبع الجريمة" وهذه صورة لم يوفق شاعرنا في استخدامها، فإن كلمة النبع بما لها من معانٍ تتسم بالطبيعة، والعطاء المتدفق والتجدد كانت غير مناسبة، وكان من الأوفق لو استخدم كلمة توائم ما قصد إليه كمثل "وكر" ذلك لأن النبع حتى لو طمرناه بالتراب، فإن ينابيعه لن تفتأ تتفجر ثانية.

وهذا الحديث يجرنا للإشارة إلى لغته البسيطة التي استخدمها فهي تقارب لغة الحديث اليومي وذلك كما يرى ت. س. اليوت لا يعيب الشاعر فإن "مهمة

الشاعر أن يستعمل اللغة الشائعة في محيطه – اللغة التي توثقت الألفة بينه وبينها".

إننا لا نريد من الشاعر أن يعطينا نسخة تامة عن لغته المحكية، لغة أهله وأصدقائه وأبناء مقاطعته، غير أن ما يجده في محيطه هذا، هو المادة التي يصنع منها شعره، إنه كالنحّات يجب أن يظل أميناً للأداة التي يشتغل بها، ثم إنه من الأصوات التي وعاها يجب أن يوقع أنفاسه ويبعث فيها ما تكتمل به من انسجام"(الشعر بين نقاد ثلاثة ص- 8).

ويمكننا القول أن الشاعر هنا استخدم اللغة السهلة البسيطة مبتعداً عن التكلف ليبعث في قصيدته الانسجام، مدركين الدور الجماهيري الذي تحققه قصيدة في الأرض المحتلة بلغة تقترب مفرداتها من لهجة الحديث اليومي، وقد أشرنا إلى استخداماته اللغوية البسيطة فيما سبق.

ويمكن أن نتساءل ماذا حققت القصيدة باستخدامها أسلوب المقاطع..؟

لقد تابعنا القصيدة في مقاطعها الثلاثة، وأشرنا في البدء إلى أن القصيدة هي حديث شهيد للأحياء، ويمكننا القول بأن الحديث اتسم بمنطقية واقعية ذات ثلاثة جوانب هي: نداء – وتساؤل – ثم إجابة

وكان منطقياً أن تقسم القصيدة إلى ثلاثة مقاطع:

- المقطع الأول: هو النداء ويبدأ الشهيد فيه بالتعريف بنفسه ثم يناشد الأحياء.

- المقطع الثاني: هو التساؤل الأساسي، والذي يشكل التضاد التعبيري الرئيسي إذ يبدأ بقوله: سألناكم لا نريد على القبر ماء وزهراً".

- المقطع الثالث: هو الإجابة وإن اشتمل في بداية حديثه على سؤال للأحياء لكنه حقيقة إجابة عن التساؤلات في المقطع الثاني إذ يبدأ بقوله:

"سألناكم أن تغنوا لأرضكم الباقية"....الخ.

هذه هي قصيدة محمود درويش ببساطتها وبقدرتها على إيصال الفكرة إلى الجمهور وقربها من تذوقه أيضاً.

الباب الثاني

الفصل الرابع

توفيق زيّاد والبعد الدرامي في أشعاره:

من دراميـة الحياة إلى دراميـة القصيدة

مدخل:

حينما تسللت إلينا قصائد شعراء الأرض المحتلة كانت اكتشافاً ساحراً، كان صوت شعراء الوطن المحتل صوتاً قوياً وأصيلاً وصارخاً.

بعد هزيمة حزيران 1967 بدا لنا وكأن هناك أخوة لنا منزرعون في أرضنا، يدافعون عن جذورنا فيها، ويحمون وجهها العربي دون أن نعرف شيئاً منهم. بعد عام 1967 بدأ الاكتشاف لشعراء الوطن المحتل... بدأت الصحف والمجلات الأدبية تنشر لهم، وترافق مع ذلك دعوات إلى اكتشاف العدو الصهيوني الذي هزم ثلاث دول عربية في ستة أيام واحتل من الأراضي أضعاف ما كان محتلاً. إذ ذاك كان علينا أن نعيد اكتشاف العدو واكتشاف الذات.

في ظل صدمة الهزيمة قام مركز الأبحاث الفلسطيني بدور مهم في في اكتشاف العدو في سلسلة من الدراسات التي عرّفت بالفكر الصهيوني والتعريف بكيان العدو . ومن ضمن اكتشاف الذات العربية كان الاحتفاء بشعر المقاومة في فلسطين المحتلة، احتفاءً بشيء مفقود عثرنا عليه، كما اكتشاف الأطفال لعالم ساحر، كان اكتشافاً يغطي خيبة الأمل، والإحساس بعار الهزيمة... ها هم هؤلاء المنزرعون في الأرض يعلموننا المقاومة والصمود والبطولة... ها هم أشقاء

الروح يدفعون ضريبة بقائهم وصمودهم وقاتلوا ويقاتلون بالكلمة ويدافعون عن الأرض متشبثين بها. لقد تسلسلت إلينا أشعارهم وأعيد طبعها مراراً، وتبارت المجلات والصحف اليومية في نشر أعمالهم.

*وهكذا قرأنا قصائد لتوفيق زياد لغتها التحدي والمقاومة والثورة والأمل مثل قصيدة (**هنا باقون**):*

هنا على صدوركم باقون، كالجدار

نجوع .. نعرى .. نتحدى..

ننشد الأشعار

ونملأ الشوارعَ الغضاب بالمظاهرات

ونملأ السجون كبرياء

ونصنع الأطفال.. جيلاً ثائراً .. وراء جيل

كأننا عشرون مستحيل

في اللدّ، والرملة، والجليل..

إنّا هنا باقون

فلتشربوا البحرا (الديوان ص- ص 199- 198)

ومثل قصيدة " **أهون ألف مرة** " التي يعتمد فيها أسلوب المفارقة باستحضاره للمحتلين من خلال توجيه خطاب مباشرلهم :

أهون ألف مرهْ !

أن تُدخلوا الفيل، بثقب إبرهْ

وأن تصيدوا السمك المشويّ..

في المجرّة

....

أهون ألف مرّة ..

من أن تميتوا، باضطهادكم، وميض فكره

وتحرفونا، عن طريقنا الذي اخترناه قيد شعرة! (الديوان ص- ص 270- 271)

ومثل قصيدة " بأسناني " التي استطاعت ببساطتها الآسرة ولغتها التي تقترب من لغة الحديث اليومي ، أن تعبّر عن مدى الارتباط بالوطن والصمود والاستعداد للدفاع عنه والتضحية من أجله ، وحينما يعبر الشاعر عن ذلك فهو يميل دوما لاستخدام البلاغة الشعبية ، مثل كنايات (بأسناني سأحمي كلَّ شبرٍ من ثرى وطني ، لو عُلِّقت من شريان شرياني)

"بأسناني

سأحمي كلَّ شبرٍ من ثرى وطني،

بأسناني

ولن أرضى بديلاً عنه

لو عُلِّقت من شريان شرياني "

وحين يعبر عن محبته لوطنه نراه يستخدم لغة رقيقة ويكرر أنا باق لتحمل معها العزم والإصرار وعدم التنازل :

" أنا باقٍ،

أسيرَ محبّتي.. لسياج داري...

للندى... للزنبق الحاني...

أنا باقٍ،

ولن تقوى عليَّ

جميع صلباني

أنا باقٍ،

سأحمي كلَّ شبر من ثرى وطني

بأسناني!!.. (الديوان ص ص 129- 131)

من مثل هذه القصائد طارت شهرة شعراء الأرض المحتلة في آفاق الوطن العربي ،لتصل القراء العرب وتكون معادلا تعويضيا لاحساسهم بهزيمة حرب 1967 تزرع في نفوسهم الأمل في الصمود والمقاومة والتشبث بالوطن، وتلقت قصائدهم ترحيبا تجاوز مستوياتها الفنية بكثير ،وهذا ما حدا بمحمود درويش أن يصرخ

بندائه الشهير " أنقذونا من حبكم القاسي " . وأدرك عزالدين المناصرة في وقت مبكر طغيان المضمون المقاوم لشعر الوطن المحتل على بنائه الفني ،وكان ذلك في تقديمه لديوان توفيق زيّاد الذي صدر عن دار العودة في بيروت (1970) . وقد أصبح رواج شعر الأرض المحتلة مدخلا لتجارة ناجحة لبعض دور النشر وعلى الأخص دار العودة في بيروت.

ولا يغيب عن بالنا الدور المبكر لبعض الإصدارات التي عرفت بالشعر الفلسطيني في ظل الاحتلال مثل - ابراهيم أبو ناب: في الأفق الجديد1966 ودراسات غسان كنفاني1966 /1968والدراسات التي كانت تنشرها مجلة الآداب

وكتب رجاء النقاش 1969وعبدالرحمن ياغي1969 وهاشم ياغي وهارون هاشم رشيد وغالي شكري ويوسف الخطيب الذي أصدر عام 1968سفرا ضخماً موسوما بديوان الوطن المحتل .

صورة شخصية: الشاعر ودرامية الحياة

نكتشف في السيرة الذاتية لتوفيق زيّاد - الذي عاش خمسة وستين عاماً - شخصية مثقف عقائدي مناضل ملتزم... وبشكل مفاجئ يموت في حادث سيارة ليعلن عن درامية موته كما كانت حياته .

كانت حياته باختصار عملا دراميا متصلا فهي حركة وفعل وإنجاز فردي وجمعي ، فقد توفي والده وهو صغير ليعتمد توفيق على نفسه.

كان والده متديناً ورعاً حفظ القرآن عن ظهر قلب وتعمق في دراسة الدين وأحكامه ليصبح مرجعاً دينياً رافضاً للتعصب الديني. أما هو فلم يكن متديناً ولكنه احترم الدين وكره التعصب الديني والطائفية.

وانخـرط في العمـل السياسـي في عصبة التحـرر الـوطني، وشـارك في المظـاهرات وانضـم إلى الحـزب الشيوعي، وناضـل مـع رفاقـه ضـد الترحيـل ومصـادرة الأراضـي والتجهيل، وعمل بين العمال واحداً منهم، وتبلورت شخصيته قائداً شعبياً وسجن مراراً.

وهو شخصية قيادية جريئة ، فعندما كان عضوا في مجلس بلدية الناصرة طلب من مدير شرطة الناصرة مغادرة جلسة المجلس البلدي.

ويوضـع توفيـق زيّـاد هـو وزمـلاؤه في القائمـة السـوداء ويعتقـل مـرات عديـدة وتفرض عليه الإقامـة الجبريـة حتـى عـام 1973 حين انتخب عضواً في الكنيست. كان مناضلا وقياديا شيوعيا، ولايخفى أن العقيدة الماركسية تركت بصماتها علـى حياتـه وإبداعـه . والمتصـفح لأشـعاره لـن يخطـئ تلمـس جوانـب أيدلوجيتـه وانعكاسـها علـى مجمـل أعمالـه . إذ سـيجد لـه مجموعـة بعنـوان " شـيوعيون" قصـائدها تُمجّـد بالشـيوعية، وتعـبر عن فكرهـا، وتنـافح عـن مناضـليها، وتمجـد قيادات ثوارها. كان زياد يعيش حياة تمتاز بالحيوية والعمل والتحدي، بالاضافة إلى معانـاة يوميـة في ظـل محتـل يعمـل علـى طمـس الهويـة، وإذابـة الشخصـية القوميـة، ممـا يجعـل حياتـه فـرداً يعـيش حيـاة دراميـة لشـعب تشـتت في أنحـاء المعمورة، ونهبت أراضيه وغيّبت شخصيته الوطنية .

وهكذا نجد صورة شخصية للشاعر في مجمل أعماله . نضاله والتزامه الفكري، وإيمانه الوطني وحماسه القومي، والتزامه الأممي، كلها عناصر تتداخل لتجسد جوانـب عقيدتـه السياسـية في أشـعاره ، ولتعـبر عنهـا في مضـامين لا تـراوغ ولا تتخفـى في إهـاب الرمـز، ولـذلك يمكننـا تقصـي جوانبهـا الفكريـة مـن خـلال آراء منبثة في قصائده بشكل سافر ، فهو مناضل أممي لـه هَمّه الـوطني والقـومي ،ولا يجد غضاضة في أن يكون صوتا تحريضيا مباشرا ليصل بكلماته إلى الجمهور ،

في ظروف تستدعي الوصول إلى جمهوره بلغتهم، لتصوير معاناتهم وسردها في إطار حكائي، لأن الحكاية أقدر على جذب الاهتمام، وخصوصا حينما تزاوج بين الحكاية والشعر، وكأنه يعيد للدراما مفهومها القديم الذي ارتبط بالشعر منذ سوفوكليس ويوربيدوس والإلياذة والأوديسة .

يلاحظ جورج لوكتش في كتابه الخاصية كمقولة جمالية (1957): " أن كل تصوير جمالي للواقع هو مليء بالانفعالات، لا كما في الحياة اليومية حيث توجد أغراض بمعزل عن الوعي الذي ترافق إدراكه الحسيّ الذاتي انفعالات، بل بحيث أن الانفعالية تصبح عنصراً مؤلفاً ضرورياً في التكوين الفني للغرض الذي نعتبره في خاصيته " . (هنري أرفون: الجمالية الماركسيّة ص : 67)

والمتابع لأعمال زياد يمكنه أن يلحظ كيف ينقل شاعرنا أحاسيسه وتجاربه اليومية إلى أشعار ملتزمة ،فهي قصائد تطغى الانفعالية على بعضها ، كما يطغى على بعضها الآخر البعد الأيدولوجي . استطاع الشاعر أن يُغطّي على جوانب المباشرة وطغيان الفكرة على الشاعرية في قصائده باستخدام القصيدة الدرامية ، وهذا ما تعجز عنه القصيدة العادية ، التي تتناول الأحداث اليومية التي تنقل الفكر وتعبر عن الأيدولوجية.

وفي عرف جورج لوكتش فإن الفن " يعطي صورة للواقع حيث المقابلة بين الظاهرة والجوهر. وبين التميّز والقانون، وبين المباشرية والمعنى المجرد، الخ .، هي من الاندماج بحيث أن الطرفين المقابلين يتطابقان في الشعور المباشر الصادر عن النتاج الفني في وحدة عضوية، وأنهما يشكلان، بالنسبة إلى الإنسان الذي يتقبلهما، وحدة متصلة" . (هنري أرفون: الجمالية الماركسيّة ص : 63)

صورة من حياته في شعره الدرامي :

يقـول ن. أ. دبوليوبُـف: "لـيس الفنـان لوحـة حسّاسـة تصـويرية لا تعكـس إلا اللحظـة الحاضـرة: ففـي الحـال هـذه، لا وجـود لحيـاة أو لمعنـى في النتـاج الفـني. وعنـدما يباشـر الفنـان الحقيقـي إبـداع نتاجـه، فهـو يملكـه قبلاً، تمامـاً وكليـاً في روحـه مـع بدايتـه ونهايتـه، مـع دوافعـه القيّمـة ونتائجـه الخفيّـة الـتي لا يـدركها الفكر المنطقي بل تكشف عن نفسها في النظر الموحي الذي يتمتع به الفنان".(هنري أرفون: الجمالية الماركسيّة 1982ص- 60)

وهكذا كـان شـاعرنا الـذي عـاش تجربـة ثريـة ، لمناضـل يعـيش مـع النـاس، ويعمـل من أجلهم، لذا نقل تجاربه وتجارب شعبه التي امتلكها، مستهدفاً بـذلك توصيل رسالة هادفة، لـذلك كـان شـعره ملتزمـاً يُثير فينـا جملـة مشـاعر ويكـرس الـوعي الوطني إذ إن (...إثارة الشعر للنظر والتفكير والإحساس ... تجعلنا أكثر وعياً إذ هـي تكشـف ملكاتنـا وتوسـعها، وبهـذا تجعلنـا أكثـر فهمـاً وإدراكـاً لحياتنـا وحيـاة الآخـرين. وهـي تجعلنـا نتجـاوز سـطح تجاوبنـا العـادي بمـا تحدثـه مـن تفسـيرات منعشة متجددة للبديهيات، وتعبيرها عنها وبما تحدثه من إرضاء يسد النقص في بصـائرنا وتعبيرنـا. ذلـك لأن الشـعر الجيـد لا يتنـاول أبـداً الأفكـار والعواطـف والأحاسيس التي لم نحس جميعنا بها على نحو مـا. (اليزابث درو الشعر كيف نفهمه ونتذوقه- 126)

كما يتضح من مجمل أعمال الشاعر أن مهمته ليست هدفا جماليا للامتاع، بل يتعـداه إلى أن يخلـق الإحسـاس الشـعري لـدى النـاس الـوعي، علـى مسـتوى فـردي وجمعي، يماثل لديه رؤية ستيفن سبندر لدور الشاعر التوعوي :

(إذا كان في مقدور الإحساس الشعري أن يخلق لدى الناس وعياً بحياتهم فلا بـد أنهـم سـيتخذون الخطـوات اللازمـة للـدفاع عـن أنفسـهم. أمـا إذا كـان لـديهم

إحساس مشوه بقيم الحياة، وإذا كانوا يخلطون بين قيم الحياة وبين مصالحهم المادية أو مصالح فئة معينة صغيرة، فالشاعر هو الذي يعبر عما هو موجود حينما يتحد هذا الموجود عن طريق التجربة بوجود الشاعر.(ستيفن سبندر62 - 63)

وقد لاحظ ستيفن سنبدر ما يواجه الشاعر الذي يرغب في الكتابة عن الأحداث العامة والمشكلات التي تواجهه حينما يعبر عنها، كما فعل شاعرنا في مواجهة الاحتلال، يقول ستيفن سبندر:

"ولكن مشكلة كتابة الشعر عن الأحداث العامة هي في الوقت نفسه مشكلة حقيقية عند بعض الشعراء لا للشعراء جميعاً. ويبدو هذا الآن في النقاش الدائر حول شعر الحرب. لقد سخر بعض النقّاد المغرورين من الرغبة الشعبية المبتذلة لدى الناس في أن يكتب الشعراء عن الحرب خاصة. لكني لا أعتبر رفض هذه الرغبة أمراً بهذه البساطة. فمن الطبيعي أن يطلب الناس من الشعراء أن يجعلوا واجبهم (أولاً) التعبير عن الأحداث الفعلية للحرب و (ثانياً) إلقاء ضوء على ما نحارب من أجله وما نحاربه، ما نناصره وما نعاديه. ولكن الضمير الشعري كما حاولت أن أبيّن من قبل يكاد ينزع بالضرورة إلى تحويل نفسه إلى الضمير الاجتماعي وإن كانت نتيجة ذلك غير مرضية دائماً من الوجهة الجمالية.(ستيفن سبندر176- 178)

وتمثل تجربة زيّاد حين اعتقل بتهمه الشغب في الناصرة عام 1954 مثالا حيا لنموذج الحياة الدرامية التي عاشها (ص 7من السيرة). حيث ذاق تجربة سجون المحتل في غير مرة ، وقد جسد لنا معاناته في أكثر من قصيدة ؛ مثل قصيدة من "وراء القضبان" التي تحكي عن تجربته في سجن الرملة ، أما قصيدة "سمر في السجن" فتحكي عن تجربته في سجن الدامون ، وهي قصيدة من خمسة مقاطع، تختلف إيقاعاتها المتماوجة، لتتناسب مع دلالاتها وأبعادها العاطفية ، فالقصيدة

تروي حكايته في السجن من خلال استدعاء الذاكرة لمرارات السجن، ومعاناته مع رفاقه وأحلامهم المشتركة ، وهكذا تبدأ القصيدة بكلمة أتذكَّر.وتأكيدها بقوله إني أتذكَّر..لتعلن عن تجربة يجب ألا تتجاوزها الذاكرة فحسب بل تستدعي منا الانتباه ومعايشتها :

أتذكَّر.. إني أتذكَّر..

((ألدامون)).. لياليه المرّة، والأسلاك

والعدلَ المشنوقَ عل السور هناك

والقمرَ المصلوبَ على.. فولاذ الشُّبّاكْ

ومزارعَ.. من نَمشٍ أحمر

في وجه السجّان الأشقر... (الديوان ص ص113- 114)

وينتقل ليخاطب شعبه في مقطع من القصيدة بعنوان "السجن" بإيقاع مختلف تتنوع فيه القوافي بين قافية فيها المد، لتشعرنا بحرارة النداء الذي يوجهه إلى شعبه، وسكون الهاء التي تشعرك بالألم والمعاناة في ظل عذابات السجن :

يا شعبي.. يا عُود الندِّ..

يا أغلى من روحي عندي

إنا باقون على العهدِ

لم نرضَ عذابَ الزنزانة

وقيودَ الظلم، وقضبانه

ونُقاسِ الجوعَ وحِرمانه

إلا لِنفُكَّ وثاق القمر المصلوب

ونعيدَ إليكَ الحقَّ المسلوب   (الديوان ص - 119)

و يقدم في قصيدته من وراء القضبان(الديوان ص.ص 102- 112) تجربته من سجن الرملة في أيار 1958 في أربع لوحات، ليؤكد روح الصمود وقوته التي تزداد مع رفاقه المعتقلين في غرفةٍ سوداءَ، يعلو بها صوت نشيد عشرين سجينا من أبناء شعبه، كأنه قصفُ الرعودِ، ولا يأبهون بسجانهم ولا بالقيود .

في اللوحة الأولى يخاطب الشاعر سجّانيه - الذبن ينعتهم بالطغمة- بروح متحدية ولغة متمردة ذات ضجيج :

(يا طُغمةً أسقيتها... كأس المذَّلة، من قصيدي

مرَّغتها في الوحل حتى جيدِها، ونصبتُ جيدي

وبصقتُ ملءَ عيونِها حقدي على عيش العبيدِ

يا طُغمةَ المسخِ الجبانِ يضجُّ – مَوتور الوعيد

لا تحسبي زَرَدَ الحديد، ينال من همَم الأُسودِ" (الديوان ص 103)

ثم ينتقل في ذات المقطع إلى وصف وضعه في غرفة السجن السوداء مع رفاقه الذين ينشدون نشيدهم ويغرقون به صوت سجانهم:

في غرفةٍ سوداءَ – لولا ..حزمةَ النورِ البديد..

يعلو بها صوت النشيد، كأنه... قصفُ الرعودِ

يأتي إلينا يلهث السجَّانُ، كالذئبِ الطريدِ

ويصيح: ((ما هذا..)) فيُغرقُ صوته موجُ النشيدِ (الديوان ص 104)

في اللوحة / المقطع الثاني يصور لوحة تبرز التناقض الذي يحاول السجّان فيه أن يغلق عليهم الأبواب لتحول دونهم والحياة الطبيعية ، لذا نراه يصرخ في وجه سجّانه :

يا حاملَ المفتاحِ ما شوقي لأكلٍ أو شرابِ

كلا.. ولا للقاءِ أُمٍ قد تعوَّدت اغترابي

لكنه للشارع المطاول فيهِ دَمُّ الشباب

زحفتْ جوانُبه بشعبٍ غير مَحْنيّ الرقابِ

وفي غرفة السجن السوداء تظل هناك كوة صغيرة، قادرة لتصله بالعالم الخارجي، ليرى روابي الكرمل والخور والشعاب والهضاب، ومن خلال الكوة تتجلى مظاهر الطبيعة الفاتنة التي يصفها بلغة رقيقة يعبر بها عن شوقه لربوع الوطن، بتفاصيل تبرز طبيعة وطنه الجميلة، التي تفوق شوقه لأمه :

دارت يد السجّان بالمفتاحِ، تُغلق كلَّ بابِ
إلا بقايا كُوَّةٍ من خلفها تبدو الروابي
ويلوح رأس الكرمل المخمور بُرقِعَ الضباب
الفجر فوق جبينه المعتزِّ كالعاجِ المذابِ
وتلوح بين شعابه الخضراء في كنَف الهضاب

أعشاش عشاقٍ تطوِّفُ حولها قُبَلُ الشباب

وأزاهرٌ مكحولةٌ، وكأنهامُقَلُ الكعابِ

والريح تهمس للصّنوبْرِ، للبراعمِ، للغياب

يا طيبَ تلك الوشوشات، كأنها همس التصابي

غمَزتْ جوانحنا، فهاجت بادِّكاراتٍ عِذابِ (الديوان ص:ص 105 - 107)

وفي اللوحة /المقطع الثالث لوحة تصور عزيمة المقاومة لدى هؤلاء الشباب المعتقلين الذين يمتلكون عزما كالرياح العاصفة، وروحا عربية وحبا لشعبهم المظلوم اللاجئ في الخيام، التي أذبلها الحنين إلى الرواحِ، ليقرر أن كل الشوق مشروع للشعب الذي اعتاد على التضحية، إذ إنه:

ما ضاع حقٌ.. خلفه عيناكَ، يا شعب الأضاحي. (الديوان ص 111)

في اللوحة الختامية /المقطع الرابع عود على بدء لوحة تعود لتخاطب طغمةَ الحكامِ ، بلغة ذات نبرة عالية وحادة تقترب من اللغة التقريرية المباشرة ، فيها التحدي والأمل في المستقبل ، ويستخدم فيها أداة النداء المباشر لسجّانيه، ويقول :

يا طغمةَ الحكامِ زيدي هل لاضطهادك من مزيدِ....؟

ألقي القيودَ على القيودِ

سوداءَ، باردة الحديد

سيعود شعبي في ضياءِ الشمس من خلف الحدود

سيعود للطّلَل المهدَّم يبتنيه من جديد

سيعود للأرض الحبيبةِ، للزنابق، للورودِ

سيعود.. رغم النار، والأغلال خفَّق البنُودِ (الديوان ص 111- 112)

عناصر درامية في القصيدة

يمكن لأي دارس لأعمال توفيق زياد أن يلحظ اهتمامه بالقصيدة الدرامية، التي أخالني لا أجافي الحقيقة إذا قلت إنها من أهم خصائص شعر توفيق زياد. وقد بدأ ذلك مبكراً في قصيدته كفر قاسم (1956) التي يروى فيها أحداث المجزرة، بأسلوب وصفي تقريري ومن خلال متابعة لأعماله فإننا سنجد أن هذا اتجاه راسخ في أعماله من بداياتها وحتى آخر أعماله الذي صدر بعنوان " أنا من هذه المدينة " ليشكل ذلك الاتجاه علامة مميزة لأشعاره.

وترى اليزابث درو أن الشعر في طبيعته يمتازبعنصر الدراما، إذ إن (الشاعر – دائماً – يخاطب شخصاً آخر بطريق مباشرة أو غير مباشر، وقد يكون هذا الشخص هو القارئ أو انساناً ما ذا دور في حياته، أو عواطف متباينة تلعب دورها في محيط وعيه. وهو دائماً يتقمص شخصية ما، إما شخصية نبي أو محب أو مفكر أو راث أو ساخر أو هجّاء. وقد يكون في دوره الذي اختاره فرحاً، أو متحدياً، أو يائساً، أو حاقداً، أو متسائلاً، أو مطمئناً. (اليزابث درو الشعر كيف نفهمه ونتذوقه 91).

والعنصر الدرامي الذي تحدثت عنه اليزابث درو موجود في العديد من شعره ، إذ يمكن متابعة التسلسل التاريخي لأهم أشعاره الدرامية، وهي ليست حصرية، كما يلي:

"كفر قاسم 1956، رمضان كريم 1960، رسالة عبر بوابة مندبعوم 1960

إلى عمال موسكو 1961، مقتل عواد الإمارة 1966، سرحان والماسورة 1967 حادث ليلي 1968، عثمان 1969، موت صديقنا الصغير عمر 1991 عدنان وعدنان جديد 1991، قصائد ايبي نتان 1991."

اللغة الدرامية والحوار :

تمنحنا اللغة الشعرية الدرامية إحساساً بنمو الفكرة تدريجياً ومعايشتها من خلال الحدث أو الشخصية، مما يحقق للغة الدراميةقوتها وفوريتها في التأثير. ولذا تمتلك اللغة الدرامية قدرتها على إثارة المشاعر ،سواء كانت إثارة السرور أم إثارة الحنق ، ويصر توفيق زيّاد على اختيار ألفاظ عامية تتسم بالحيوية ويمزجها في سياق الوحدة الكلية لقصائده، التي تخلق تأثيرا قويا لإيصال تجربته إلى جمهور عريض .

تمتاز لغة القصيدة عند شاعرنا بكونها صوت التعبير عن الأنا، باستخدامها ضمير المتكلم، مثلما فعل حين عبّر عن محبته لوطنه، بلغة رقيقة بقوله "بقوله أنا باق، ويكرر الجملة لتحمل معها العزم والإصرار وعدم التنازل:

"أنا باق،

أسيرر محبتي .... لسياج داري....

للندى .... للزنبق الحاني...

أنا باق،

ولن تقوى على

جميع صلباني

أنا باق،

سأحمي كل شبر من ثرى وطني

بأسناني !! (الديوان ص 129- 131)

وتقول اليزابث درو:

تنحصر صناعة الشاعر في تحويل الألفاظ إلى أعمال.. .. وكلما كان الشاعر أصيلاً كانت ألفاظه تنضح بالقيم، فتتقطر من ألفاظه الموسيقى والمعنى والذاكرة والبساطة والزخرفة والصورة والفكرة والقوة الدرامية والتركيز الغنائي والعبارة الصريحة والكناية واللون والضوء والقوة.. (اليزابث درو الشعر كيف نفهمه ونتذوقه: 91)

ولغة القصيدة الدرامية عند توفيق زيّاد فهي لغة تفاعلية تختلط فيها الأصوات ويتم التعبير عنها بأكثر من مستوى، فيستخدم الشاعر ضمائر المخاطب والغائب، وتشعرنا ضمائر المخاطب بمعايشة العالم ، الذي يكتب الشاعر عنه ، واستخدام ضمائر الغائب تنقلنا إلى عالم شبيه بالسرد، والقصيدة الدرامية تفترض طرفاً آخر تخاطبه، سواءً كان شخصية من شخصياتها الفاعلة أم غير الفاعلة لذا تكثر من استخدام أسلوب الحوار، وضمائر المخاطب والإكثار من استخدام النداء والاستفهام والتعجب وصيغة الفعل الماضي السردية.

والحوار ضروري، باعتباره تبادلا للكلام بين اثنين أو أكثر، إذا أريد للدراما أن تخلق موقفاً غير أن (... من خصائص الحوار الدرامي في خير مظاهره أن تبدو كل لفظة وكأنها مدفوعة إلى الانطلاق بما سبقها، فيما تبدو مرة كأنها نوع من الصراع (توتر بين الشخوص) ومرة أخرى كأنها تعاون يفسر طبيعة الموقف). (س.و.دَاوسن : 39- 40)

وتقابلنا في قصيدة سرحان والماسورة لغة تتسم ببساطة الحوار ، ولكنها تفجر الحنق والغضب، إنها لغة متوترة تعتمد على الحوار والاستفهام ، في حوارية

مفترضة بين سرحان وأهل قريته، الذين طالبوه بالانضمام للنضال، لكنه أجابهم ((مالي وما للآخرين)).

في المقطع الثاني من القصيدة المعنون بـ" قبل ذلك.. عندما لم يفهم سرحان "

نقرأ الحوار الذي دار بينه وبين أهل قريته:

عندما قالوا له: سرحان.. يا سرحان..
هل تقدر أن تفعل شيئاً للوطن؟))
هز كتفيه: ((أنا..؟؟ يا ناس خلوني بعيداً عن
حكايات الوطن!))
عندما قالوا: ((سرحان.. يا سرحان..
هيا للجبال))
هز كتفيه: ((أنا..؟؟ من أين، ان جعت، ستأتي لقمة الخبز
الحلال))
عندما قالوا له: ((سرحان.. يا ابن الكلب.. انظر
شعبك العبد الطعين))
هز كتفيه: (أنا..؟؟ ما دام جلدي سالماً،
مالي وما للآخرين؟)
لعنة الله..
على شكلك..
يا كتلة طين..!!
لعنة الله عليه.. ما فهم (ص ص 385- 384)

يقول س.و.دَاوسن في تعليق على قصيدة بالإنجليزية لجورج هربرت وينطبق تحليلها على قصيدة زيّاد وهي تقودنا إلى فهم درامية اللغة عنده : "ولعل (الطوق) بقلم (جورج

هربرت) خير نموذج في الإنكليزية لإبراز دور اللغة الدرامية في خلق الحركة ضمن إطار قصيدة قصيرة. وعلى الرغم من أن القصيدة تبدأ وتنتهي بصيغة حكاية الماضي، فإن لغتها تخلق شعوراً بالحركة الآنية – الإيحاء بالحركة الجسمية العنيفة القلقة، الاستفهام والتعجب، التغيرات الصوتية الآسرة – بحيث أن المرء ليجد نفسه في معمعة هذا الصراع بين الروح وذاتها. ويقرب أثر ذلك من أثر الحوار، بصوت شاك يمتاز بنغمة نائحة شجية.(س.و.داوسن ص 35)

ولغة زياد هنا تنسجم مع وصف داوسن السابق فهي متوترة توتراً صارخاً، حيث يتحاور الصوتان باتجاهين متضادين تماماً ؛ ليجسد الحوار ولغته بذور الدرامة القصيدة. فهي تصور لنا سرحان اللامبالي بهموم الوطن، والذي يطالب بأن يكون بعيداً عن مثل هذه الهموم، لأن له همومه الشخصية، ولذا يرفض دعوتهم له للذهاب إلى الجبال، ويصر على أن له أولوياته الخاصة

(أنا ؟ من أين إن جعت، ستأتي لقمة الخبز الحلال) والحوار بحيويته واستخدام مفردات وتعابير اللغة اليومية يظهر لنا بساطة / أو سذاجة سرحان، ومن خلال حوار ساخن يصل إلى حد الشتائم (لعنة الله على شكلك يا كتلة طين) تتجسد درامية القصيدة من خلال اللغة.

وتعتمد هذه اللغة على الحوار واستخدام تعابير وشتائم من اللغة اليومية مثل :

"يا ناس خلّوني بعيداً"

"لقمة الخبز الحلال"

"ما دام جلدي سالماً مالي وما للآخرين "

واستخدام شتائم من الحياة اليومية مثل:

"لعنة الله على شكلك يا كتلة طين"

"سرحان يا ابن الكلب"

"لعنة الله عليه"ما فهم (الديوان ص. ص 384- 385)

ولعل هذه القصيدة كافية لإبراز دور اللغة الدرامية في خلق الحركة ضمن إطارها، وتبدأ القصيدة، وتنتهي بصيغة حكاية الماضي:

(كانت الدنيا مطر

وصفير الريح، في الأذنين، وحش وجأر

وعلى الوجه يصير البرد، شوكاً وإبرا

كانت الدنيا مطر

وظلام الليل كالفحمة.... لا نجماً يضوي، أو قمر

إنما سرحان كالقط، يرى الإبرة في الليل الكثيف

إنه يعرف هذي الأرض كالكف... كما

يعرفها كلب الأثر

كانت الدنيا مطر) (الديوان ص: 381- 382)

ونشعر إزاء وصف سرحان بأن لغة القصيدة تخلق شعوراً بحركته الجسدية :

يقظاً مثل حمار الوحش كان

وككلب الصيد ملفوفاً خفيف

وشجاعاً مثل موج البحر كان

ومخيفاً مثلما النمر مخيف

يجد المرء نفسه، في معمعة هذا الصراع بين الروح الجماعية والروح الفردية، من خلال حوار يعتمد على الاستفهام والتعجب والنداء، ونشعر بأثر الحوار الدرامي علينا. فهذا الحوار ذو نغمة نائحة شجية، وهو يمتزج بصوت الجماعة المعاتب، وبصوت سرحان اللاهي عن حقيقة الدفاع عن الوطن:

هز كتفيه:

((أنا .... ؟ يا ناس خلوني بعيداً عن حكايات الوطن !))

عندما قالوا: ((سرحان .... يا سرحان .....

هيا للجبال))

هز كتفيه : (أنا ...؟؟ من أين ، أن جعت، ستأتي لقمة الخبز الحلال؟))

عندما قالوا له : ((سرحان ... يا ابن الكلب ... انظر

شعبك العبد الطعين))

هز كتفيه : (أنا ....؟؟ ما دام جلدي سالماً ،

مالي وما للآخرين ؟) (الديوان ص385)

وفي وقت مبكر عام 1960 يكتب الشاعر قصيدته الدرامية "رمضان كريم"، وهي صورة شعبية، يروى فيها الشاعر استقبال العيد لحارة فلسطينية، تجمع أهلها ليلة العيد، في بيت "أبي عبد الرحمن"، حيث يقدم صورة لما يجري في اللقاء . لتصبح الحارة هذه رمزاً للشعب الفلسطيني .وتصف القصيدة الأشياء المعتادة في حياة الفلسطينيين في مثل هذا اللقاء "تجمعت الحارة تفتل كعك العيد" وتجمع السُّمار حلقات، والنسوة حول وجاق العجين" ويلعبون الصينية". وهناك الغزل الخفي بين شاب وشابة، وهناك الشيخ الذي يعد أماً بكتابة حجاب لطفلها، وهناك كانون النار ، وهناك متابعة أخبار الدنيا... هناك شخص له أحلام فردية بالحصول على خاتم شبيك لبيك ومصباح علاء الدبن، وآخر له أحلام بأن يكون خاتم شبيك لبيك لخدمة الفقراء... ولكن الصوت الذي يعلو ويختم به القصيدة يكون

" اسكت يا ابن الهيك وهيك

يكفي مصّ أصابع

تكفي أحلام

هذا الشعب الزاحف بالإعلام

هو خاتم شبيك لُبيك

هو مصباح علاء الدين..!!"

وهذه الخاتمة المفاجئة تتسق مع البعد الرمزي للحارة، ومع تفاصيل الحياة اليومية، وهذه القصيدة مثلها مثل القصائد الأخرى، تركز على الوصف الخارجي ، وتستخدم لغة بسيطة، تقترب من لغة الحديث اليومي، مما يجعلها

قادرة على خلق جو درامي من خلال السرد، واستخدام المفردات العامية مثل زر الراديو / الليرات العصملي إلخ.

ويدير "أبو عبد الرحمن"

زر الراديو في رفق

فيسود الصمت- تسوح نفوس

وتضيء وجوه متعبةٌ

وتميل رؤوس

صوت كرنين الليرات العصملي

يتصاعد في دفءٍ وأمان:

"اتحدوا وأعدوا العدّة للظلام (الديوان ص 331)

واستخدام اللغة المحكية في القصيدة يمنحها حرارة التفاعل مع حوارات تمتد في ليلة السمر الرمضانية هذه:

قدّامي يرتعش المسكين

طلبي متواضع: الف جنيه صفراء

مهر ل "سعاد" ساحرتي السمراء

ورباع من زيتون

وعروق دوالٍ، مع بيت

من أسمنت

ليس كبيراً .. ليس صغير

مع حقلٍ .. أزرعه قمحاً وشعير

هل هذا

ياربّ عليـك كثير..؟"   (الديوان ص340)

ويقود استعماله للكلمات العامية والشائعة في معجمه الشعري، واتسام العلاقة بين الألفاظ، والايقاع بالتناسق، والحيوية إلى إثارة الانتباه، والاحساس بالرضى والسعادة لدى المتلقين .

الايقاع

يرى صمويل دانيال أن الشعر: "لن يرقى إلى مراتب الجودة والكمال، ولن يرضي أو يغذي فينا ذلك الإحساس بالبهجة، ما لم يلتئم ويترابط بتلك النقرة الصوتية المتكررة، التي تبدو وكأنها زمام، لولاه لظل الشعر مسيّباً، لا يستطيع أن يتماسك، بل لظل مندفعاً بلا نظام كوهم رتيب لا نهاية له" (اليزابث درو: الشعر كيف نفهمه ونتذوقه ترجمة: الدكتور محمد إبراهيم ص- 45) ونجد أن قصائد توفيق زياد اعتمدت على استخدام البحور البسيطة وهي على الترتيب بحر الرمل والمتدارك والرجز والكامل والوافر ولم يستخدم من البحور المركبة سوى الطويل والمديد والبسيط.

(... وليس الوزن إلا عنصراً واحداً من عناصر الجرس. ولا يمثل النظام الوزني في نفسه إلا الإطار الآلي، أو العرفي، الذي يستطيع الشاعر في داخله أو بارتسامه له أن ينمي الحركة الشعرية. وينصب العرف المأثور زخرفة من المؤثرات الصوتية المتكررة التي تمتع الأذن، ولكن إذا لم تؤد القصيدة شيئاً سوى تكرار هذه المؤثرات في رتابة دائمة فإن النتيجة ستكون مجرد خلق شيء يثير الضجر والملل. إنما نقرة الوزن المنتظمة بالنسبة للشاعر الحاذق هي الأساس، أو القاعدة التي يتباعد منها ثم يعود إليها، وهي عنصر في حركة أكبر، وتلك الحركة هي الإيقاع، والإيقاع يعني التدفق أو الإنسياب، وهذا يعتمد على المعنى أكثر مما يعتمد على الوزن وعلى الإحساس أكثر من التفعيلات. (اليزابث درو الشعر كيف نفهمه ونتذوقه ترجمة: الدكتور محمد إبراهيم ص- 50)

(وبما أننا ننتظر أن تكون اللغة أكثر تركيزاً فإننا نتوقع أيضاً تكثفاً في أحاسيسنا. ولكننا فوق ذلك كله ندرك جيداً أن الشيء الذي يفرق بين الشعر

والنثـر في المكـان الأول هـو تجربـة الأذن، ذلـك أن الشـعر كـلام يمتـاز بزخرفـة موسيقية.

وهكذا نجد أن زيّاد استخدم أوزان إيقاعية مختلفة تتراوح ما بين الشعر التقليدي والشعر الحر إذ بلـغ الشعر التقليدي مـن إجمـالي شعره نحـو الثلث واسـتخدم في غالبية قصائده وزناً واحداً. (صالح أبو أصبع : الحركة الشعرية في فلسطين المحتلة ص 392)

والأوزان الإيقاعيـة تختلـف اختلافاً بيّنـاً، وتـدفعنا لأن نسـأل: إلى أي مـدى يمكن أن يكون الشعر حراً؟ ففي الربع الأول من هذا القرن راجت بدعة تقـول بـأن الشعر يمكن أن يتخلص من كل النغمات المنتظمة مـن أوزان وقـواف. وقـد أعلنـت أديث ستويل "أن الشعر صنوٌ لفلاحة البساتين، بمعنـى أن كـل قصيدة تخضـع في نموها لقوانين طبيعتها". (اليزابث درو ص - 43).

وقد اسـتعمل زيـاد نمـط القصـيدة التقليديـة — كمـا اسـتعمل نمـط الشـعر الحـر ليحمـل نغمـة الحـديث العـادي — فيتفـاوت صـوت الشـاعر بـاختلاف الايقـاع عند قراءة القصيدة بانسياب البناء الشـعري فيهـا ، ويكـون الـوزن خاضـعاً للمعنـى الـذي قصـد إليـه الشـاعر ، فـالمعنى في القصـيدة وايقاعهـا مـن قافيـة ووزن ونـبر ينقلان الفكر والأحاسيس ، ولكـن بـالطبع لـيس هنالـك ضرورة تحـتم أن يكـون الإيقاع الشعري دراميـاً أو معقـداً لكي يدخل البهجة في نفوسنا، وإنما يشـتمل علـى جميـع النغمـات مـن الخطابـة الصـاخبة إلى العاميـة المبسـطة. ويتطلـب الـذوق الحـديث بـين الشـعراء أنفسـهم المهـارة الصـناعية الحاذقـة. ولا بـد مـن أن تكـون القصـيدة الغنائيـة مركّـزة مكثّفـة، ولا بـد مـن أن يكـون مبناهـا وثيـق السـدى واللحمـة، راقيـاً، ومـن ثـم يكـون مسـتوى الإبـداع عاليـاً. تلـك غايـة سـامية، ولكـن المحك الأخير في الشعر الغنائي هو أن يسمو، وألا تثقله الصنعة حتى تعيقـه عـن

التحليق، ومع ذلك فإن أكثر الشعر المعاصر يعوزه ما في الأغنية الخالصة من **إيقاعات**". (اليزابث درو الشعر كيف نفهمه ونتذوقه ص 56- 57).

البناء الدرامي

يرى اريك بنتلي في كتابه (الحياة في الدرامة) أن رؤية الدرامة في شيء ما تعني تبين عناصر صراع فيه والاستجابة عاطفياً إلى عناصر الصراع هذه. وتتألف هذه الاستجابة العاطفية من كوننا نثار بالصراع وندهش له. (بنتلي 1982: ص 8)
وتمتاز كثير من قصائد توفيق زيّاد ببنائها الدرامي ، لأن الدرامية هي الأقرب إلى تمثيل واقعية الحياة ، وبذا يصبح التساؤل الذي يطرحه اريك بنتلي أساسيا :

ما مدى الدرامية في حياتنا التي نحياها؟. لا ريب أن هناك من يقول إن العناصر الدرامية نادرة، وأن الحياة اليومية مملة ويعوزها الصراع. فكثيراً ما قيل عن الحياة إجمالاً إن الأمور تسير في دوائر لا تنتهي. وقد قيل ذلك أيضاً عن فترات وأماكن معينة. ولكن إذا لم تكن الدرامة أحداثاً وحسب، بل هي أيضاً استجابتنا العاطفية، يصبح السؤال عن مدى درامية الحياة أمراً ذاتياً في جزء منه. ما يجده الواحد مملاً، يجده الآخر مثيراً. وحتى الذي يرى الحياة إجمالاً غير درامية، سيلحظ ما يشذّ عن ذلك. (أريك بنتلي: ص- 8)

فالحركة الدرامية – بالرجوع إلى أرسطوطاليس – ((ذات فترة محددة))، ولها ((بداية ووسط ونهاية)). إنها تضم سلسلة من المواقف، تستولي على انتباهنا، وكل موقف ينشأ عما سبقه، مثيراً فينا توقع المزيد من التغير حتى نهاية الحركة التي يصفها (جونسن) بأنها (نهاية التوقع). إن بعضاً من هذه الصيغ البسيطة يمكن تجاوزه دون الالتفات للوسط الذي يتكون فيه كل من الموقف والحركة (س.و.دَاوسن اللغة الدرامية. ص 29)

يستخدم توفيق زيّاد الاطار الدرامي في كثير من قصائده ، ولعل اهتمام الشاعر بأن يوصل رسالته إلى الجمهور الواسع جعلته يلجأ إلى هذا الأسلوب . وتمثل قصيدة مقتل عواد الإمارة من كفركنا "مثالا للبناء الدرامي للقصيدة الذي يشبه الشكل المسرحي ، فقد جاءت في ثلاثة أصوات وصوت من بعيد وتهليلة جماعية".

تحكي القصيدة قصة مقتل عواد الإمارة بسبب الثأر، وهي تأتي كمشهد يمكن تمثيله مسرحيا بشئ يسير من الاضافة أو التعديل، وقد جاء بناء القصيدة مرتبًّا كما يلي :الصوت الأول ثم يتلوه الصوت الثاني ثم يتلوه الصوت الثالث، وتم تكرار الأصوات الثلاثة بنفس الترتيب لمرتين أخريين، ثم يعقب ذلك صوت من بعيد، ويتم اختتامها بتهليلة جماعية للأصوات الثلاثة .

يبدأ الصوت الأول وكأنه صوت الراوي الذي مهمته أن يصف لنا وصفا خارجيا في تصوير يكاد يكون سينمائيا لحادث مقتل عواد الإمارة:

على الإسفلت مات اليوم " عواد الأمارهْ "

رغيف الخبز في يده، وفوق الكتف فأسُ

رصاصاتٌ ثلاثٌ

جئنه يصفرْنَ

من صوب البيادرْ!!

وحتى اللمعة البيضاءَ

من عين

المسدّس، ما رآها

كان يحلم بالمطر. (الديوان ص- ص :244 - 245)

يتابع الصوت الثاني ما ابتدأه الصوت الأول، وكانت مهمته مكملة، إذ يصف لنا شخصية عواد الإمارة بجوانبها الأخلاقية ،ليبرز ايجابياته، مما يتيح للقارئ فرصة التعاطف معه :

كان عواد الإمارة

طيباً، شهماً، شجاعاً!

يطعم الأرض، إذا جاعت، جبينا وذراعا

كل ما كان..

رصاصاتٌ ثلاثٌ،

غبن فيهِ.. فتداعى !! (الديوان ص 245)

أما الصوت الثالث فهو يمثل صوت الراوي الشعبي، باستخدام أسلوب القص الشعبي [كان يا ما كان] الذي يصف به لنا سلوكه اليومي ، وعلاقته بالآخرين ، وطبيعته البدنية القوية كالصخر (كان كالصخر قوياً إن هوت قبضتهُ تصرع ثوراً)، ويصفه لنا باعتباره يمارس الأشياء المألوفة في حياتنا اليومية :

كان يهوى الضحك، والأطفال،

والتبغ المحلى

كان يهوى الرقص في الأعراس والشاي الثقيلْ

وحكايا الخيل والفرسانِ،والماء المعطر، والسياسة

والروايات التي يورثها الناس، هنا

جيلاً لجيلْ (الديوان ص 246)

لكنه يختم صوته بتذكيرنا بما قرره الصوت الأول عن طريقة موته، وكأنه في مفارقة مقصودة يريد أن يقول لنا أمثل هذا الإنسان يستحق هذا المصير؟

كان يا ما كان!

كان كل ما كان

رصاصاتٌ ثلاث

جئنه يصفرن ص

من صوب البيادرْ!! (الديوان ص 247)

ثم يعود مرة أخرى للصوت الأول ليصف عواد قبل مقتله ، ويصف الظرف الطبيعي الذي حصل فيه الحادث ،ويصفه بأنه كان طول اليوم مهموماً، مما يتيح فرصة للتوقع والنبوءة على الرغم من أن "الأفق ماطرْ" وأنه "مضى يفرك كفيه انبساطاً ويشم الريح، والغيم المسافر"

ثم ينتقل مرة أخرى إلى الصوت الثاني لينقل لنا أحلام عواد المتسمة بالبساطة :

سأكسو صبيتي – في الموسم الآتي-

وأدفع كل ديني

وآتي أم أولادي بزنارٍ

ومكحلة، وأسورة، وشالْ

ولي .. كوفية، وعقال مرعز

ثم ينتقل إلى الصوت الثالث، ليقرر أن أحلام عواد المتسمة بالبساطة لن تتحقق:

رصاصات ثلاثٌ

جئن مثل البرقِ

من صوت البيادر!!

ويعود إلى الصوت الأول ليؤكد أن رصاص الثأر أردى ستة منذ بدء العام، هؤلاء الستة ،كما يؤكد الصوتان الثاني والثالث أن القتلى جميعهم كانوا كعواد الإمارة، أناسا بسطاء: أحلامهم بسيطة - يزرعون ويحلمون بموسم خصبٍ، وكسوة لأهلهم، وسداد دين- خلّاهم رصاص الثأر صرعى :

ستةُ.. من بدء هذا العامِ

خلاهم رصاص الثأر صرعى

وراءهم أفعى

أي أفعى ..

خلف شريان الدم المقصود تسعى..؟!

أي أفعى..؟! (الديوان ص 251)

هذه الأفعى لا تزال موجودة ، أهي التقاليد البالية ؟أم هي شيء آخر ؟ نستشعر معه روح التآمر ، مما يخلق حسا دراميا ، فيه الدهشة والتشوق ، لمعرفة السبب الحقيقي للاغتيال . حيث تصرخ الأصوات الثلاثة مجتمعة متسائلة عن طبيعة الأفعى مستعجبة منها :

أي أفعى.. أي أفعى. .أي أفعى..؟!

إذ يأتي صوت من بعيد، ليعلن أن ظاهر القصة ثأرٌ وانتقام ، لكن هناك سببا آخر غير ذلك ، وهنا نصل إلى الذروة:

باطن القصة –يحكي الناسُ شيء آخر يمتد من خيط الدمِ

الحابي على الإسفلت، حتى قلعةٍ

غبراء في قلب المدينة، حيث

توجد غرفة من دون رقم..

ويبدأ الحدث المتصاعد ، وهو يتكون من الفعل الذي وقع : (رصاصاتٌ ثلاثٌ جئنه يصفرْنَ من صوب البيادرْ!!) الناشئ عن الموقف في مستهل القصيدة وهو موت عواد الإمارة (على الإسفلت مات اليوم " عواد الإمارة " رغيف الخبز في يده، وفوق الكتف فأسُ)، حيث يكون التشوف لمعرفة

سبب موته هو أساس الحدث المتصاعد الذي يتبع ما سبقه، والتمهيد إلى الخاتمة.

ينتهي الحدث المتصاعد في نقطة تعرف بنقطة التحول. إذ يعلن الصوت الثالث عن نقطة التحول بالشخصية:

ولكن كل أحلامك ! يا " عوادُ"،

ماتت .. في دقيقة

ولم يشفع لك الحلم البرئُ،

وطيبة القلب العريقة

رصاصات ثلاثٌ

جئن مثل البرقِ

من صوت البيادر!! (الديوان ص 250- 251)

وتكون الذروة عند النهاية أو على مقربة منها، لأن كل ما يليها، نما هو مشاهد ختامية تتصف بشيء من الركود. وقد تكون الذروة حدثاً متوقعاً أو مفاجئاً، غير أنها من وجهة عاطفية تشكل نهاية القصة.

وهكذا نرى أن الذروة في القصيدة هي اللحظة التي تكون أشد إثارة للاهتمام، وهي صوت من بعيد يقدم الذروة، وهي اللحظة التي لم نكن نتوقعها بعد أن سرنا مع مجريات قصة ثأرٌ وانتقام ، لكننا نكتشف بعد ذلك أن هناك نوعا من المؤامرة، حيكت في غرفة مجهولة الرقم ، في قلعةٍ غبراء في قلب المدينة:

ظاهر القصة – يحكي الناس

ثأرٌ وانتقام

باطن القصة – يحكي الناسُ

شيء آخر يمتد من خيط الدمِ

الحابي على الإسفلت، حتى قلعةٍ

غبراء في قلب المدينة، حيث

توجد غرفة من دون رقم.. (الديوان ص 253)

وكانت النهاية عبارة عن مشهد ختامي لتهليلة جماعية تنادي أخوته بأن يدفنوه في باطن الأرض التي أحبها وليحفظوا قبره ليكون رمزاً لما جرى.

<u>تهليلة جماعية</u>

وسّدوه .. بطن هذي الأرض، يا أخوتهُ

إن هذي الأرض كانت دائماً مهجتهُ ص)

إنها كانت، وما زالت،

لعواد الإمارة.. أمه .. أمته

فاحفظوها .. واحفظوا القبر الذي غّيبهُ

احفظوه.. واحفظوا خضرتهُ... (الديوان ص 254- 255)

الخاتمة

تتسم حياة توفيق توفيق زيّاد بالدرامية فهو شخص مناضل يخوض تجربة الكفاح في سبيل الدفاع عن وطنه ويدخل السجن مرارا، وهو شخص ملتزم عقائدياُ ينعكس هذا الجانب على أشعاره، ومنذ بواكير إنتاجه نجد لديه قصائد درامية فيها يروي حكاية شعبه وتتجسد في قصائده الدرامية استخدامه للغة شعبية وحوارية ويكثر فيها الاستفهام والتعجب والنداء لتخلق جواً درامياُ. ثم يقدم في العديد من قصائده الدرامية قصصاً تكاد تتساوق مع البناء الدرامي من حيث وجود جوانب الحدث والحكاية والصراع وتنبني الحكاية بطريقة درامية تقود إلى الذروة وخاتمة الحدث. واستطاع الشاعر من خلال القصيدة الدرامية أن يقدم رؤاه الفكرية والفنية مما يغطي على بعض الجوانب التي تعيب القصيدة من حيث المباشرة في التعبير والوصف الخارجي للشخصيات.

المصادر والمراجع:

1. اريك بنتلي: الحياة في الدرامة ترجمة : جبرا إبراهيم جبرا (بيروت:المؤسسة العربية للدراسات والنشر الطبعة الثالثة – 1982)
2. اليزابث درو:الشعر كيف نفهمه ونتذوقه ترجمة: الدكتور محمد إبراهيم الشوش (بيروت –منشورات مكتبة منيمنه نشر بالإشتراك مع مؤسسة فرنكلين المساهمة للطباعة والنشر 1961).
3. أدونيس: زمن الشعر، ط 3(بيروت، دار العودة، 1983 – ص 86 – 117.)
4. توفيق توفيق توفيق زيّاد : ديوان توفيق توفيق توفيق زيّاد : تقديم عز الدين المناصرة (بيروت، دار العودة، :1970).
5. توفيق توفيق توفيق زيّاد :أشد على أيديكم (ط2) عكا: مطبعة أبو رحمون 1994
6. توفيق توفيق توفيق زيّاد :كلمات مقاتلة (ط2) عكا: مطبعة أبو رحمون 1994
7. توفيق توفيق توفيق زيّاد :سجناء الحديد وقصائد ممنوعة أخرى (ط2) عكا: مطبعة أبو رحمون 1994
8. توفيق توفيق توفيق زيّاد :عمان في أيلول (ط2) عكا: مطبعة أبو رحمون 1994
9. توفيق توفيق توفيق زيّاد :أنا من هذي المدينة (ط2) عكا: مطبعة أبو رحمون 1994
10. رجاء النقاش: محمود درويش شاعر الأرض المحتلة(القاهرة، دار الهلال 1969.)
11. روستريفور هاملتون: الشعر والتأمل ترجمة: الدكتور محمد مصطفى بدوي،(القاهرة – المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر)
12. ستيفن سبندر: الحياة والشاعر، ترجمة دكتور مصطفى بدوي(القاهرة –مكتبة الأنجلو المصرية.)
13. س.و.دَاوسن: الدرامة والدّرَامية، ترجمة جَعفَر صَادِق الخليلي(بيروت – باريس منشورات عويدات 1980)
14. صالح أبوأصبع :الحركة الشعرية في فلسطين المحتلة (بيروت –المؤسسة العربية للدراسات والنشر 1979)
15. عبد الرحمن ياغي: دراسات في شعر الأرض المحتل، (القاهرة: معهد البحوث والدراسات العربية، 1969.)

16. عزالدين المناصرة مقدمة ديوان توفيق توفيق زيّاد (بيروت، دار العودة، :1970).
17. غسان كنفاني: أدب المقاومة في فلسطين المحتلة 1966 (بيروت: دار الآداب - د.ت)
18. غسان كنفاني: الأدب الفلسطيني المقاوم تحت الاحتلال،(بيروت: مؤسسة الدراسات الفلسطينية 1968)
19. هارون هاشم رشيد : الشعر المقاتل في الأرض المحتلة (بيروت –صيدا المكتبة العصرية،)
20. هنري أرفون: الجمالية الماركسيّة ترجمة جهاد نعمان(بيروت – باريس، منشورات عويدات 1982).
21. يوسف الخطيب – ديوان الوطن المحتل،(دار فلسطين، دمشق، 1968.)

الباب الثاني

الفصل الخامس

الشعرالعربي والانتفاضة الأولى[3]

مدخل

عام مضى وعام يأتي، وجذوة الانتفاضة تشتعل، وقودها ليست حجارة ، لكنه قلوب تنبض بحب الوطن، وأياد تلتقف الحجر تلو الحجر لتصنع لنا فجراً، منذ أكثر من عامين أي قبل أن تصبح الانتفاضة صوراً تنقلها لنا وكالات الأنباء وكلمات يكتب عنها الصحفيون، وأغان يتغنى بها الشعراء ... كانت قضيتنا قد أصبحت في ذيل الاهتمامات عربياً وعالمياً.. وفجأة هكذا يتوهم البعض، تأتي الانتفاضة لتصنع لنا فجراً جديداً يضيء عالمنا بالأمل.. وقبل هذا لم يدرك المتوهمون أن العطاء الفلسطيني ظل مستمراً... وأن الحلم الفلسطيني أكبر من أي هزيمة، وأن الأمل بالعودة غذاء روحي للفلسطيني حيث يكون في أسر الاحتلال أو في غربته عن وطنه... ومع هذا الأمل تظل تنمو إرادة للصمود لا ترهبها الدبابات ولا الطائرات ولا القنابل العنقودية ولا الفسفورية. وفي درب عودته، يقدم آلاف الشعراء وعشرات الآلاف من المعتقلين وآلافاً مؤلفة من المعاقين.. وفي درب عودته يخلق إنسان عربي جديد.. تفجرت طاقات إبداعاته في مواجهة المحتل. ويحمل مقلاعه ليواجه به الجندي المدجج بالسلاح، ويقذف البطاطا المحشوة بالمسامير ويدلق الزيت على الإسفلت لتنزلق سيارات المحتلين.. إنسان يبدع النضال.. وإنسان يبدع في تفاعله مع الحدث.. في أتون حربه مع

---

[3] محاضرة ألقيت بمدينة فاس – المغرب أكتوبر 1990

الأعداء تبرز أروع الصور للتكافل الاجتماعي وتبرز كذلك أعظم الصور في الاعتماد على الذات ...

تفقد الأم ولدها ولكنك تراها ترفع إشارة النصر ، ويصاب الشاب إصابة بليغة وتظل تلك الشارة من بين ضماداته... وتقف الفتاة بصلابة وكبرياء في وجه الجندي الإسرائيلي.. تلك صور نشاهدها، ونسمع عنها. ويمتلك بعضنا جرأة الانفعال، وبعضنا جرأة التفاعل، ولكن ذلك كله ونحن بعيدون عن ساحة العطاء.

في غمار الانتفاضة دنست المقدسات... وأحرقت المساجد... ولكنها ظلت دوماً قلعة الانطلاق للمواجهة.. وفي حماة المواجهة ينمو جيل من الأطفال لا يعرف الخوف. جيل سمعنا عن صور من بطولاته قصص كثيرة مذهلة،:

- " جيل تشعبط سور الخوف
- وانقض كالصقر بمنقاره ،
- كف تسلح بالصخر رمى فتلاشى الاحتلال
- وما رأى على قدمه غير تاج من الزهر تراجع ،
- كان الغدر ينسج حوله كمينا
- يخلط الليل بالفجر
- ويسأله الجندي:
- ما اسمك؟
- خالد
- وعمرك ؟
- سبع
- من رماك ولم تدرِ

- محمد
- من هذا؟
- أخي
- أين يختفي ؟
- على عرشه يختال بالمجد والفخر
- تعال
- وجروا الطفل عبر أزقة مرصعة بالحقد يلسع كالجمر
- هنا بيتنا
- دقوا على الباب
- من؟
- أنا
- وشرعت الأبواب في ليلة القدر
- وغرد كالعصفور طفل ثلاثة
- (ظلبتهم يا خالد البل والبحل)❖
- أجل
- وتلاشى الأقحوان
- وتمتمت شفاه جنود لامست غيمة الذعر
- نحارب جيل الصخر والموت عنده حياة
- لقد تهنا بعيداً عن النصر (الشاعر صخر أبو نزار)

❖ هذه لغة الطفل وتعني : " ضربتهم يا خالد البر والبحر "

هذه القصة - القصيدة لعل البعض سمعها أو قرأها - قبل أن تسمعوها شعراً، إن قصصاً بطولية تجري في الأرض المحتلة يعجز المرء عن متابعتها، أبطالها أطفال وشباب وشيوخ، نساء ورجال ، كلهم دخلوا أتون الثورة الشاملة التي تعصف بالمحتل في أرضنا السليبة.

ماذا كان الوضع قبل الانتفاضة ؟

في معرض الحديث عن الأدب يصبح من الصعب على المرء تحاشي الحديث عن الظروف التي أنتجته.. ويكفي هنا أن نشير إلى بعض العلامات في التاريخ العربي

الحديث جداً ، وإلى أحداث وقعت وتابعناها وهي تحفر عميقاً في الساحة العربية آثارها لتتسرب إلى أعماق الوجدان العربي وذلك بعد حرب أكتوبر 1973، وأذكر هنا بدون تحليل تاريخي:

- مفاوضات كيلومتر (101) بعد حرب أكتوبر مباشرة. ومفاوضات مينا هاوس
- زيارة السادات للقدس وتوقيع اتفاقية كامب ديفيد.
- يوم الأرض في المثلث والجليل.
- انتفاضة عام 1977 في الأرض المحتلة.
- إجتياحات إ سرائيلية ومعارك في جنوب لبنان.
- الحرب الإسرائيلية - الفلسطينية عام 1982 والصمود الأسطوري.
- اقتتال الأخوة في لبنان/ لبنانياً - فلسطينياً / فلسطينياً - فلسطينياً.
- الاحتلال الإسرائيلي لجنوب لبنان.
- العمليات الاستشهادية في جنوب لبنان.
- الحرب العراقية الإيرانية.
- أزمة النفط وانعكاساتها على الاقتصاد العربي.

- أحداث اليمن الجنوبي.
- تورط جعفر النميري الرئيس السوداني السابق بقضية هجرة يهود الفلاشا.
- مشاكل جنوب السودان وكوارثه الطبيعية.
- مجازر صبرا وشاتيلا وتل الزعتر.
- حرب الصحراء المغربية.
- الحرب الليبية التشادية.
- ضرب المفاعل النووي العراقي.
- الغارة الأمريكية على ليبيا.
- الغارة الإسرائيلية على تونس واغتيال أبي جهاد.

هذه أحداث يمكن للمرء أن يقف أمامها طويلاً ليرى كيف تسلل اليأس معها إلى النفوس، وبات الإنسان العربي مهزوماً في وطنه، وبات يقبل بما كان لا يقبل به، وأصبح غير قادر على المشاركة أو التعبير عن نفسه... وعلى سبيل المثال حينما اجتاحت قوات الغزو الإسرائيلي لبنان ووقفت الأسابيع وهي تحاصر بيروت.. لم يكن تفاعل الشارع العربي على مستوى الحديث.. لقد أصبح الإنسان مهيضاً ومحبطاً وباللهجة الدارجة كان مكسور الخاطر...

وكان الأدب في تلك الفترة صدى لهذه المرحلة، وكان صوت الشعر خير تعبير عن إدانة النفس إلى درجة تصل إلى حالة الماسوكية.

وكان الشعراء حينما تبرق بارقة أمل من خلال تضحية فردية، مثل العمليات الاستشهادية تشرق لديهم روح الأمل، ولكنها في الوقت ذاته تكون فرصة لجلد النفس لواقعنا العربي المتخاذل.

ولكن على الرغم من ذلك فإن المؤمنين بعظمة الأمة العربية، والمؤمنين بأن روح الأمة يمكن أن تسبت ولكنها لا يمكن أن تخفت، ظلت تؤمن أن حالة التردي لها نهاية. لذا وحيثما كان هناك حديث أو موقف يستدعي أن يكون حضور القضية الفلسطينية. فإنه كان هناك دوماً عربان:

- العرب الذين يرون أن فلسطين لهم ، وهي قضيتهم وهم بذلك فلسطينيون بالانتماء بغض النظر عن مولدهم.. ففلسطين ليست مساحة جغرافية، إنها مساحة انتماء وتصغر لأولئك الضعفاء لتصبح فلسطين هي تلك المساحة المحدودة جغرافياً، وتكبر عند المتفائلين الذين ينظرون إلى فلسطين كونها قضيتهم ، وخارطتها من المحيط إلى الخليج.
- العرب الآخرون هم الذين يرون أن فلسطين هي قضية لأشقاء تحتاج إلى الدعم والتأييد... إنهم يحاولون أن يجعلوا دورهم ليس أكثر من تأييد لقطر آخر محتل... وهكذا يعملون على الفصل بين أعضاء الجسد الواحد، وهؤلاء هم الذين يقفون ضد المستقبل وضد المصلحة القومية ، لأنهم يرون فلسطين هي المساحة المحدودة جغرافياً.

ومن خلال هذا أيضاً يمكن للمرء أن يتابع الأدب العربي في أشكال تعبيره عن القضية من هاتين الزاويتين:

- **الزاوية الأولى:** كتاب يعتبرون فلسطين همهم وقضيتهم ينفعلون ويتفاعلون بها، لأنها خارطة تمتد على جسد الوطن العربي من الماء إلى الماء... فتنسل إلى وجدانهم وتفكيرهم.. ويدركون معها أن وجودهم ذاته مهدد بوجود إسرائيل مهما يدنون جغرافياً أو ينأون عنها ومهما امتد الزمن أو قصر.

- الزاويــة الثانيــة: كتــاب يــردن في فلســطين مــادة للكتابــة فهــم ينفعلــون ويتضـامنون ويكتبـون بالمناسبات لتصبح كتاباتهم مثـل تلـك الـتي كتبت للتضامن مع الشعوب الصديقة في كفاحها ضد الاستعمار.

لقد فجرت القصيدة معركة ... نعم ولا أبالغ إذا قلت إنها فعلت ذلك...

إن قصيدة واحدة مثل قصيدة محمود درويش "عابرون في كلام عابر" كانت كفيلة بأن تثير ضجة عالمية ، تكتب عنها الصحف الفرنسية والأمريكية وتقتحم أسوار الكنيست ليقف شامير في الكنيست لينهال على محمود درويش بالشتائم ، لأن هـذا الشـاعر يحـب وطنـه وأرضـه - حسـب تعـبير أحمـد دحبـور - هـذه القصيدة التي وصفها الكاتب الفلسطيني سلمان الناطور من عرب الأرض المحتلة عام 1948 بأنها قصيدة كتبها شاعر فلسطيني كبير ، يمكن أن تكون نشيداً وطنياً لكل قوى السلام في العالم، وما يمنحها هويتها الفلسطينية هو انتماء كاتبها والمرحلة التاريخية التي كتبت فيها... ويقول إنها قصيدة ضد العابرين في الكلام العابر ، وهم موجودون في أزمان عدة وأماكن عدة ، والشعب الفلسطيني انتكب بهم مثلما انتكبت شعوب أخرى ، فلماذا ثارت ثائرة الإسرائيليين.؟

في هذه القصيدة يقول محمود درويش:

((أيها المارون بين الكلمات العابرة

كدّسوا أوهامكم في حفرة مهجورة، وانصرفوا

وأعيدوا عقرب الوقت إلى شرعية العجل المقدس

أو إلى توقيت موسيقى المسدس

فلنا ما ليس يرضيكم هنا، فانصرفوا

ولنا ما ليس فيكم: وطن ينزف شعباً ينزف

وطناً يصلح للنسيان أو للذاكرة

أيها المارون بين الكلمات العابرة

آن أن تنصرفوا

ولتموتوا شئتم، ولكن لا تموتوا بيننا

فلنا في أرضنا ما نعمل

ولنا الماضي هنا

ولنا صوت الحياة الأول

ولنا الحاضر، والحاضر، والمستقبل

ولنا الدنيا هنا... والآخرة

فاخرجوا من أرضنا

من برنا..من بحرنا

من قمحنا... من ملحنا.. من جرحنا

من كل شيء، واخرجوا

من ذكريات الذاكرة

أيها المارون بين الكلمات العابرة.))

إن ما أثارته هذه القصيدة تجسد لنا أهمية الكلمة المقاتلة.. ولعل هذا ما تدركه قوى الاحتلال جيداً.. ولم يكن غريباً. أن يبلغ مجموع الصحفيين المبعدين أو المعتقلين في الأراضي المحتلة 54 صحفياً. وليس غريباً أن الأعداء ترصدوا كتابنا وأدباءَنا وشعراءَنا فسقط منهم من سقط شهيداً، ومنهم من أصيب برسائل الغدر الملغومة.

وهل لنا أن نتذكر كمال ناصر، وغسان كنفاني، وماجد أبو شرار، وأنيس صايغ.

إن هذه الدراسة لا تتسع لدراسة فنية لأدب الانتفاضة وأخالني لا أجافي الحقيقة إذا قلت أن دراسة فنية لأدب الانتفاضة سوف تستطيع أن تفرز لنا نوعين من الإنتاج:

أ- أدب الانتفاضة الذي يعبر عن تفاعل مع الحدث عاطفياً وفنياً.

ب- أدب عن الانتفاضة يعبر عن انفعال بالحدث وهو أقرب إلى أدب المناسبات.

وفي محاولة رصد سريعة لا تدعي الشمول فإن معظم ما أنتج في الأدب يندرج تحت الصنف الثاني وهو يمكن أن نسميه **أدبا عن الانتفاضة**.

إن أكثر أشكال الأدب التي برزت بشكل ملفت للانتباه في معالجة موضوع الانتفاضة تقع تحت شكلين فنيين: أولهما الشعر وثانيهما المقالة الفنية.

ولعل لهذا ما يبرره، فالشعر هو وسيلة تعبير عن الانفعالات وهو كذلك وسيلة تفريغ شحنات المرء العاطفية.

وأما المقالة الفنية فهي كذلك قريبة من الشعر ، إذ تتيح للمرء تفريغ شحناته الانفعالية ومواكبة الأحداث التي تجري حول الكاتب.

لكن الأشكال الفنية الأخرى مثل القصة والرواية والمسرحية - على الرغم من أن عناصرها لا تخلو من العاطفة - تحتاج إلى زمن فيه ينفعل المرء ويتفاعل وتنضج معه الفكرة ، حتى تأخذ قالبها الفني... ولعل هذا ما يفسر لنا أننا نجد بعضاً يسيراً من القصص القصيرة المنشورة في الصحف دون أن نجد أعمالاً روائية أو مسرحية تعالج الانتفاضة.

ففي مجال المقالة كتب محمود درويش:

"إن وعي العالم يتساءل عن الدولة الفلسطينية. لقد تغير هذا الوعي. وصحا الضمير الغربي على صورة جديدة للفلسطيني، اكتشف أن الشعب الفلسطيني موجود. وها هي صورة الولد الفلسطيني، على شاشة التلفزيون، يطارد الجندي الإسرائيلي بحجر، تتحول إلى مشهد يومي يثير الإعجاب، ولا شيء يدعو إلى الالتباس شعب محتل يقاوم الاحتلال على أرضه... لقد تغير وعي العالم، وصحا الضمير الغربي على صورة جديدة للإسرائيلي، إنه مدجج بالسلاح بالفولاذ وبالغاز المسيل للدموع. إنه يقتل الأطفال والأجنة. يدفن الأحياء بالبولدوزر يكسر عظام الناس.. يغتال، ينسف سفينة تعود عودة سلمية ورمزية، إلى حيفا، ليبعد المواطنين عن وطنهم. إنه جلف صلب مغرور وابتزازي".

لقد كانت المقالة مجالاً رحباً للكتاب لوصف الانتفاضة، ووصف عسف العدو، وتشخيص الواقع العربي المتعاون، وتجسيداً للأمل في الانتصار ويكتب **فواز طرابلسي** عن الانتفاضة ويقول:

"الحجر. اللحم الحي، الدم. .... تكنولوجيا المعدمين. ثالوث يوقظ فينا شعلة الإيمان. مرات ينتظر البشر أن يمن عليهم الإله بمعجزة، ومرة في العمر يصنع البشر معجزاتهم بأنفسهم، طوبى لمعجزة الشعب المقاوم. كان علينا أن لا نكون من القوم المشككين. إن الدم المنتصر على السيف. واللحم الحي على الدبابات ، الحجر على من حجر.

هي عودة الروح. تفاجئنا أمتنا، يفاجئنا شعبنا ، ونحن على أهبة ارتكاب الجرم المشهود، فقد كدنا أن نستسلم للزمن الرديء... هي عودة الروح... وهكذا هي الانتفاضات.. تتعدى نوابض العملية التاريخية وقد ظلت طويلاً منتشرة عاصية تختزل المراحل. تكشف الوحي في لحظات إشراق نادرة".

وأما **عبداللطيف اللعبي** الكاتب المغربي فإنه يكتب عن الأمل الذي صنعه أطفال الانتفاضة فيقول:

"ثم كان أن انطلقت الحجارة الأولى، قالوا بل ذكرني الأطفال بالطير الأبابيل وبقصة فناء القبائل والمدن الفاجرة. لا شيء مطلق.. ها أنا أخرج من زنزانتي العتيقة لأحيي خطاف الربيع الدفين. شكراً أطفال النجدة. ممتنون جداً. ربما أوقف إضرابي لأجلكم لأجلكم فقط".

لن نسير بعيداً في اقتباس ما كتبه الكتّاب العرب في مقالاتهم عن الانتفاضة ، التي بلا شك ملأت الصحف المحلية والصحف العربية.

المحاور التي تم التعبير عنها في شعرالانتفاضة

وإذا انتقلنا إلى الشعر فإننا سنجد أن التعبير يأخذ شكلين أولهما التعبير، فنحن نعبر عن أنفسنا ومشاعرنا وما يعتمل لدينا من أحاسيس وأفكار... وقد يكون ذلك بالكلمة بالإشارة بالضحكة أو بالدمعة ، ومثل هذا كثير ما نجده فيما نقرأه الآن من خواطر وقصائد وقصص.. إنها تعبير عن الذات، وهي إبداعات لا تزيد عن كونها حوارا مع الذات يخلص الذات ، ويطهرها إن جاز لنا استخدام المصطلح الأرسطي.

وأما شكل التعبير الثاني فهو تعبير تواصلي، فيه تكون الرسالة الإبداعية رسالة دعوة إلى مشاركة وتفاعل واتصال، هي عملية اتصالية كاملة.. تدعو إلى اتخاذ موقف.

- النوع الأول: ينسحب عليه ما يمكن أن نسميه بأدب عن الانتفاضة مهما اختلف شكله الفني.
- النوع الثاني: هو أدب الانتفاضة.

والفارق بينهما فارق نوعي ليس في العاطفة فحسب ، وإنما في أسلوب التعبير أيضاً، وهو أيضاً فارق كمي ليس من حيث نضج للتجربة فحسب، وإنما في قدرتها على توصيل رسالتها إلى الجمهور.

الراصد لما كتب عن الانتفاضة وخاصة في مجال الشعر سيجد النوعين جنباً إلى جنب، ولكنه سيجد أن النوع الأول، ومن ناحية كمية يكاد يغمر مساحة النتاجات التي نقرأها.

وعلى الرغم من أننا نميز بين هذين النوعين من ناحية فنية إلا أننا لن نقتصر في اقتباساتنا على نوع واحد منهما.

لقد انفعل وتفاعل الشعراء مع الانتفاضة، وأدى هذا إلى عدد كبير من النتاجات الشعرية، وهذه النتاجات تتراوح بين قصائد لشعراء كبار يحتلون موقفهم في الساحة الشعرية العربية، وبين شعراء آخرين أقل شهرة أو شعراء مغمورين أو حتى من المواهب الشابة والأصوات الجديدة...

إن اقتباساتنا لا علاقة لها إذن بالمركز الأدبي للشاعر بمقدار علاقتها بالتعبير عن محاور أساسية عبر عنها شعر الانتفاضة أو الشعر الذي كتب عن الانتفاضة.

وتتمثل أهم المحاور التي تم التعبير عنها في هذا الشعر فيما يلي:

1. تمجيد الحجر.
2. تمجيد بطولة الأطفال.
3. إدانة الموقف العربي وصمت الشارع العربي.
4. التعبير عن الأمل بالانتصار والتحرير.

إن هذه المحاور ليست شاملة ويمكن لدارس آخر أن يضيف محاور أخرى.

أولاً: تمجيد الحجر:

لاشك في أن الانتفاضة أخذت بعدها من خلال بطولة الكف العاري الذي يواجه آلة الحرب الصهيونية ... هذا الكف الذي لم يجد سوى الحجر سلاحاً يمتشقه في مواجهة الغازي، وأطلق البعض على ثورة شعبنا ثورة الحجارة...

ونقرأ قصائد عديدة تحمل عناوين بمجد الحجر، ثورة الحجر، رسالة الحجر إلى البندقية، ما نكتبه تلغيه الحجارة، طوبى لأطفال الحجارة، نطق البحر، رسالة أطفال الحجارة، إلى عرب الشتات، قصيدة الحجر، وغيرها كثير.

لقد أصبح الحجر رمزاً... وكان التمجيد له... هذا الرمز يطغى على الإنسان الذي يحمله...

يقول إبراهيم ياسين في قصيدة الحجر:

"قفوا" ولا يتوقفون

"قفوا" ولا يتراجعون

ولا على الدرب استراحوا

حجر.. وتشتد الرياح

حجر.. وتخضر الجراح

حجر.. ومن ليل الرماد المر ينبثق الصباح

ويجن بالضوء القمر

حجر وتنتحر الهياكل والصور (الاتحاد: 88/8/28)

وفي قصيدة بعنوان " عندما ينطق الحجر " يقول الشاعر محمد إسماعيل الأبارة:

"أيها الحجر الطفولة والرجولة

أيها الحجر القضية والوصية

أيها الحجر القضاء

الآن عصرك

فانفجر فينا كبركان القيامة

هدّ فينا كل ما فينا

وشيّدنا جديداً

الان فجرك فاكتسح ظلماتنا يا فجر واغمرنا

وفينا بدّد الخوف الملازم". (الاتحاد: 88/8/28)

إن تمجيد الحجر وعلى الرغم من رمزيته، طغى على الإنسان ، فالحجر ليس هو البطولة.. لأن البطولة تكمن في الإنسان الذي يحمل الحجر ويواجه الأعداء.. لذا هل لنا أن ننتظر أن يكون البطل هو الإنسان والمجد للإنسان بدلاً من الحجر.

ثانياً: تمجيد بطولة الأطفال:

لا شك في أن أطفال فلسطين يلعبون دوراً في الانتفاضة لم يشهد له التاريخ مثيلاً في مقاومة المحتلين، ولذا فالأطفال الذين يحملون البراءة ، يحملون أيضاً عناصر البطولة والتضحية والمثال الذي يقتدى.

يقول طه عبدالغني مصطفى:

"أشعل النيران يا جندي

هذا العصر، يا طفل الحجارة

كم عظيم أنت

تفعل كل هذا يا بطل!

كم تشجعنا، تحمسنا

رقيقات الجمل!

همة الأطفال حادينا

بين الليل، ذي الدرب الطويل

إنها أنشودة الأبطال، لا الأطفال في هذا الزمان

انظرونا، يا جناب الصولجان قد هزمنا المستحيل". (الخليج: 1988/6/2)

وفي قصيدة "إنه يحيى" يقدم لنا سعدي يوسف صورة ليحيى الذي يجسد كل الثائرين ويصبح اسم يحيى له دلالات على الانتصار ، ويمثل العطاء والتضحية.

"يحيى ينبت الأحجار

يجعل من سواعدنا تعاليم النبوة.

من أصابعنا دم الثوار.

رايات يحيى - ثوبك المنخور بالطلقات

يحيى في الشوارع

درعه كوفية رقطاء

وقبته براق أزرق

وسماؤه صفراء

يا لفتح الفتوة"(الاتحاد: 1988/4/24)

ثالثاً: إدانة الموقف العربي:

أخذ الشعر العربي موقفاً مديناً للمواقف الصامتة أو الخجولة من دعم الانتفاضة، وأدان الشعر كذلك الوضع العربي في صورة التمزق والوهن الذي جعل المدافع العربية لا تجيد لغة سوى لغة الصمت ، يقول صوت من الأصوات الجديدة:

"قم للعروبة وامسح دمعة العتب "

فالليل خيّم فوق القدس والنقب

يا ابن الوليد خسرناها معاركنا

واجتاح أمتنا سيل من النوب

صهيون أمعن في تمزيقها إربا

وامتد ساعده في أمة العرب

أين المدافع كالإعصار نطلقها

أين البنادق تذكر ثورة الغضب"(الخليج)

ويكتب الشاعر عبدالرحمن النجار مدينا الصمت العربي في قصيدة شعبية:

"في الكتابات الحديثة للعرب

في التورايخ الجديدة للعرب

صفحات في أحلى الطرب

قعدات في شرب العنب

وسيوف لكن من حطب

شنها السبب!

كل السبب يا للعجب

ممنوع تفجير الغضب"(القبس: 1987/12/22)

وفي قصيدة للشاعر حاتم الصكر يدين فيها الوضع العربي ويفسح كوّة من الأمل يصنعها لنا الأطفال في الوطن:

كان الرهان على قبائل بائدات

وعلى كلام أعوج اللكنات - يقص

في غيوم كاذبات

كلما مرت سألنا:

أين وعد الماء؟

جازتنا

وراحت لسماء الآخرين

ورمتنا بهجاء

كان الرهان على خيول باركات في الظلام

في براري الخوف...

غطاها الكلام

فاستجابت بصغير وحجارة

ثم غطت.. وهي تستجدي السماء!

طويلاً

ورهيفاً

اسمعونا لغة أخرى.. خذونا

قمراً يمشي على الأرض

وكفاً ورغيفاً

ارسموا فوق خراب القهر فجراً

شارة النصر

وكونوا

برقنا الآتي: رسولاً للمطر

فالرهان اليوم في قبضة طفل..

صاح: لا

وهو يعلي.. مجدنا

مجد الحجر. (الاتحاد: 1988/3/10)

ينطلق د. مانع العتيبة - في نفس التوجه - مدينا الواقع العربي ، ويستبشر خيراً بالنهوض في الأرض المحتلة ، الذي يصنع أملاً جديداً بعد يأس ألمّ بالإنسان العربي(الاتحاد: 1988/12/11)

يقول الشاعر:

ماذا تقول صبية شقوا لها	ثوباً فأعطاها الفداء إزاره
نادت صلاح الدين فاشتدت بها	جدران بيت المقدس المنهارة
لكن صلاح الدين مات وما له	فينا وريث حمية وإمارة
والله ما شئت استشارة	نخوة فيكم فما للميتين إثارة
لكنني وأنا أرى أملاً خبا	قد عاد يشعل في السواعد ناره
ارتد عن ظلمات يأسي خارقاً	بحجارة الغضب الوليد حصاره
هي ذي بداية رحلة قدسية	في لجج بحر ما خشيت غماره

وفي لغة قاسية يقوم الشاعر أحمد مطر بتوجيه نقده القاسي للواقع العربي ، وهو يجعل من الانتفاضة الضمير الحي في وجودنا الميت ، يقول في قصيدته المعنونة طلب انتماء للعصر الحجري:

"أهل الضفة

أنتم روح الله

وأنتم موجز كل المخلوقات

أنتم أحياء أحياء

والناس جميعاً أموات

لا تنتظروا منا أحداً

لا تثقوا في أحد منا أبداً

نحن وجوه فقدت ماء الوجه

ونحن وجود ضيع أوراق الإثبات

نحن شعوب الزنزانات الكبرى

وجيوش الاستعراضات

....

نحن شعوب ديكورات

وجيوش فاسدة اللحم

وليست تصلح للتصدير

وبلاد وحدتها لغز

ضاق بها عقل التفسير

وحكومات محكومات

مهنتها تحرير الأرض من التحرير

لا تنتظروا منا أحداً.

لن نأتي لن نأتي أبداً

ما عدنا غير نفايات تكره رائحة التطهير".(الاتحاد: 1988/12/11)

رابعاً: التعبير عن الأمل والتحرير:

حينما تصبح الأيدي المقاتلة هي الأمل فإنها تحمل معها رايات الكرامة للإنسان العربي الذي أدمن الاستسلام للهزائم ... ولذا فإن الانتفاضة تأتي لتطرد روح الأمل عند الإنسان العربي... ويصبح اشتهاء مشاركة الشارع العربي للانتفاضة لدى الشاعر إبراهيم نصر الله هو اشتهاء لتحقيق شروط الانتصار، ولذا فإن هذا الاشتهاد هو تعبير عن أمل يتجاوز الواقع الذي نعيشه كي نعيش في مستوى الانتفاضة وعطائها يقول الشاعر:

"تشهيت أن يسقط الخوف فينا

ويغسلنا من زنازيننا

مطر أو قمر

تشهيت خيلاً من الريح تعبر هذي العروق

وتكنس هذا الفراغ المعرش...

في كل شيء.. وهذا الحذر

تشهيت حتى عبرت البلاد من الماء للماء

أبحث في دمنا ثم أهذي

أرى ما أرى من موات

طحالب تجتاح راياتنا

وتمني بنادقنا المفرغات بيوم الظفر

تشهيت يوماً تكون الشوارع فيه ولو ساعة للبشر

وأن يبدأ الآن عرس - على أعين المخبرين -

ونعلن ملء دم عربي بأنا هنا سنزف الحجر) (الخليج: 1988/5/25)

وتعبر د. سعاد الصباح عن الدور الذي تقوم به الانتفاضة بأمل كبير، وتفاؤل أكبر ، حين تعتبر أن أيدي فتيان الانتفاضة هي التي تصنع فجر التحرير.

"ها هي الأخبار تأتي كالفراشات

خبراً بعد خبر . حجراً بعد حجر.

فعلى أجفاننا قمح ودفلى وورود

ها هم أولادنا

يصنعون الشمس في أكياسهم

يبدعون الزمن الآتي.. يصيدون الرعود

ويثورون على ميراث عاد وثمود

ها هم أكبادنا

يقتلون الزمن العبري

يرمون الوصايا العشر للنار

ويلغون أساطير اليهود

❖❖❖❖❖❖❖

قاومي أيتها الأيدي الجميلة

قاومي أيتها الأيدي التي بللها ماء الطفولة

لا تبالي أبداً بأكاذيب الطفولة

لم نحرر نحن شبراً من فلسطين

ولكن. حررتها هذه الأيدي الرسوله"(الاتحاد: 1988/12/11)

لقد صور الشعراء انتفاضة أهلنا في الأرض المحتلة وهي تقدم الشهداء في سبيل حرية الوطن بأنها تفرش درب الانتصار. يقول الشاعر أحمد معطي في قصيدته المعنونة "من هؤلاء"؟:

من هؤلاء؟

القادمون من الدجى

الحاملون مشاعل الحرية

وحجارة الأرض الأبية؟!

أهموا جنود يزحفون إلى الفخار؟!

ليقاتلوا جيش التتار؟!

ويهشموا وجه الحصار

أهموا ملائكة العذاب؟!

هطلوا مع الأمطار من عين السحاب؟!

أطفالنا هم ... بالحجارة والغضب؟!

هتفوا فرادى.. يا ردى

ومضوا سيوفاً لامعات في المدى

أما الصدى

فلقد تسلق هامة الدنيا وأعلن:

إننا شعب حجارتنا بنادق

وضلوعنا حفرت

خنادق

وزنودنا ارتفعت بيادق

ودماؤنا درب انتصار (القبس: 1988/1/5)

❖ ❖ ❖

كلمة أخيرة:

لا شك في أن الانتفاضة فرضت نفسها على حياتنا، ولعل أعظم ما حققته من إنجازات هي إعادة الثقة إلى الإنسان العربي بنفسه ، وإعادة الثقة بقدرته على مواجهة مغتصبيه ومضطهديه وقامعيه ... وإعادة الثقة بشخصيته المبدعة التي يمكن أن تفجر طاقات من الإبداع في مواجهة التحديات...

ولعل من الإنجازات المهمة عودة القضية الفلسطينية إلى موقعها الطبيعي من حيث الأهمية والصدارة عالمياً وعربياً..

لقد أعادت المقاومة البطولية لشعبنا العربي الروح إلى شعبنا في منافيه وإلى الجماهير العربية على امتداد الوطن العربي . لقد منحته روحاً جديدة تشعر بالفخار للانتماء إلى هؤلاء الأبطال الذين يواجهون الدبابات بصدورهم العارية ، ولقد تبلور هذا من خلال انفعالات وتفاعلات لا يمكن رصدها بسهولة على كافة المستويات السياسية والثقافية والفكرية...

ولكن يمكن من خلال قراءة أولى أدبيات الانتفاضة فكراً أو سياسة وأعمالاً فنية ونتاجات أدبية.. أن نلمح من خلال ذلك شمول تأثيرها على الحياة العربية.

وفي مجال الأدب - بخاصة - تبرز لنا أسماء الشعراء من الخليج العربي حتى المحيط الأطلسي يكتبون شعراً موضوعه الانتفاضة.. وهؤلاء الشعراء ليسوا فقط من مختلف أقطار الوطن العربي فحسب، بل هم أيضاً من أجيال مختلفة. وهذا يعزز عمق تأثير الانتفاضة على الوجدان العربي.

لا شك في أن دراسة الأدب وعلاقته بالانتفاضة هو موضوع أكبر من أن يعرض في محاضرة، وموضوع يحتاج إلى المزيد من الدراسات التحليلية الشاملة والعميقة.

وألتمس العذر فيما عرضته هنا ، لأنه ليس إلا قراءة أولى - في عجالة - فرضتها ظروف المحاضرة التي لم تتسع إلى دراسة أشكال الفن الجميل الذي يقدم لنا صورة لأشكال القمع الإسرائيلي وبطولة شعبنا.. مثل اللوحة الجميلة التالية لصخر أبو نزار بعنوان (اعتراف)

- قالوا اعترف
- وأنهد سقف الصومعة
- ورأى الفتى دون الكرامة مصرعه
- صرخت هراوات المحقق
- اعترف
- واختر لتنجو واحداً من أربعة

المصادر

- إبراهيم نصر الله (الخليج: 1988/5/25)
- إبراهيم ياسين : في قصيدة الحجر (الاتحاد: 88/8/28)
- أحمد مطر :طلب انتماء للعصر الحجري: (الاتحاد: 1988/12/11)
- أحمد معطي قصيدة "من هؤلاء"؟ (القبس: 1988/1/5)
- حاتم الصكر (الاتحاد: 1988/3/10)
- سعاد الصباح يا صغار الوطن الواقف كالسيف (الاتحاد: 1988/12/11)
- سعدي يوسف: قصيدة "إنه يحيى" (الاتحاد: 1988/4/24)
- طه عبدالغني مصطفى (الخليج: 1988/6/2)
- عبدالرحمن النجار (القبس: 1987/12/22)
- قم للعروبة واسمح دمعة العتب(الخليج
- مانع العتيبة(الاتحاد: 1988/12/11)
- محمد إسماعيل الأبارة: قصيدة عندما ينطق الحجر (الاتحاد: 88/8/28)

الباب الثالث

في القصة

- الفصل الأول : البكاء على صدر الحبيب" مغامرة لرشاد أبو شاور
- الفصل الثاني: غسّان كنفاني فارس في زمن الاشتباك
- الفصل الثالث : صورة الآخر عند الروائي حسن حميد

الباب الثالث

الفصل الأول

رواية " البكاء على صدر الحبيب "

مغامرة كبيرة لرشاد أبو شاور

حالما تنتهي من قراءة هذه الرواية القصيرة لرشاد أبو شاور، التي لا تتجاوز 94 صفحة من القطع المتوسط، تشعر في أعماقك بحنق تجهل سببه. هل ذلك لأنك عشت مع (زياد) لحظات غضبه وثورته وألمه؟ أم لأنك تجولت مع (غالي) وركبت البحر معه ثم (عدت من البحر إلى البلاد، البلاد التي لا تخضع للفهم، البلاد العجيبة المليئة بالشرطة والعساسين والعاهرات)؟ أم لأنك حزنت لانتحار أبي خليل أم لاستشهاد هناء وغالي؟

ها أنت ترى الأسى يحاصرك من كل جانب، وها أنت ترى أن البكاء على صدر الحبيب أمر لا بد منه، إذن فكيف الخروج من أزمة الحنق والحزن والثورة؟. هذه الرواية القصيرة تحاول أن تلخص أزمة المقاومة الفلسطينية منذ خروجها من عمّان، فشخصياتها عاصرت أحداث أيلول، في عمان، وهي شخصيات مناضلة بدءاً من المخرج والممثل وانتهاء بالشهداء أمثال غالي وهناء وأبي خليل. وهم يرفضون واقعهم ويثورون على القيادات التي عناها غالي بخطابه "أنتم الذين تجلسون فوق، أنتم الذين تعيشون حياة لا يحياها وزراء... أنتم الأمراء الجدد... كنتم تصدرون الأوامر من دمشق ودرعا وبيروت، كانت أجهزة اللاسلكي هي وسيلتكم النضالية... اللعنة على الكذابين". تدور أحداث القصة في حقبة زمنية قصيرة، وهي إذ تعتمد أسلوب تيار الوعي تجعلنا ننتقل مع أبطال الرواية من

خلال منولوجات تلقي على الأحداث خلفيات تضيء صورة الشخصيات وتبلور الأحداث. لقد كان زياد أحد المسؤولين في أحد تنظيمات المقاومة وبعد خروج المقاومة من عمان ذهب إلى دمشق حيث عاش في مخيم اليرموك، لكنه وجد نفسه يفعل لا شيء "أكتب أحياناً. أقرأ أحياناً. أنام أحياناً. زعلان باستمرار، أنتظر نهاية الشهر وآخذ مخصصي، أعيش في غرفة كئيبة في مخيم اليرموك".

هذا هو أحد أبطال الرواية، التي لا تقدم لنا شخصيات مكتملة النمو، بل تقدمها وهي تعيش أحداثاً تسهم في اكتمال بناء الصراع الدرامي للقصة وخلفيته إلى الجو العام الذي تسبح فيه الأحداث والشخصيات، إن القصة باختصار تحاول أن تصور تجربة مبسترة لشباب عاشوا مع منظمات المقاومة، ولكنهم بعد خروج المقاومة من الأردن اكتشفوا أي عيشة تعيشه بعض القيادات والتي لا تريد إصلاحات في كياناتها التنظيمية، فيعيش هؤلاء الشباب التمزق والألم وهم يحاولون الإصلاح والنضال من أجل الوطن.

- البعض منهم يهرب من هذا العالم الفاسد كما فعل (غالي) الذي "ذهب ليواجه العالم فماذا فعل؟ لا شيء ولكنه يعود إلى الوطن ثانية".

- أو بانتقاد الأوضاع كما فعل (زياد) الذي كان متهماً بالتحريض.

- أو بالرفض كما فعل المخرج والممثلون الذين مزّقوا المسرحية الثامنة حيث يعلن المخرج "من البداية قلت لكم إما أن نكون فنانين بجد أو نكذب ونهرج ونغش انسجاماً مع الواقع".

- أو كمثل "نهاد" الفتاة المناضلة التي ترفض إكرام القائد المسؤول الذي يحاول استغلالها إذ تقول له بحدة: "لماذا لا ترسل زوجتك مثلاً في هذا العمل الوطني العظيم... إذا أردتم مقاتلة العدو أو مواجهة الذين ذبحونا في الأحراش

فأنا على استعداد"، وهكذا تؤكد الرواية بأن البكاء على صدر الحبيب قدر من لا أرض له ولا حرية له، من هنا يمكننا أن نتابع الشخصيات المحورية في القصة، ولعلها اثنتان:

- شخصية (زياد) الكاتب المسرحي الذي اكتشف زيف القيادة... لكنه اختار قدره ارتباطاً مصيرياً بالمقاومة "أنا كما كنت لن أخرج، أحب لو أتسكع في العالم لكنني لا أستطيع أنا ملتصق باختياري". زياد هذا الملتصق باختياره بفدائيي شعبه، لا نشعر بقناعة تامة بشخصيته، عرفنا أنه ثائر على الأوضاع التي يعيشها، وبأنه محرض كما قالت نهاد. وشخص يمتلك هاتين الصفتين ، له أن يكوّن صورة أخرى غير التي قدمت إلينا فجاءت أقل إقناعاً من شخصية "غالي" التي تكاملت في إطار الحدث بحيث أصبحت جلّ تصرفاته منطقية ومنسجمة معه ومع ما يقوله ويفطن. فنحن نرى أن قصة حب زياد لفجر كانت غير مقنعة، رغم الماضي الذي حدثنا عنه بتقدمه لخطبتها، وكان حديث الطبيب لزياد الذي جاء في مستهل الرواية، قد زجّ به خصيصاً ممهداً لعلاقة زياد بفجر حينما يقول زياد: "أحتاج زوجة"، ولعل الفصل الأول بكامله كان يمكن الاستغناء عنه دون أن يؤثر ذلك على بناء القصة الغني ونمو الأحداث فيها.

أما شخصية "غالي" فإنها مثيرة حقاً للانتباه، ولست أدري لماذا تطرّق سريعاً إلى ذهني صورة "وديع عساف" الفلسطيني الذي كان على ظهر (سفينة) جبرا إبراهيم جبرا. هل لأن البطلين فلسطينيان، هربا من قدرهما وفلسطينهما وركبا ظهر السفينة؟ هل لأن السفينة التي ركباها طافت موانئ عديدة؟ أم لأن البطلين أمسكا بالريشة وعبّرا عن مشاعرهما من خلال اللون؟ أم لأن كليهما يقرر العودة إلى الوطن؟ لست أدري، وبقوة وجدت نفسي مدفوعاً لأربط فنياً بين (البكاء على صدر الحبيب) وبين رواية (السفينة) لجبرا إبراهيم جبرا، فأجد صوراً من التشابه، مع الفارق بين شخصيات الروايتين:

❖ "باميلا" اللامبالية في السفينة و "هناء" اللامبالية ايضاً هنا.

❖ "فجر" الهاربة من نظام السلطة الأردنية و "لي" الهاربة من نظام الثأر القبلي ومن ماضيها في السفينة، ثم ماذا بعد؟ هناك أيضاً أوجه تشابه من حيث الشكل في إطاره العريض. فالفصول لدى جبرا في سفينته كانت بأسماء أشخاص يتحدثون ثم يسترجعون ذكرياتهم، كذلك كانت فصول رواية أبي شاور بأسماء الأبطال. وقد اعتمد جبرا المذكرات في السفينة، وهنا تستخدم المذكرات أوجه شبه بعيدة ولكنها لا بد أن تدق الذهن بحدة. والآن ماذا تقدم رواية البكاء على صدر الحبيب؟ إن الرواية السياسية عمل صعب، والأدب السياسي بمجمله ذو مهمة شاقة. وحينما يقدم أحد كتابنا الشباب على تجربة روائية ينتقد بها أخطاء المقاومة من خلال التجربة التي عاشها بنفسه، فإن من الصعب ألا يقع الإنسان في شرك المباشرة، حينما يدين، وحينما يعالج أحداثاُ كبيرة.

ولكن الكاتب حاول الإفلات من هذا الشرك عندما جعل إدانات أخطاء القيادات من خلال تيارات وعي تتوارد إلى ذهن الأبطال، وأحياناً أخرى في ثنايا الحوار... إن الرواية تجربة في مجال الأدب السياسي والتسجيلي، وهي تجربة شاقة، وحينما تصبح القضايا السياسية مجال الأدب، فإن الكاتب سوف يخوض مغامرة كبيرة، وأي مغامرة، هكذا فعل رشاد أبو شاور.

الباب الثالث

الفصل الثاني

غسّان كنفاني: فارس في زمن الاشتباك

كالومض يأتي الفرسان في هذا العصر ويختفون، ونحن نمتلك الدهشة، هل ذلك لأن الفرسان سرعان ما يغادروننا!؟ أم لأنهم يتركوننا في حيرة التساؤل والاندهاش؟.

نعم كان فارساً يحمل القلم وحمل الآلام وحمل الآمال، كان فارساً يجسّد آلام شعب وآمال ثوّار، ويحمل قضية أمّة، ذلك هو غسّان الذي افتقدناه.

ولأن غسّان كان يؤمن بأن الإنسان ليس في نهاية المطاف إلا قضية (أليس الإنسان هو ما يحق فيه ساعة وراء ساعة ويوماً وراء يوم وسنة وراء سنة) فإن غسّان كان قضية. فمنذ اقتلاعه من أرضه ظل يمتلك ما هو أكثر من الذاكرة، لقد كبر غسّان، غسّان اللاجئ الفلسطيني ليكبر معه الوطن وقضية الوطن. هل يمكن لغسّان أن يتجاوز ذلك الحلم والهاجس الدائم الذي ينال من الذاكرة، فيصنع من حياة الفلسطيني حياة اشتباك دائم.

- اشتباك مع الفقر.
- اشتباك مع الأنظمة التي تقهر الفلسطيني وتحولّه إلى مجرد رقم، أو بطاقة إعاشة أو موظف يكدّس القروش، أو تطارده الشرطة والمخبرون.

- اشتباك مع الذات نفسها لتتجاوز القهر والاستسلام لتظل متصلة بالماضي امتداداً للمستقبل.
- **اشتباك مع أعداء الوطن** غاصبي الأرض مضطهدي الإنسان.

ذلك هو الزمن الذي حاربه غسّان وحارب به وحورب به، إنه زمن الاشتباك الذي قال عنه في قصة "الصغير يذهب إلى المخيم" (كان ذلك زمن الحرب ... الحرب؟ كلا الاشتباك ذاته، الالتحام المتواصل بالعدو ، لأنه أثناء الحرب قد تهب نسمة سلام يلتقط فيها المقاتل أنفاسه راحة، هدنة، إجازة، تقهقر. أما في الاشتباك فإنه دائماً على بُعد طلقة، أنت دائماً تمر بأعجوبة بين طلقتين، وهذا ما كان كما قلت لك زمن الاشتباك المستمر).

ماذا تبقّى من غسّان كنفاني ؟

إنه لسؤال يحمل معه شجونه.... تبقى من غسّان ((ما تبقى لكم)) وتبقى من غسّان (**عائد إلى حيفا**) ما يزال بانتظار عودته وتبقى من غسّان (**أم سعد**) التي تنظر إلى (**رجال في الشمس**) وهم يلتفحون بنار صحراء النفط، ماذا تبقى منه؟ هل ننسى العاشق والأعمى والأطرش وبرقوق نيسان.

هناك من المبدعين من يحق أن نسأل عنهم ماذا تبقى منهم، وماذا تبقى لنا منهم؟ ومبدع بحجم غسّان ونوعية إبداعه تظل نتاجاته علامات فارقة في الأعمال السردية المعاصرة. وحيث إن غسّان كنفاني لم يكن مجرد كاتب محترف، بل مناضل وكاتب ملتزم، فقد كان لأعماله مذاقها الخاص، وكان للغته أسلوبها التعبيري المتميز الذي يلتقي فيه القارئ الخاص والقارئ العادي على إحساس بالمتعة التي تصاحب اللغة البسيطة المدهشة.

كان غسّان يناضل بالكلمة، ورشاشه ليس بعيداً عنه، ولم تكن طرود الاغتيال التي فجرته بعيدة عن المحاولة الصهيونية الدائمة لاغتيال الحلم العربي بفلسطين حرة من النهر إلى البحر. حاول غسّان خلال أعماله الإبداعية من قصة قصيرة ورواية بالإضافة إلى مقالاته وأعماله النقدية، أن يظل لصيقاً بالحلم الفلسطيني.

ولهذا نجده يجسد معاناة الفلسطينيين في غربتهم، وهو يرتحل وعلى كتفه هموم وطن محتل، وفي جيبه مفتاح عتيق لمنزل آبائه وأجداده، سرقه منه يهودي ،لعله والد شارون أو شارون ذاته.

كانت شخوص غسّان شخوصاً عادية من رحم التراب الفلسطيني معجونة بقيم الكرامة والشموخ والإيمان بالحرية. لقد كتب غسّان في مدخل رواية أم سعد: ((إننا نتعلم من الجماهير ونعلمها ومع ذلك فإنه يبدو لي يقينياً أننا لم نتخرج بعد من مدارس الجماهير، المعلم الحقيقي الدائم، والذي في صفاء رؤياه تكون الثورة جزءاً لا ينفصم عن الخبز والماء وأكف الكدح ونبض القلب)).

ولا شك في أن صفاء الرؤية والرؤيا لدى غسّان هي التي نقلت هموم الشعب الفلسطيني إلى عمل إبداعي يُعايش الإنسان العربي معه نبض الألم والأمل الفلسطيني.

لو عاش غسّان إلى اليوم ورأى ما جرى بعد اغتياله إلى اليوم لشاهد ما لا يخطر على بال اتفاقيات توقع، وأحلاما تتهاوى، لكنه بكل تأكيد لن يفقد الأمل الذي عاش واستشهد من أجله. وسيدرك إلى أي مدى يمكنه أن يقف بالجماهير التي فجرت الانتفاضة الأولى وانتفاضة الأقصى، هذه الجماهير التي لا تكل من العطاء والتضحية على الرغم من مناورات الساسة واتفاقاتهم مع العدو والذي لا يحترم اتفاقاً.

ولأن غسّان كان فارساً يُخيف ولا يخاف فإنه لم يأخذ استراحة المحارب ولا راحته ولا هدنته. في أتون الاشتباك ظل فارساً يحمل سيفه رغم أنه كما قال في رسالته الأخيرة (المرض يشتد علي وأشعر دائماً بالإعياء والتعب ولكني لا أذهب للفراش، هناك شعور خفي بأن الذين يقعدون الآن لن يقوموا أبداً).

ولأن غسّان كان فارساً لا يعرف الترجّل ولأنه كان لا يرغب في القعود، فإن أعداءَه كانوا أجبن من أن يواجهوه، فكان ذلك الاستشهاد، بطولة غسّان وجُبن الأعداء. ولكن من أين يبدأ غسّان؟ غسّان بدأ وانتهى مع الوطن. كان غسّان يكتب عن الهم الكبير في حياته واتصل ذلك حتى كتب عن الفرح الكبير حينما رأى الثورة يشتد عودها، وحينما رأى أشبال وطنه يحملون البندقية ليمزّقوا الهمّ الكبير، ذلك الهم الذي كان لدى الفلسطيني اشتباكاً دائماً مع الحياة، ذلك الاشتباك الذي تحدث عنه أحد أبطال قصصه في مجموعة (أرض البرتقال الحزين).

(تريد أن تعرف شيئاً عني؟ هل يهمك ذلك؟ احسب على أصابعك إذن، لي أم ماتت تحت أنقاض بيت بناه لها أبي في صفد، أبي يقيم في قُطر آخر وليس بوسعي الالتحاق به ولا رؤيته ولا زيارته، لي أخ يا سيدي يتعلم الذل في مدارس الوكالة، لي أخت تزوجت في قُطر ثالث، وليس بوسعها أن تراني أو ترى والدي، لي أخ آخر يا سيدي في مكان ما لم يتسن لي أن أهتدي إليه بعد).

لم يحاول غسّان أن يداري تعاسة الواقع الذي يعيشه الفلسطيني، ولا الأخطاء التي ارتكبها. كان غسّان يحفر على الآلام ويعريها. إنه يقوم بذلك لا ليفضح بل ليُفصح، نعم كان يعرّي الآلام لتتجاوزها الذات المقهورة.

(لقد مرّ اثنا عشر عاماً على ذلك اليوم، وأنا ملاحق من عاري، كل أيار يثقل صدري كابوس لا يرحم، لست أعرف مبلغ تطوري الآن، هل أستطيع أن

أقتل يهودياً دون أن أرتجف؟ لقد كبرت وجعلتني الخيمة أشد خشونة، ولكن هذا لا يعطيني يقيناً... يقيني الوحيد هو أني أشعر بالعار ملتصقاً بي حتى عظمي).
هذا جانب من الاشتباك الدائم الذي عرّفنا به غسّان... اشتباك مع الذات المسحوقة بالعار الذي ينتظر الخلاص، ولأن العار كان جزءاً من الماضي فإن الهروب منه لا يعني سوى الهروب من الوطن.

لقد كانت تلك الفتاة الحيفاوية التي مرّ طيفها في ذاكرة بطل قصته (شيء لا يذهب) أكبر من مجرد تذكّر أو ماض، ذلك لأنها كانت تمثل الوطن.

قالت له الفتاة الحيفاوية: (باستطاعتك أن تغادر حيفا أن تهرب من حيفا.. ولكنك في يوم سيأتي لا بد لك من أن تصحو وتكتشف وتندم) (ليلى الحزينة البائسة بقيت في حيفا ورفضت أن تخرج منها، وقالت لجيرانها عندما أتوا ليجروها معهم أنها فقدت كل شيء ولا تريد أن تفقد الماضي الجميل في حيفا الجميلة ، تريد أن يبقى لها شيء لا يذهب).

هذه القصة كُتبت عام 1959م ويفصل بينها وبين قصة (عائد إلى حيفا) أكثر من عشر سنوات... وليس هناك أوجه مقارنة بين قصة (شيء لا يذهب) ورواية (عائد إلى حيفا)، لكن تظل تلك القصة القصيرة ارهاصاً بهذا العائد إلى حيفا ، **لتؤكد أن الخروج من الوطن لا يسبب البؤس والندم فحسب، بل إنه يفقد الإنسان أجمل ما في حياته... مما سيحيله إلى اشتباك دائم مع الذات والماضي والحاضر.** فهذه شخصية سعيد العائد إلى حيفا تقابلها شخصية بطل قصة (شيء لا يذهب) فكلاهما يخرج من حيفا ... ولذا لا يكون لديهما الحق في امتلاك الماضي... وهما شخصيتان تستشعران الندم الذي أصابهما لتركهما حيفا. وتكون الفتاة الحيفاوية هي الوجه الآخر للرجل اليافاوي في عائد إلى

حيفا فكلاهما لم يتركا الوطن ، وكلاهما يمتلكان الماضي، لأنهما ظلا يستمران في التشبث بالوطن. ولكن لأن بين هذين العملين أكثر من عشر سنوات فإن الرؤيا اختلفت بينهما، فالمسافة بين القصة الأولى و لرواية كانت مسافة طويلة من الاشتباك وزمن أطول منه، وكان في كليهما قد تبدل الاشتباك ليصبح أكثر ضراوة وأكثر إشراقاً في آن واحد، ذلك أن الأستاذ العائد إلى حيفا بعد حرب 1967م كان قد خسر فيما خسر ماضيه المتخاذل حتى ولو كان متجسداً بابنه خلدون، الذي تركه طفلاً ليصبح بعد ذلك دوف اليهودي، وهو لديه الاستعداد الآن لأن يقدم خسارة أخرى، ولكنها تظل على مستوى وطني وثوري تضحية وبطولة، هذه الخسارة استعداده لأن يضحي بابنه الآخر خالد، ولكن على أن يصبح فدائياً يعود إلى فلسطين وتلك هي قصته الثانية.

يقول سعيد للمرأة اليهودية (أتعرفين شيئاً يا سيدتي يبدو لي أن كل فلسطيني سيدفع ثمناً، أعرف الكثيرين دفعوا ابناءهم، وأعرف الآن أنني أنا الآخر دفعت ابناً بصورة غريبة، ولكنني دفعته ثمناً ذلك كان حصتي الأولى وهذا شيء سيصعب شرحه).

أما حصته الثانية التي يعنيها ، فقد كان يتمنى أن يكون ابنه خالد قد التحق بالفدائيين ،وذلك حين يقول لزوجته عنه (أرجو أن يكون قد ذهب أثناء غيابنا) وهنا يكمن الاختلاف بين شخصية الذي كان لا مبالياً جباناً الذي لم تستطع ليلى الفتاة الحيفاوية المناضلة أن تغيره (لم تستطع ليلى أن تغيّرني ،شعرت هذا بوضوح الآن إنسان لا فائدة منه هذا كل شيء). وما بين هاتين القصتين كان غسّان دائم التجوال في عالم ينوء بالآلام، هناك رجاله الثلاثة الذين ارتحلوا تحت لهيب الشمس لتجمعهم رحلة عذاب واحدة وتجمعهم بأبي الخيزران رحلة في عربة ستكون هي القبر لهؤلاء الثلاثة.

هذه الرواية كانت من أوائل الأعمال التي قدّمت غسّان إلى القارئ العربي كاتباً كبيراً.

إن الرجال الثلاثة (أبا قيس وأسعد ومروان) فلسطينيون يعيشون في زمن الاشتباك، فكل له همومه ومعاناته.

أبو قيس: الذي ترك زوجته وأسرته التي تعيش في نصف غرفة بينه وبين جيرانه اكياس من الخيش... الذي احتاج إلى عشر سنوات من الجوع ليقتنع بفقده لبيته وقريته وشبابه.

أسعد: المناضل المتخفي من السلطة الذي يأخذ خمسين ديناراً من عمّه كي يقوم برحلته إلى الكويت ليبدأ حياته ولو في الجحيم كما قال له عمّه، وذلك مقابل أن يتزوج ابنة عمّه.

مروان: هو ثالث ضحايا زمن الاشتباك، غلام ابن ستة عشر عاماً، فبعد أن تزوج أخوه زكريا وانقطعت أخباره وبعد أن يتزوج والده ويطلّق أمّه ويترك لها أربعة أطفال... يصبح مروان مسؤولاً عن إعالتهم، بعد أن يطلب والده منه أن يترك المدرسة السخيفة التي لا تعلّم شيئاً، وأن يغوص في المقلاة مع من غاص.هؤلاء الثلاثة كل منهم يحمل مأساته وفي طياتها يحمل مأساة شعب مشرد، وهؤلاء الثلاثة يلاقون الموت في جوف خزان السيارة.

إنهم شخصيات تقبل التحدي لكنها تؤكد في الوقت ذاته أن للانتصار شروطاً لم يمتلكوها، فإن إرادة الحياة التي يجسدها هؤلاء الثلاثة بأعمارهم المختلفة تمثل ثلاثة أجيال هي في النهاية رمز للمعاناة التي لحقت بالفلسطينيين كلهم. إن هذا المصير الذي لقيه الثلاثة كان مصيراً محتوماً قدّمته لنا الشخصيات ذاتها هي دور أبو قيس قوله (إذا وصلت إذا وصلت) وحينما

قال الرجل السمين لأسعد (حاذر أن تأكلك الجرذان قبل أن تسافر) وحين طلب والد مروان من ابنه أن يغوص في المقلاة إلى الأبد.

هؤلاء الثلاثة يلاقون حتفهم، ويأبى القدر إلا أن يكون الشاهد الوحيد على مأساتهم، رابع فلسطيني يحمل المأساة معه حيث ارتحل ذلك هو **أبو الخيزران** وكان ماضيه هو الذي حمله عبء الشهادة تلك، لقد انضم إلى فرق المجاهدين وأصيب في معركة خاضها مع المجاهدين ، وفقد رجولته في عملية لإنقاذ حياته نتيجة إصابته تلك، وحينما يرى أبو الخيزران أن رجولته ضاعت وضاع الوطن يصرخ (تباً لكل شيء في هذا الكون الملعون) ويهتف (إنني أريد مزيداً من النقود... مزيداً من النقود، ولقد اكتشفت أنه من الصعب تجميع ثروة عن طريق التهريب أترى هذا المخلوق الحقير الذي هو أنا أنني أمتلك بعض المال؟ لقد تعبت في حياتي بشكل أكثر من كان أي والله أكثر من كان). لقد عاش أبو الخيزران حياة الاشتباك وها هو يقف شاهداً وحيداً عليها وعلى الموتى الثلاثة، ولتضاف إلى قائمة متاعب حياته هذه الرحلة.

بعد ذلك يصدر غسّان كنفاني روايته القصيرة (ما تبقى لكم) وكأنها إجابة عن رواية رجال في الشمس ، ففي (رجال في الشمس) يموت الرجال الثلاثة في رحلة صحراوية في جوف خزان، وإذا كان الرجال قد ماتوا في الخزان بعيداً عن حضن الأرض ،ولم يحاولوا أن يدقوا الخزان لينقذوا أنفسهم من الموت، وكان الزمن هنا ضدهم... ففرق دقائق كانت كفيلة لإنجاز اختناقهم .

إذا كانت تلك معادلات ثلاث طرحتها رواية رجال في الشمس إلا أننا نجد إجابة عليها في رواية ما تبقى لكم التي جاءت لتجعل للأشياء بطولتها ... التي تعادل البطولة الإنسانية:

لقد مات الرجال في الصحراء في جوف خزان ، ولكن حامد بطل (ما تبقى لكم) يقول للصحراء (ليس بمقدوري أن أكرهك ولكن هل سأحبك أنت تبتلعين عشرة رجال من أمثالي في ليلة واحدة.. إنني أختار حبك إنني مجبر على اختيار حبك ليس ثمه من تبقى لي غيرك).

وتقول الصحراء عنه: (عرفت أنه رجل غريب وحين رأيته تأكدت من ذلك، كان وحيداً تماماً بلا سلاح وربما بلا أمل أيضاً، ورغم ذلك فمنذ لحظة الرعب الأولى قال إنه يطلب حبي ، لأنه ليس باستطاعته أن يكرهني). إن الصحراء التي ابتلعت الرجال الثلاثة تصبح هنا جزءاً من الخلاص والراحة وهي معبر إلى المستقبل... إنها الأرض التي لا بديل عنها... إن الصحراء هنا وسيلة تصل بينه وبين أمه، وتظل الأرض هي ما تبقى للفلسطيني.

ثم إن الكاتب يجعل الساعة في (ما تبقى لكم) بطلاً من أبطال القصة لتكون زمناً شاهداً على الماضي ، وتؤكد على الحاضر والمستقبل فالزمن هو ما تبقى للفلسطيني كذلك.

ثم نقابل حامد وهو يأسر يهودياً ويستل سكينه وتكون المواجهة مع العدو هي ما تبقى للفلسطيني لذلك، هذه الأمور الثلاثة ... الأرض، الزمن، مواجهة العدو – أمور ثلاثة افتقدها أبطال غسّان في رواية رجال في الشمس، وهي الأمور الوحيدة التي تبقت للفلسطيني.

ولذا فإننا نجد غسّان كنفاني بعد عام 1967م يصدر مجموعته القصصية (عن الرجال والبنادق) لينقل لنا صورة تجسيد تلك الأشياء التي تبقت للفلسطيني الأرض – الزمن – مواجهة العدو.

فالزمن لا يغير الأجيال التي تربط بين الأحفاد الذين يولدون خارج الأرض والأرض ذاتها.

فهذا هو الصغير يكتشف أن المفتاح يشبه الفأس فيؤكد ذلك الارتباط بين المفتاح والبيت المغتصب، الوطن السليب وهذه أم سعد التي تعيش في مخيم للاجئين تقدم ابنها فدائياً وتتمنى لو تلحق بابنها للإسهام مع الفدائيين.أتدري؟ إن الأطفال ذل لو لم يكن لدي هذان الطفلان للحقت به، وسكنت معه، هناك خيام! خيمة عن خيمة تفرق!! لطبخت لهم طعامهم وخدمتهم بعيني ولكن الأطفال ذل!

ولذا ولأنها لا تستطيع أن تلحق به فإنها توصي بابنها:

(أقول لك لتكن توصيتك به إلى رئيسه أن لا يغضبه قل له أم سعد تستحلفك بأمك أن تحقق لسعد ما يريد ، إنه شاب طيب وحين يريد شيئاً لا يتحقق يُصاب بحزن كبير، قل له دخيلك أن يحقق له ما يريد، يريد أن يذهب إلى الحرب؟ لماذا لا يرسله؟)

وهكذا تصبح الطريق أمام الفلسطيني واضحة... فلم يتبق أمامه في زمن الاشتباك سوى القتال لتحرير وطنه.

تحدّث غسّان كنفاني عن قضية الشكل في أدبه وقد تساءل في مقابلة إذاعية بقوله (لمن أكتب؟) وقد أجاب بقوله: (... إذا استطعت أن أقول الأشياء العميقة ببساطة فأكون في الواقع راضياً عن تطوري لأنني أعتقد أنه ليس بالضرورة فقانون الأشياء العميقة معقدة وليس بالضرورة أن تكون الأشياء البسيطة ساذجة... والإنجاز الفني الحقيقي هو أن يستطيع الإنسان أن يقول الشيء العميق ببساطة...).

لقد بدا غسّان في روايته (ما تبقى لكم)وكأنه يخوض عالم التجريب في الفن، ذلك الذي فيه يبعد الكاتب عن جماهير قرّائه ، ولأن غسّان كان مدركاً لأهمية الكتابة للجماهير ، وبأن يقول الشيء العميق ببساطة ، فإننا لا نعجب أن نجد كاتباً مثله يصدر رواية (رجال في الشمس)مستخدماً بها أسلوب تيار الوعي والتواقت ثم يقدم في رواية(ما تبقى لكم)شكلاً أكثر تعقيداً لعالم متداخل بين زكريا وأخته والساعة والصحراء ، متأثراً بذلك برواية تيار الوعي لدى جيمس جويس وخصوصا رواية الصخب والعنف لفوكنر ، ولتكون هذه الرواية من أوائل الروايات العربية باعتمادها اعتماداً كاملاً على تيار الوعي في بنائها الفني.

ولكن غسّان لا يستمر في هذا النهج، ويكون بعد ذلك حريصاً على تقديم قصصه ورواياته في بناء فني هو أقرب إلى الشكل التقليدي في بناء الحبكة أو تقديم موقف أو انطباع أو حدث.

لننظر إلى رواية عائد إلى حيفا وكيف قدمها لنا، أو لننتقل إلى أحاديث أم سعد تلك المرأة الفلسطينية التي تعرض قصتها بأسلوب سلس هو أشبه بالحكايةالذي يقترب من أسلوب الحديث اليومي.

لقد أراد غسّان أن يقترب من الجماهير ، ولأنه كان يكتب من أجل قضية الجماهير فإنه وهب قلمه لينسج حكايات الناس الفقراء ،ويكتب عنهم ويكتب للغد المشرق ، ولأن الغد المشرق يحتاج إلى فرسان فقد هوى فارس في زمان الاشتباك اسمه غسّان كنفاني ولكنه بقي لنا وبقيت أعماله بإرهاصات غد مشرق لوطن حر.

الباب الثالث

الفصل الثالث

صورة الآخر عند الروائي حسن حميد

قراءة في رواية "جسر بنات يعقوب" [4]

1. المدخل:

الآخر موضوعة تشكل أساس المواجهة أو التلاقي، الاختلاف أو التوافق، ومن هنا يبدأ التساؤل ، من هو الآخر ؟

نقطة البدء تبدأ مع الذات التي تواجه الآخر المختلف والمغاير، المختلف فكراً أو عقيدة والمغاير جنساً أو عرقاً أو انتماء للمكان، أو من حيث المهنة، أو الانتماء الجغرافي أو الحالة الاجتماعية أو المركز الاجتماعي، وكل ما هو غير الذات يصبح الآخر.

والبحث في العمل الروائي، هو بحث في أشكال الحياة التي يبثها الكاتب في شخوصه ويجسّد علاقتها بالآخرين، ووجود الآخر المختلف أو المغاير عنصر يخلق

---

[4] ورقة مقدمة إلى ندوة"**صورة الآخر الأجنبي والحوار الحضاري في الرواية العربية اتحاد الكتاب العرب** دمشق في الفترة من 15- 16 تشرين الثاني 2008

"

الحيوية في العمل الروائي ونجد الصراع بين هذه الشخوص هو أساس العمل الدرامي الذي يسهم في خلق الحياة الروائية وحركتها.

وإذا اتفقنا أن الدراما عنصر أساس في أي عمل روائي يخلق الحيوية التي تقوم على الفعل ورد الفعل لتخلق نوعاً من الصراع بين الشخوص الروائية ويقود العجلة، بالتحرك دوماً بالحدث إلى الإمام.فمن هو الآخر لدى حسن حميد في رواية جسر بنات يعقوب ؟ [5]

يمكننا أن نتتبع عناصر تكوين صورة الآخر لدى حسن حميد بأشكال مختلفة :

1. الآخر المختلف في العقيدة الدينية المسيحي > < اليهودي.
2. الآخر المختلف في العرق العربي > < اليهودي.
3. الآخر المختلف الذي يشكل تهديداً للوجود ابن الأرض > < مواجهة المحتل العدو.
4. الآخر المختلف في الثقافة ابن الريف > < المدينة.

في رواية حسن حميد "الونّاس عطية " ص 29 يقول الراوي:

".. قناعتي كانت مطلقة .. بأن سعادتي مع نورا ، نورا التي هي روح جديدة، ومجتمع جديد وحضارة جديدة " [6] ، يدرك الكاتب أن العلاقة مع المختلف يمكنها أن تشكل تغييراً وتصنع أسلوب حياة جديدة بل وحضارة جديدة.

---

[5] حسن حميد: جسر بنات يعقوب الطبعة الثانية (دمشق: دار السوسن للنشر والتوزيع والطباعة 2001

6 حسن حميد "الونّاس عطية ص 29

ولكن رواية جسر بنات يعقوب تقدم صورة للآخر الذي يُشكل عدواً وتحدياً للوجود، ومن خلال دراسة عناصر صورة الآخر في الرواية التي نجد فيها عناصر صورة الآخر ذات أوجه سلبية ترتبط بالصور النمطية السائدة لشخصية اليهودي، سواء كان ذلك مرتبطاً بصفاته الجسدية لليهودي المشهور بأنفه المعقوف، أو مرتبطاً بصفاته الخلقية والسلوكية المتمثل بالجشع والانتهازية والانطوائية وحب المال واستغلال الجنس لتحقيق الأهداف، والتكاتف فيما بين اليهود ودعمهم غير المحدود بعضهم للبعض الآخر.

2- ما هي الصورة ؟

تعرف الموسوعة البريطانية الصورة: بأنها " بشكل عام نسخة من شيء آخر أو تمثيل له، أو مقابلة، فانعكاس شخص في مرآة يسمى صورة" [7]

ويعرف كينيث بولدنج Kenneth E. Boulding الصورة العامة بأنها : "منتج لخطاب الكون ذلك بأنها عملية مشاركة الرسائل والتجارب وتأتي الرسائل المشتركة التي تبني الصورة المهمة من الطبيعة والناس الآخرين" [8]

حينما نقوم بدراسة الصورة في الأعمال الأدبية نتساءل ما هي الصورة التي ندرسها ؟ وفي هذا السياق يمكن التفريق بين نوعين من الصورة في العمل الأدبي وهما : الصورة الفنية والصورة النمطية .

---

[7] Encyclopedia Britanica V.12 ed. 14 P.108

[8] Kenneth E. Boulding : : The Image . Ann Arbor : The University Of Michigan Press .p.132

2 – 1 الصـورة الفنيـة Image : يعـرّف قـاموس الأدب العـالمي الصـورة الفنية بأنها "شكل - وعلى وجه خاص – رؤيا وهي تعبير عن شيء ذى استجابة حسية تستخدم عادة تعبيراً ما أكثر دقة."[9]

و يعرّفها أوستين وارن و رينيه ويلك بأنها : " إعادة إنتاج عقلية ، ذكرى، لتجربـة عاطفية أو إدراكية عابرة، ليست بالضرورة تعبيرية". [10]

وتكمن فاعلية الصور أساساً في تمثيلها للإحساس [11] إذ إن الصفات الحسية التي تخلقها الصور، وإن كانت تخلق نوعاً من الحيوية لوضوح ودقة التفاصيل، فهي ليست العامل الحاسم في إضفاء الفاعلية على الصورة ، إذ إن فاعليتها عند (أ. ريتشاردز) "ترجع إلى مقدار ما تتميز به هذه الصورة من صفات باعتبارها حدثاً عقلياً لها علاقة خاصة بالإحساس على نحو لم يمكن تفسيره حتى الآن. ولكننا نعلم أن استجابتنا العقلية والإنفعالية إزاء الصور يعتمد على كونها تمثل الإحساس أكثر مما تعتمد على الشبه الحسي بينها وبين الإحساس، وقد تفقد الصورة طبيعتها الحسية، إلى حد يجعلها تكاد لا تكون صورة على الإطلاق وإنما

---

[9] Shipley Joseph T. "Dictionary of World. Literature", Little Field Adams and Co. New Jersey, 1968 ., P. 219

[10] (أوستين وارن –رينية ويلك – " نظرية الأدب" ترجمة محيي الدين صبحي، دمشق، 1972، ص 204).

[11] المصدر نفسه 1972، ص 241.

تصبح مجرد هيكل ومع ذلك فهي تمثل إحساساً لا يقل عن الإحساس الذي تولده لو كانت على درجة قصوى من الحسية والوضوح .[12]

2 - 2 الصورة النمطية Stereotype

الصورة النمطية : شكل من التمثيلِ الذي يُحوّلُ الناس إلى بضعة خصائص أساسية بسيطة التي تمثلهم كطبيعة ثابتة .والصورة النمطية يمكن التنبؤ بها اعتمادا على الفكرةِ البسيطةِ التي بناء عليها تكون عضويةِ الفردِ ضمن أيّ مجموعة اجتماعية مُعطية (مستندة على، على سبيل المثال، صنف، جنس، جنس، عُمر، أَو جنس) تُهيّئُه دائماً لامتِلاك بَعْض خصائصِ الشخصيةِ، مواقف، أَو سلوك.[13]

وفي تعريف آخر فإنها : " تعميمَ حول مجموعة من الناسِ حيث نَنْسبُ لهم مجموعةَ الخصائصِ. يُمكنُ أَنْ تَكُونَ إيجابيةَ أَو سلبيةَ، مثل عندما نعتبر الصورة النمطية لجنسياتِ مُخْتَلِفةِ صديقة أَو نعتبرها غير ودّية.[14]

وفي دراستنا هنا للرواية يعنينا الصورة النمطية التي تتسم بأنها تجميعية وقابلة للتصديق وحيوية ومبسطة ،[15] ويمكننا بها أن نتعرف على ملامح الشخوص الروائية

---

[12] – أ.أ رتشاردز : مبادئ النقد الأدبي. ترجمة د. مصطفى بدوي، القاهرة سنة 1963 ، ص 172.

[13] http://www.popularculture.nelson.com/glossary.html

[14] http://changingminds.org/explanations/theories/stereotypes.ht

وفي كتابه " الصورة The Image "- الذي يعتبر كلاسيكياً في هذا المجال- يقسّم كينيث بولدنج Kenneth E. Boulding: المعرفة في الحياة والمجتمع إلى عشرة أنواع من الصور المرتبطة بالإنسان والمجتمع وهذه هي :

أولاً : الصورة المكانية : وهي صورة الفرد للموقع في الفضاء المحيط به .

ثانياً : الصورة الزمانية : صورة تسلسل الوقت وموقعه فيه .

ثالثاً : الصورة العلائقية : صورة الكون حوله باعتباره نظاماً للأشياء

---

[15] ويقدم بورستين Daniel J. Boorstin توصيفاً لخصائص الصورة المرتبطة بالمؤسسات والتي يرى أنها ملامح لجميع أنواع التفكير للصورة في حياتنا وهي :

1- أنها تجميعية Synthetic : وهي مخططة لتخدم هدفاً وتخلق نوعاً معيناً من الانطباع.
2- أنها قابلة للتصديق : وهي لا تخدم شيئاً إذا كان الناس لا يصدقونها وفي عقولهم فيجب أن تقابل صورة المؤسسة أو الفرد الذي يتصورنه .
3- الصورة سليمة : حيث أن الصورة من المفترض أن تتلازم Congruent مع الواقع، فإن تتبع الصورة (بالتحديد المؤسسة) يتوقع أن تلائم الصورة بدلاً من أن تكافحها .
4- الصورة حيوية وصلدة الصورة محدودة ويجب أن تكون قابلة للاستيعاب أكثر من شيء آخر .
5- الصورة مبسطة والاستبعاد الأوجه غير المرغوبه يجب أن تكون أبسط من الأشياء التي تمثلها .
6- الصورة غامضة فهي تطفو بين الخيال والحواس بين التوقع والواقع فهي إذن غامضة ص . ص 184 – 194)

Daniel J. Boorstin : The Image . A Guide to Pseudo – Events in America : Atheneum : New York , 1978 , P.P 184 – 194.

رابعاً : الصورة الشخصية : صورة الفرد في وسط الأشخاص الأدوار والمنظمات في وسط الكون الذي يعيش فيه .

خامساً : الصورة القيمية : صورة القيم والتي تتكون من التنظيم والمعيار لما هو أفضل أو أسوأ لمختلف أجزاء الصورة .

سادساً : الصورة العاطفية وصورة المشاعر : التي بها تتأثر عناصر الصورة بالعاطفة والتأثيرات .

سابعاً : تقسيم الصورة ومواقعها الواعية وغير الواعية وما تحت الوعي .

ثامناً : تصنيف الصورة من حيث أبعاد اليقين أو الشك ، الوضوح والغموض .

تاسعاً : تصنيف الصورة من حيث الواقعية حيث تترافق الصورة ذاتها مع الحقيقة الخارجية .

عاشراً : تصنيف الصورة من حيث معيار عموميتها أو خصوصيتها فيما إذا كانت الصورة يتشارك فيها الآخرون أو هي خاصة بالفرد . [16]

تقوم رواية جسر بنات يعقوب على بناء صورة الآخر بالاستناد إلى الصورة النمطية العالمية لليهودي. وهي صورة - في حقيقة أمرها - تم صنعها وتكريسها في أوروبا ، وتم تجسيدها في حياتهم اليومية وفي أعمالهم أدبية ، ولعل قمة الصور النمطية السلبية لليهودي هي التي تمثلت في كتاب برتوكولات

---

[16] Kenneth E. Boulding : : The Image . Ann Arbor : The University Of Michigan press . 1956 p.p 47 – 48

حكماء صهيون الذي ينفي اليهود صلتهم به، ويعتبرونه من تأليف أعداء السامية في روسيا . [17]

2- 3 الصورة النمطية لليهودي :

لو حاول أحد الباحثين الدخول إلى أحد محركات البحث للشبكة العالمية (الإنترنت) للبحث عن الصور النمطية لليهود Jews Stereotype ، فإنه سيجد مئات آلالاف من المواقع الإلكترونية ذات المدخلات التي تشير إلى تلك الصور النمطية ،وبعضها يحيلنا إلى كتب أو مقالات أو مدونات أو غير ذلك .

---

[17] جاء في موقع اسرائلي –صهيوني استعراضا لكتاب الخوف من اليهودية وفيه تم الحديث عن تأليف كتاب حكماء صهيون وكتب أخرى مشابهة وهذا هو النص :

A feature of Russian Judeophobia which had far-reaching influence was its manner of self-justification. The Czarist secret police looked for a means to ideologically justify its actions. They finally found it in a book, "The Protocols of the Elders of Zion," written by Sergei Nilus around 1902, which is a modern adaptation of the old demoniac tradition.

The book supposedly included the "true" Protocols of the Jewish conference held in Basle, Switzerland in 1897 (the First World Zionist Congress) which while presenting its aims as the establishment of a national home for the Jews, really conveyed a plan to dominate the world. In it, rabbis and leaders speak about their blood-thirsty inclinations, machinations and power.

There were some precedents to the Protocols, but only Nilus's book was a resounding success, as we will see. Three previous similar manuscripts were written in 1869: one German ("The Rabbi's Speech" by Hermann Goedsche), one French ("The Jew, Judaism and the Judaization of the Christian Peoples" by Gougenot de Mousseaux), and one Russian ("The Book of the Kahal", by Jacob Branfman

{ Judeophobia - History and analysis of Antisemitism, Jew-Hate and anti-"Zionism" Chapter 11: Conspiratorial Theories and Russian Judeophobia ('Anti-Semitism')} (http://www.zionism-israel.com/his/judeophobia9.htm)

ومن هذه الصورالنمطية التي أشار إليها *Doug Brook* ما يلي [18]:

1. كُلّ اليهود عِنْدَهُمْ أنوفُ كبيرةُ.
2. جميع اليهود أغنياء.
3. اليهود رخيصون،
4. اليهود مراوغون.
5. يَلْبسُ كُلّ اليهود المتدينين قبعات ومعاطف سوداء
6. اليهود قَتلوا السيد المسيح
7. يستعملَ اليهود دمّاً لعمل المزة *matzah*
8. كُلّ النِساء اليهوديات مناسبات لك.
9. كُلّ النِساء اليهوديات يمتلكن خصائص الصورة النمطية للأم اليهودية.
10. اليهود ما زالوا يُقدّمونَ الأضحياتِ في الصلوات .
11. كُلّ اليهودى يلتزمون بأكل الكوشرَ.
12. يُسيطرُ اليهود على هوليود ويُسيطرُون على كامل صناعةِ الترفيهِ.
13. يُسيطرُ اليهود على الأخبارِ.
14. يُسيطرُ اليهود على الحكومةِ.

---

[18] *Doug Brook Turn down the stereotype[http://carfax.cnc.net/beholder/2005/beholder0505.html]*

وانظر ، *(Wendi Muse Damned If You Do: Jews in the Spotlight, Stereotypes, and Identity)*

http://www.racialicious.com/2008/04/14/damned-if-you-do-jews-in-the-spotlight-stereotypes-and-identity-full-piece/

15. يُسيطرُ اليهود على صناعة النشرِ
16. اليهود يحبون المال ويحصلون عليه بأي وسيلة
17. اليهود يستغلون الجنس لتحقيق أغراضهم

هذه الصورة النمطية ليست جميعها متجسدة في الرواية ولكن تم التعبير عنها بطرق مباشرة أو غير مباشرة .

3- الزمن والمكان في الرواية وعلاقتها بالصورة في الرواية :

يشعر قارئ الرواية بأنها تحمل في طياتها التباساً يراوح بين الخيال والحقيقة، فهي تحمل معها رداء من التمويه، فأسماء الأماكن حقيقية- باستثناء اسم قرية الشماصنة التي لا وجود لها تاريخيا أوجغرافيا . إذ إن جسر بنات يعقوب ونهر الأردن وفلسطين وبيت المقدس تشير إلى هذا المكان الجغرافي، وتحديد وقوع أحداث الرواية في عهد المماليك أوائل القرن الثالث عشر ميلادي، ولكن الشماصنة بوصفها قرية غير موجودة على الخارطة جغرافياً تصبح رمزاً، والزمان في الرواية غير واقعي، إذ يخلط بين الأسطوري وانعكاسه على الواقع.

3- 1 الزمن : فضاءً روائياً

يختار الكاتب زمناً بعيداً يرتد إلى مرحلة المماليك، وهذه المرحلة الروائية تطرح نوعاً من التساؤلات حول هؤلاء الغرباء – الذين يبرزون لنا من خلال الصورة النمطية لليهود .. الذين كانوا يعيشون في ظل الحضارة العربية الإسلامية حياة متسامحة عبر عنها كتاب صهيونيون بأنها تمثل الفترة الذهبية لليهود . وهنا يكفي الرجوع إلى كتابين هما :

- Paul E. Grosser & Edwin G. Halperin: Anti-Semitism The Causes Effects of a Prejudice
- D. Goiten , Jews & Arabs :Their Contacts Through the Age

ونجد أن الكتابين يؤكدان على أن ازدهار الفكر والفلسفة وتطور اللغة العبرية ومشاركة اليهود مشاركة كاملة في الحياة الاجتماعية كان قد تم في ظل حياتهم في لواء الحضارة العربية الإسلامية . في الوقت الذي كان يعاني اليهودي في أوروبا المسيحية، الاضطهاد والتي كانت تنعكس على صورته النمطية في الحياة اليومية ، وكان لها بعد ذلك انعكاساتها في الأدب الغربي مثل الشخصيات الأدبية من شكسبير وموليير وغيرهما .[19]

وهنا كان اختيار هذه المرحلة كأنه ناقوس تذكير للعودة إلى طبيعة العلاقة بين العربي واليهودي ، وإلى أن مصادر الصورة النمطية لليهودي انبثقت من علاقات تاريخية لم يكن العربي / المسلم مصدرها ، بل إنها ترتد إلى التعامل الذي لقيه اليهودي في أوروبا المسيحية في تلك العصور المتقدمة إذ لقي اليهود معاملة تسامح بين ظهرانيي العرب ولم يعرفوا شيا من العداء للسامية الذي

---

[19] أخذ اليهود حقهم الكامل في هذه الحضارة التجارية الشرق أوسطية وبالتحديد من القرن العاشر حتى القرن الثالث عشر ، أخذت في ذلك الوقت وفي تلك البقعة من العالم اليهودية شكلها النهائي .هناك ، تحت تأثير المسلمين العرب ، أصبح الفكر والفلسفة اليهودية والقانون اليهودي والممارسات الدينية منظم وتشكل بشكله النهائي ، حتى اللغة العبرية ، تطورت قواعدها ومفرداتها على غرار نموذج اللغة العربية . كان سيصبح مبدأ إحياء اللغة العبرية في وقتنا الحالي غير منطقي بدون الخدمات التي أضفتها اللغة العربية بشتى الطرق منذ ألف عام . أصبحت اللغة العربية نفسها اللغة اليهودية ، على نقيض اللاتينية في أوروبا ، حيث أصبح اليهود يستخدمونها في شتى المجالات الدينية ، ما عدا في الصلوات في الكنيس .إن الحياة المتداخلة بين الحياة العربية واليهودية يمكن وصفها بشكل مباشر بأن اليهود في البلدان العربية كان لهم مشاركة كاملة في تراجع وتدهور هذه البلدان في أواخر العصور الوسطى ، والقرون التي تلتها .

S. D. Goiten , Jews & Arabs :Their Contacts Through the Ages.3rd Edition .New York :Schocken Books 1974 p . p 7-8

لقيه اليهودي في أوروبا. [20] **ولم يكن عبثاً اللقاء بين اليهودي وأهل القرية.. كان لقاؤه بين الشماصنة لقاء مرحبا به، باستثناء راهبات الدير اللائي استشعرن بالخطر، لقد تسلل يعقوب وبناته وقبله سليمان إلى المنطقة بدون تحديات تذكر.حيث أن تلك الفترة لم تشهد صراعاً مسلماً عربياً في مواجهة اليهودي .**

وهكذا كان التداخل التاريخي في هذه المرحلة، وفي هذه المنطقة بين المسيحي واليهودي ليؤكد أمرين هما :

1. **لم يكن هناك صراع تاريخي بين سكان المنطقة واليهود إلا بعد دخولهم الاستيطاني ورموزه في الرواية واضحة " العجوز – رمز الصهيونية العالمية " " سليمان – الرأسمالية اليهودية " " يعقوب بناته – المهاجرون اليهود القادمون من الشمال " .**

---

[20] تاريخياً ، كان العداء للسامية في العالم الإسلامي كماً ونوعاً متميزاً عن العداء للسامية في العالم الغربي المسيحي . الحظ السيء لليهود في البلدان الإسلامية لا يقترب في تركيزه وقوته من التجربة اليهودية في أوروبا نادراً ما كان اليهودي في البلدان الإسلامية يعامل كغريب .كان هناك بعض الإقصاءات في الجزء الأكبر ، كان القانون يحمي اليهودي من العدوان من جيرانه .لم يكن اليهود الأعداء الأساسيين في العقيدة الإسلامية كان هناك حالة من التسامح الديني افتقدها الدين المسيحي تجاههم . لم يكن العنف المكثف والاضطهاد المعادي للسامية ولكنه كان موسمياً وغير منتظم .وكان هناك مراحل وأماكن في تفاعل بين العرب واليهود بمودة أصيلة ولهذه الأسباب فإن العلاقات الإسلامية العربية – اليهودية لا تدخل ضمن هذه الدراسة . (ص 7)

Paul E. Grosser & Edwin G. Halperin: Anti-Semitism The Causes Effects of a Prejudice, Citadel Press, Secaucus, N . J. : 1979-p7.

2. أن الصورة النمطية التي تكونت عن اليهودي لها جذورها التاريخية ولم تكن في حدتها ولا في صورتها النهائية التي تجذرت وانتقلت لتصبح صورة نمطية عالمية ، إلا نتاج حضارة أوروبا المسيحية .

3- 2 المكان : فضاءً روائياً

يختار الكاتب مكاناً رمزياً قرية الشماصنة وما حولها لتدور فيها أحداث الرواية ، هذا المكان الذي يقع على ضفة نهر الأردن الغربية والمكان المعروف بجسر بنات يعقوب وهنا نجد أن الكاتب يزاوج بين خيالية المكان وواقعية الجغرافية .

فهو يختار مسرحاً لأحداث الدير الذي يقع على جبل مرتفع ، تعيش فيه الراهبات بما يحملنه من زهد في الحياة وبحث عن شفاء الروح ، وفي مكان عال أقرب إلى السماء ليحمل معه بعدا روحيا. والمكان الآخر الذي اختاره يعقوب بنفسه يحمل بعدا ماديا ليحمل معه كذلك بعداً يناقض الموقع الأول فهو مكان خفيض قرب الجسر ، ، وهو مكان يرتبط بالحياة اليومية قرب الجسر ليكون يعقوب حارسه، وليبني الخان بجواره ، كي يكون جابياً ومتاجراً ببناته من أجل المال . وهكذا يكون اختيار المكان جزءاً حيوياً في بناء الصورة النمطية ليعقوب وبناته (اليهودي الذي يسعى إلى المال ولو بأي ثمن).

4- بناء الرواية : حكايتان متوازيتان في رواية واحدة

تنقسم رواية جسر بنات يعقوب إلى حكايتين رئيسيتين متوازيتين:

الأولى: قصة الدير في قرية الشماصنة التي تقع إلى الشمال الغربي من قرية طبريا ويتحدث أهلها الآرامية " هذا كتاب، فيه مجموعة كتب، وصل إليّ بالتوارث عن ثلاثة عشر جداً من أجدادي، وقد عثروا عليه في خزانة كتب جدنا

الرابع عشر العلامة المقدسي المعروف إلياس الشمنذوري، الذي عاش في مدينة القدس في بداية القرن الثالث عشر ميلادي أيام المماليك " (ص 7)

تقص حكاية الدير قصص الراهبات الثلاث، ماريا وصفية ومرجانة، ووكيل الدير حنا . وهذا الجزء لا يروي علاقة الدير بيعقوب وبناته التي أشارت لها الرواية في الهوامش إذ جاء فيها: " هذه تعليقات بقول جدي، على ما حدث في الدير، وعلاقته بيعقوب وبناته، وفيها يقول أفكاراً عديدة على شكل يوميات وملاحظات" (ص58)

وكل ما جاء حول هذه العلاقة جاء في ثلاثة هوامش (ص 58- 59) إذ يتحدد بوصف يعقوب بأنه تاجر "الرجل تاجر" (ص58) وبأنه لا يجب الارتباط بالأمكنة " (ص59). وبعد أن عرفوا أن يعقوب يتحدث عن قدراته الخارقة، قالوا: إنه دجّال، وإنه لن يحل مشكلات الناس، ولن يشفي أمراضهم، أو أمراض دوابهم، وأن لا أمان له على الأطفال عندما يقوم بعملية الختان، وأنه لن يزرع شجرة، أو يربي بقره أو بغلة لأنه لا يحب الارتباط بالأمكنة مهما طال فيها، فيعقوب وأمثاله، ومنذ أن يخلق الواحد منهم تخلق معه جرثومة حب التنقل من مكان إلى آخر، وحب العزلة والانطواء، لأن الآخرين مثل الضوء يكشفون أعماقه ودواخله، وغاياته الرخيصة" (ص59) وبأن الأمر يقتضي طرد الرجل لأنه خطير وعدو وسيء " ..... وفتحن أمامهن بعض الأوراق التي كتبها، وقرأن فيها كلاماً يثير السخرية و المرارة، وبين أن كثيراً من الحشائش التي يوصي بالتعامل معها سامة، ومضرة بالجسم، وتؤدي إلى العقم، وقلن أن الواجب يقتضي طرد الرجل لأنه خطير وعدو وسيء لكن ... تعاليم الدين"(ص59)

عند هذا الحد نقف أمام حكاية تقف موازية تماماً للحكاية الأخرى حكاية يعقوب وبناته وسليمان، الذين جاؤوا من الشمال غرباء عن المنطقة ، ليستولوا على جزء

من أرض القرية قرب الجسر العتيق المبني على نهر الأردن الذي سيصبح اسمه فيما بعد جسر بنات يعقوب.

والرواية ليست تاريخاً وإن كانت تشير إلى أحداثها التي وقعت في بداية القرن الثالث عشر الميلادي أيام المماليك أو قبل ذلك بقليل،" وبالسؤال لم يؤكد أحد من أجدادي الإجابة بأن جدنا العلامة إلياس الشمنذوري هو من دوّن سيرة يعقوب وبناته بخط يده، ولذلك من المفيد القول أنه من الجائز بأن أحداً من أجداد جدنا إلياس هو من قام بتسجيل هذه السيرة، والفضل يعود إلى جدنا إلياس في المحافظة عليها من الضياع والبعثرة، وأيدي الزمان" (ص 7)

يشير الكاتب إلى أن سيرة يعقوب وبناته وصلت إليه ومعها الملحق وهو "الدير والرهبان" الذي جعله في مقدمة الكتاب لأنه تمهيد لأحداث ستأتي ومفاجآت ستحدث إذ يقول الراوي: " والشيء الوحيد الذي قمت به، وعن قناعة تامة، هو أنني قدمت ما أسماء جدي بالملحق إلى أول الكتاب لإيماني بأن ما من فائدة ترجى منه إذا ما بقي في آخر الكتاب، فهو، أي الملحق ليس تلخيصاً لما جرى ولا هو نتيجة أو فائدة، وإنما هو تمهيد لأحداث ستأتي، ومفاجآت ستحدث، وأحلام ورغبات يساهرها الناس، لكي تصير واقعاً" (ص8)

جاء هذا الملحق في خمسين صفحة وأصبح بذلك هو مقدمة الرواية ، ويقع في ثلاثة أجزاء تحت عناوين:

1. الدير والرهبان
2. .حنا المحرّم المر
3. الراهبات

وبقيت قصة الدير و الراهبات الثلاث المتخفيات بزي الرهبان حكاية موازية للحكاية الأساسية "حكاية يعقوب وبناته" ، ولم تقدم ما يفيد في تطوير حبكة الرواية، وهذا ما جعل الكاتب في مفتتح الرواية يشير إلى ذلك تحت عنوان : "في إشارة لا بد منها" يقول عن هذا التمهيد،"إنه تمهيد من النوع الذي يراوغ كثيراً، ويحاور كثيراً ويجهد كثيراً قبل أن تستوي المعاني على ألفاظها. إنه تمهيد يسعى إلى معناه ليس قبل بداية الرواية فقط، وإنما بعد الانتهاء منها أيضاً"(ص8)

ولعل الفائدة البارزة من الملحق هي: خلق جو يصور طغيان الشهوة وخيبة الأمل في الحب التي قادت الراهبات ووكيل الدير إلى الرهينة وخدمة الدير حيث حصل لكل واحد منهم ما قاده إلى ذلك.

حنا الذي سيصبح وكيل الدير أحب بديعة المتزوجة " ورضي حنا بحبها البعيد المنال، وصدودها عنه، وغيابها الدائم، رضي بمناجاتها في وحدته، واستحضار طيفها ومعانقته"(ص 25) وحينما تموت بديعة وزوجها ينذر نفسه للدير " وحين شاع الخبر، عم الحزن، وهجر حنا والديه، والصبايا اللواتي حوّمن حوله طويلاً، ونذر نفسه للدير بعدما أحس بأن بوابة الحياة انغلقت بوجهه.. وقد رحلت بديعة" (ص27)

أما الراهبات الثلاث المتخفيات بزي الرهبان فقد اخترن هذه الحياة ليخفين جراحهن العميقة وخذلانهن في الحياة إذ: " ..... عشن في أديرة كثيرة فترات قصيرة وطويلة، واعتدن الإخلاص، واللهفة على الآخر وارتضين بأن يكن مراهم شافية لجروح الناس الظاهرة منها والمخفية، وهن اللواتي أخفين جروحهن الكبيرة والعميقة داخل صدورهن دونما مراهم أو عزاء. لقد جمعن الحزن، والمآسي، والخذلان، في هذا الدير" (ص 30)

حيث انكسرت أحلامهن، "وكلهن كن يكثرن من الصلوات في ساعات القلق الطويلة، ولحظات الخوف المتواصلة، ومواقيت الطمأنينة حين يتآخين في هجعة واحدة فوق سرير واحد، على حلم وحيد انكسر، وما يزال ينكسر، تقصّف أمامهن مثل أعواد الحبق اليابسة!! كن حريصات على أن لا تظل الواحدة منهن وحيدة كي لا تكر عليها

مواجع الأيام، وكي لا تدهمها أحزان الماضي، كن مقطورات إلى بعضهن بإرادتهن، إن صمتت الواحدة منهن تتحايل الثانية عليها، وتخرجها من شرودها، وتسايرها بأي حديث كي لا يجرحها الصمت بهدوئه الحاد" (ص - ص 30- 31)

هذا ما يقدمه الجزء الخاص بالدير .... صورة لخيبة الأمل والرغبات المقموعة.

5- صورة الآخر في رواية جسر بناب يعقوب [21]

لا نتوقع من رواية جسر بنات يعقوب أن تكون رواية تاريخية ولا تسجيلية فهي خيال يأخذ من الواقع عناصر رمزية، ويرتد بها إلى تاريخ متخيل غير واقعي، ينسج فيها قصة الاستيطان اليهودي على أرض حقيقية، والقصة هنا ليست

---

[21] بنات يعقوب (جسر) يقع على نهر الأردن-على بعد قرابة كيلو متر من جنوب بحيرة الحولة التي جففت. ويبعد عن مدينة صفد حوالي 20كم. قيل في سبب الاسم: أن يعقوب النبي عبر الأردن من هذه المنطقة، وهو في طريقه إلى حران لزيارة خاله (لابان). أو في طريق عودته منها.. وتذكر بعض الروايات أن صلاح الدين الأيوبي هو الذي أنشأ هذا الجسر لربط طرق القوافل القادمة من فلسطين إلى دمشق. وجدده الملك الظاهر بيبرس. ويرجح البعض أن بناء الجسر والخان المجاورة له من الجهة الشرقية قد تم قبيل منتصف القرن الخامس عشر الميلادي ثم جدد بناؤه في أواخر القرن السادس عشر، ذكره أبو الفداء المؤرخ باسم (بنت يعقوب). وهو اليوم نقطة حراسة وبه معسكر للجيش الإسرائيلي. وهو مبني من الحجارة البركانية السوداء ورفع على أربع قناطر. (آمنة أبو حجر، موسوعة المدن والقرى الفلسطينية ، الجزء الأول، دار أسامة للنشر، 2003)

معادلاً للصراع العربي- الإسرائيلي كما عايشناه ونعايشه، ولكنها تأخذ من أبعاد الصراع زاوية واحدة تركز على الاستيطان وأساليب السيطرة على الأرض... وتعتمد لإيضاح ذلك إبراز صورة الآخر اليهودي في مقابل ابن الأرض ومالكها الأصلي.

ولأن الكاتب لم يرغب في أن تكون روايته بياناً سياسياً أو سرداً تاريخياً للأحداث. لذلك لا يقدم عبر فضاء الرواية صوراً مباشرة لتصادم العرب واليهود. بل جعل المناخ العام قرية الشماصنة التي تتحدث الآرامية وفيها الدير الذي يحذر من خطر يعقوب الداهم. هذا المناخ الروائي غير الواقعي يوحي بأن خطر الآخر ليس مرهوناً بالزمان وليس مرهوناً بالدين فالذي يحذر من يعقوب اليهودي هن راهبات الدير، وتكون الرواية في مجملها مكرسة لبيان صورة الآخر اليهودي دون أن يتم ذكر كلمة يهودي مرة واحدة في الرواية.

وتتجلى صورة الآخر في هذه الرواية في الشخصيات التالية ذات البعد الرمزي الواضح الدلالة لليهودي المعاصر وإن كانت الأحداث جرت قبل سبعة قرون:

- يعقوب الغريب القادم من الشمال (رمز لليهودي المهاجر إلى فلسطين)
- بنات يعقوب الفتيات اللاتي لا يتورعن عن استغلال الجنس للحصول على المال واللذة وتحقيق الأهداف.
- سليمان الغريب الذي سيطر على القرية مخفياً دينه ويشكل هنا أبوة ورعاية ليعقوب الوافد الجديد .ويكون رمزا للرأسمالية التي رعت الهجرة اليهودية إلى فلسطين ومولتها.
- شخصية العجوز وهي رمز للصهيونية العالمية التي تُوجّه سليمان ويعقوب وتعمل على دعم يعقوب وبناته.

وتكاد تلتقي الصور التي نقابلها هنا لهذه الشخصيات – كما أشرنا سابقاً – مع الصور النمطية السائدة لشخصية اليهودي من حيث الخصائص البدنية والأخلاقية.

حيث نجد الأنف الكبير لدى يعقوب وسليمان عطارة وشخصية التاجر الجشع الذي يستخدم كل الوسائل لتحقيق أهدافه حتى ولو كان على حساب الكرامة وبيع جسد البنات. وتبدأ قصة الآخر في رواية جسر بنات يعقوب ضمن الهوامش التي كانت عبارة عن"شكل يوميات وملاحظات" كتبها الجد "على ما حدث في الدير وعلاقته بيعقوب وبناته"(ص58)

5- 1 صورة يعقوب:

أول الصور التي نلتقيها ليعقوب – وهو اسم كما نعلم لإسرائيل- ليكون رمزاً لليهودي.

فهو شخصية أول سماتها بأنه تاجر باحث عن المال حتى لو كان على حساب كرامته ولو كان باستغلال جسد بناته وزوجته، وهذا هو رأي الرهبان فيه يقول الراوي:

"وقد سمع الرهبان بأخبار يعقوب كلها من الناس الذين زاروهم في قرية الشماصنة والقرى القريبة منها، وقالوا جملة واحدة ظلت في نفوس الآخرين "ترن مثل الجرس " الرجل تاجر"، "وأضافوا شارحين، لمن استوضحهم، بأن الباحث عن المال يصاب بالحمى، وإن أعيته الحيلة، وعجز عن الوصول إلى المال لا يتوانى عن بيع أي شيء يملكه حتى ولو كان كرامته !!، وأضافوا أن رأس مال يعقوب وكرامته هما بناته، ورأس مال البنات جمالهن، وحين يذهب يعقوب، ستتحرر بناته، وسيصير لهن حماة، وأعداء، وأن كل شيء، سيزول مع زوال الجمال، ومع

اختلاف العصاة الحماة، وزوال الأسباب التي جمعت العدو مع العدو قربهن"!! (ص58)

وصورة يعقوب الأخرى أنه شخص يحب العزلة والانطواء ولا يحب الارتباط بالأمكنة ولذا فإنه دائم الانتقال من مكان إلى آخر.

"....لأنه لا يحب الارتباط بالأمكنة مهما طال فيها، فيعقوب وأمثاله، ومنذ أن يخلق الواحد تخلق معه جرثومة حب التنقل من مكان إلى آخر، وحب العزلة والانطواء، لأن الآخرين مثل الضوء يكشفون أعماقه ودواخله وغاياته الرخيصة" !!(ص59)

ولكن هذه الصورة التي يقدمها الكاتب ليعقوب تخالف صورة اليهودي في القرن العشرين الباحث عن الاستقرار في مكان مناسب لحيازته ولاستملاكه، ولسوء الحظ أن هذا المكان الذي تم اختياره كان فلسطين.

وهو شخص خطير وعدو سيء إذ إنه يحاول استغلال حاجة الناس :

"....... اجتمعت الراهبات بالنساء اللواتي يذهبن إلى يعقوب من أجل أن يرزقن بالمواليد، وتحدثن إليهن طويلاً، ومرات عديدة بأن ما يفعله الرجل ضرب من الوهم، والسحر، والشعوذة ، وفتحن أمامهن بعض الأوراق التي كتبها، وقرأن فيها كلاماً يثير السخرية والمرارة، وبين أن كثيراً من الحشائش التي يوصي بالتعامل معها سامة، ومضرة بالجسم، وتؤدي إلى العقم، وقلن إن الواجب يقتضي طرد الرجل لأنه خطير وعدو وسيء .... "!! (ص59)

فيعقوب يتوصل إلى هدفه إذن بطرق ملتوية ولا يضيره لو ألحق الأذى بالناس كما كان يفعل حين قدم للنساء الأعشاب السامة الضارة بالجسم.

وأما هيئة يعقوب فهي تنقل إلينا صورة لشكل اليهودي الشكنازي الذي يجعله أحمر الوجه إشارة إلى أنه أوروبي، وأنفه بارز ويقدمه لنا بصورة كاريكاتورية فهو:

" ..... رجل قصير القامة، رثّ الثياب، أحمر الوجه، بارز الأنف والتجاعيد، وفي خريف عمره، يعرج من إحدى رجليه (من اليمنى تحديداً) خطواته أشبه بخطوات الكنغر، ذلك لأنه يبدو في مسيره كأنه يقفز قفزاً، كتفه اليمنى أكثر انخفاضاً من كتفه اليسرى، يتمطق بشفتيه لكأن شعرة أو بقايا طعام لا تزال عالقة في فمه، وهو عبثاً يحاول إخراجها طوال مسيره. يفرك بيديه، ويرقّص حاجبيه بآلية عجيبة" (ص 64)

ويختار يعقوب الجسر ليكون بدءاً لسيطرته على المنطقة وليكون الجسر رمزاً لفلسطين التي منها سيعبر لتحقيق أحلامه التوسعية في الوطن العربي حيث سيكون حارساً له وضامنه - كما ادّعى- بناءً على صك سلطاني:

وحين يسأله الرجل الطويل العريض المشمر

"..... إن كان هو ضيفاً، أو مهاجراً، أو رحالة، أو مطروداً، أو طالب علم ؟! أجابه يعقوب، ودونما شرح طويل أنه حارس الجسر وضامنه، واسمه يعقوب، والبنات اللواتي دخلن الكوخ بناته، وأنه سيحرس الجسر ويضمنه بموجب صك الحراسة والضمانة الممنوح له من السلطان." (ص69)

وهنا إشارة إلى أن تسلل اليهود كان بناءً على تآمر شاركت فيه قوى أخرى.

ولم يثر تسلل اليهود إلى فلسطين انتباه سكانها أو انتباه العرب قاطبة لخطورة تسللهم ومحاولة التملك والاستيلاء على الأراضي والمرافق "أجل لم يكن ذلك الموكب الصغير ليعقوب وبناته وحماره لافتاً للانتباه بحق، ذلك لأن معظم أهالي قرية الشماصنة كانوا يقيلون في بيوتهم، ولأن الرجل وبناته بدوا وكأنهم

عابرو سبيل ليس إلا." (ص71) ولم يتبيّنوا حقيقة المخاطر إلا بعد زمن من قيامهم بتولي أمر الجسر.

"..... لم يحتج إلى حراسة، ولم يضمنه أحد الناس والحيوانات يعبرون عليه من جهة إلى أخرى دونما إذن أو سؤال، فما بال يعقوب وبناته ؟؟ سؤال ردّدوه مرات عديدة، ولم يصلوا إلى إجابات عنه، ولم يتضح لهم معنى حراسة الجسر وضمانته إلا بعد وقت طويل !! (ص71)

لم يكن الترحيب الذي لقيه من وكيل المعصرة نابعاً من ذاته ، وإنما كان بناء على أوامر تلقاها من صاحبها سليمان وهو يتضح فيما بعد أنه يهودي يخفي دينه عن أهل القرية الذين لا يعلمون بهذا الحقيقة.

".... مرحباً بك أيها الجار، أنا شاهين وكيل المعصرة، أرسلني سيدي لأطمئن على وصولك، فحق ضيافتك علينا" ! (ص70)

قامت إسرائيل على العنف والتوسع، ولذا كانت الرؤية أن الاستيلاء على المكان الذي اختاره يعقوب يحتاج إلى التضحية حتى لو كانت بالنفس إذ لا بد من مباركته بالدم.

"ما يبكيني، يا بناتي، هو أنه لا مناص لي من تقديم دم طاهر لمباركة مكاننا الجديد هذا ، وبغير الدم لن يبارك الرب مقامنا" !! (ص73)

هذه الرؤية لوجود يعقوب تؤشر إلى أن الاستيلاء على الأرض سيحتاج إلى الدماء.

وشخصية يعقوب شخصية أنانية فهو لم يسع إلى افتداء زوجته

"…. ولأنني عجزت في لحظات ضعف بشري عن تجاوز طعم الآلام التي سببتها لي فما افتديتها، ولا سعيت إلى ذلك للأسف"!!(ص85)

وهو كذلك يخيف بناته:

"…. كان خوف البنات من أبيهن شديداً إلى الحد الذي جعلهن لا يشعرن بأصوات الحشرات المنبعثة من الأعشاب التي تندت." (ص86)

وهو وإن كان يؤمن بأن التضحية بإحدى بناته ضرورية لمباركة السيطرة وإحكامها، إلا أنه يستبدل بها التضحية بحماره.

وحينما قدّم يعقوب الحمار ضحية أراد أن تكون هناك مجابهة :

"…. كان يريد الفروسية في هذه المواجهة، أن تكون أضحية تعب ومجاهدة، غير أن الحمار خذله، فظل واقفاً وقفة البرودة، والاطمئنان والتسليم بما هو آت، وهذا ما عذّب يعقوب وزاد في أساه وأحزانه الراجفة" (ص90)

ويقوم بتوزيع لحم جثة الحمار وتوزيعها على حدود بيته وحول الجسر

" ….. لماذا ينشط في توزيع جسد الحمار قطعة قطعة على حدود البيت، وحول الجسر وكأنه يصنع بها سياجاً ؟! ولم يصلن إلى إجابات شافية." (ص - ص92-93)

وهو شخصية غير موثوقة فها هي زوجته تحذر بناتها من أبيهن الذي لا يؤمن جانبه الذي تاجر بزوجته وليس أميناً على بناته من أجل حفنة من المال.

" وقالت لنا محذرة: أن لا نأمن أبانا لأنه لم يكن أميناً علينا ولأنه يكلفنا بما لا تطيق، وبما يؤذي مشاعرها. لقد عاشت ليالي عديدة مع بعض الرجال من أجل

أن تأخذ منهم القليل القليل من المال ليسدد أبي ديونه ! وعملت معه طويلاً في المزارع، وتجارة البيض، وسايرت أصحاب الحول والطول وسكتت عن تصرفاتهم المخجلة من أجل أبي والمال معاً." (ص100)

ويعقوب **شخصية تائهة عاثرة** قادمة من الشمال:

" ... حيث ظل أبي تائهاً بين مهنة وأخرى، وعاثراً في كل ما تمسه يداه، إن وقف مشت الدنيا، وإن مشت وقف هو !! إلى أن خطرت له فكرة أن يتعلم مهنة الحلاقة عند أحد الحلاقين الأرمن؛ تلك الفكرة التي كانت سبباً من أسباب هجرتنا من الشمال إلى هنا" (ص100)

وهو **شخصية نذلة** إذ يطلب من زوجته لتنفيذ أهدافه أن تقبل بزواجها سراً من الأرمني مقابل أن يُعلّمه مهنة الحلاقة " ... إن الأرمني يريدها زوجة شرعاً وعلى مرأى من الناس وبمعرفته، فقال لها حاولي إقناعه أن يتم الزواج سراً !! فجنت أمي تماماً!! (ص101)

وتنقل يعقوب من مكان إلى أخر بعد انفضاح أمره في تقديم زوجته للأرمني الذي طرده " .... ومرت أيام كثيرة إلى أن واجهت أمي الأرمني، وقد ضاقت بتصرفاته ذرعاً، وكأنه زوجها تماماً، وقالت له الحقيقة !! فهاج الأرمني، وغضب غضباً شديداً، فطرد أبي من دكانه، وأشاع خبره بين الناس؛ الأمر الذي جعل أبي يهاجر من الشمال بعدما حقره الآخرون، ولاموه كثيراً ، وراح يقضي أيامه التالية مع أمي في تنقل موجع من مكان إلى آخر" (ص 102)

ويحاول يعقوب استدرار العاطفة بأساليب استجدائية.

" ..... ولماذا لم تتزين يا أبي فأنت ستواجه أهل القرية ؟! فيجيبها، وكأنه عثر على مفتاح الكلام أخيراً : لا أريدهم أن يطمعوا بي يا ابنتي، وتسأله : كيف ؟؟

فيقول: إنني بمنظري هذا أكسبهم للأبد، وتكرر ابنته سؤالها : كيف ؟؟ فيقول يعقوب : هم أهل عاطفة، يشاهدون، فينفعلون" (ص113)

ويعقوب ماهر كباقي اليهود في تسويق نفسه:

" .... واستدار يعقوب وجوديت متجهين نحو القرية، وقبل أن يجتاز الناس، واقف يعقوب بعضاً منهم، عرّفهم إليه، وإلى ابنته، ودعاهم لزيارته في بيته قرب الجسر ليعالج بعض حيواناتهم إن كانت مصابة بالأمراض، أو بالجروح، أو لكي يحذى الخيول والبغال، أو ليقص شعرهم الطويل، أو ليداوي أسنانهم المسوسة، أو ليطهر أولادهم، وهكذا .. خلال لحظات فقط، وابنته واجمة، راح يكرز لمهنة الحلاقة التي يتقنها، بل يكرز للحلاقة وتوابعها، الأمر الذي أدهش الناس من حوله، فتندروا به وعّدوه رجلاً مسلياً كسر رتابة مللهم وانتظارهم الطويل قرب المعصرة." (ص120)

والناس يصدقونه ".. كل هذه الأشياء والمخلوقات حصل عليها يعقوب دون مقابل. لقد أقنع الأهالي بأنه سيرد جميع ما اقترضه منهم حالما يستقر في مكانه الجديد، وحالما يشرع في عمله. بل أكد لهم أنه سيعيدها إليهم مضاعفة في قيمتها بعدما حدّثهم طويلاً عن قدراته وخبراته والمهن التي يتقنها، فصدقوه، وقد أحسّوا أنه بحاجة إليه فعلاً، هم ودوابهم، وأنهم لا يدرون متى سيطلبون منه خدمة ما في ليل أو نهار؛ لذلك ... أجزلوا له في العطاء وأسرفوا." (ص122)

ويدرك يعقوب غربته عن المنطقة

" .... لم نجد أحداً في استقبالنا، يا سليمان، لا البشر ، ولا الشجر، ولا المكان. أنا متشائم يا أخي، ومتعب ساعدني أرجوك، أين صدرك " ؟! (ص189)

" ما بالك يا يعقوب، أراك ضعيفاً، منكسراً قبل أن تهب ريح الآخرين عليك. يا رجل لو قارنت نفسك وأنت في أول قدومك مع أول قدومي إلى هنا، لرأيت عجباً، فأنا لم أجد من يناصرني، ولا من يرد تحيتي، وها أنت ترى الآن حالي، وكيف تعبت حتى وصلت إلى راحتي هذه. لا تخف يا أخي فأنا لن أتخلى عنك. معك سليمان عطارة يا رجل. فكف عن هذا الأسى، أرجوك !!" (ص 189)

والمال عند يعقوب هو كل شيء ولذا يحاول إقناع إحدى بناته بالزواج من سليمان

" سليمان يا بناتي، هو الدنيا!! من دونه لا نستطيع أن نعيش هنا. أن أعطيناه جوديت وهب الحياة لنا والسعادة"!، أنتن لا تعرفن شيئاً، الدنيا مال، والمال عند سليمان، ومن دون مال لا نستطيع أن نمشي خطوة واحدة "! (ص210)

" كيفما فكرنا بأمر سليمان وزواجك منه، يا ابنتي، سيكون الربح إلى جانبنا، فالولد الذي يأتي منه لنا، لا له" ! (ص 212)

والجسر يصبح رمزاً للسيطرة: "... أن الجسر سيصبح بوجود بنات يعقوب البقرة الحلوب التي لن يستغني عنها يعقوب أبداً، فالجسر سيكون حديث الناس في القرى المحيطة به وفي القرى البعيدة عنه، كما ستكون بنات يعقوب المشاجب التي سيعلق عليها يعقوب كل مشكلاته، وكل أعدائه، وكل أمانيه القادمة !!(ص227)

2-5 صورة بنات يعقوب:

الصورة التي يقدمها لبنات يعقوب متماثلة فهن يتسمن بنفس السمات من حيث الجمال ومن حيث الصفات الأخلاقية ، فبنات يعقوب الثلاثة يمنحن جسدهن لرحمون ويتبادلن مواقع الحراسة والملاصقة:

" ... ولم يدر رحمون، كيف تبادلت الأختان ولمرات عدة، مواقع الحراسة، وملاصقته ! كان غائباً تماماً في سحر العذوبة الأنثوية البعيدة المنال، كان أشبه بالدائخ الذي لا يقع، وبالساهر الذي ذبلت عيناه، فازدادت رهافة أصابعه، ونعومة جلده، بدا كما لو أنه جسد من الأثير يرى ولا يرى. وبدت الأختان بقربه، وبملاصقته، وبتوحدهما معه، وكأنهما الدنيا التي يشتهي فتوحد بهما، وأنبت كل لطافته، ولفهما، دون أن يدري بأنهما اثنتان، بالعذوبة التي أذابتهما، وأوقدت نارهما حتى صارتا كالتنور رؤية وجمالاً وحساً!! (ص105)

" ... ولم يكن ذلك المخلوق الأنثوي سوى الأخت الكبرى، ابنة يعقوب التي عادت لتوها من القرية، متعبة، لم يعدها إلى الحياة إلا سرّ رحمون الذي أفضت به إليها أختاها، فتحايلت على أبيها بمساعدة أختيها، وهبطت الدرب... إلى حيث هو رحمون يصلي. وهناك، وتحت شجرة التوت الكبيرة، وعلى مفرش العشب الندي الطري، حلمت كما حلمت أختاها، وعاشت كما عاشتا، وانتشت نشوتها المعذوبة. وبذلك تساوت مع أختيها بالتعب والمسرة الكاملة"!! (ص108)

وبنات يعقوب يدركن أن هذه الأرض ليست لهن ، حيث لا يعرفن أسماء الأمكنة والنبات

"..... وبدل أن تهدأ ابنته وتكف عن الأسئلة، تطارده بقولها الذي يكاد يفلقه: " وكيف لا تعرف أسماء الأمكنة والنباتات والأشجار يا أبي، وهي لنا"؟؟! ، وتزيد في

إلحاحها كسكين تحفر مجرى لها بهدوء: وكيف تكون لنا، ونحن لا نعرفها؟؟! وما من إجابة !! (ص112)

وأما جوديت فهي لا تسلم نفسها لسليمان زوجها إلا بعد أن نالت القطع النقدية : " ... ولم تسلس انقيادها له إلا عندما أخرج من صندوق خشبي كبير مصدف كيساً قماشياً صغيراً فارغاً مشدوداً بخيط من عند فتحته، وضعه في عنقها، وراح يملؤه بالقطع النقدية حتى ملأ الرنين الجميل الساحر أذنيها، لحظتئذ ابتسمت له، وأرخت رأسها على عنقه الذي لم يعد في نظرها عنقاً محمراً مطوّياً، وتركت نعومة خدها لزاوية فمه اليمنى التي ما عادت تشعر برطوبة لعابها الذي يسيل كمجرى ماء صغير له لمعته الدائمة."!!! (ص250)

5- 3 صورة سليمان عطارة:

ونلتقي بيهودي آخر هو سليمان صاحب المعصرة واسمه يدل عليه ويعيش في القرية كواحد منهم مخفيا شخصيته الحقيقية وهويته الدينية وليكون رمزا – كما أشرنا سابقا – للرأسمالية اليهودية .

".. فجاء أهل القرية إليه، عزّوه، وواسوه، وحملوا زوجته، بعد غسل جسدها وتكفينه إلى المقبرة، فدفنوها كما يدفنون ميتاً لهم، وأبدى أسفه الشديد لأنه وقد أصبح وحيداً تماماً، لم يستطع أن يكشف لهم عن دين زوجته ودينه أيضاً، وقد ابتلى بالموت، وشكا ليعقوب وابنته وحدته، وأنه ما من معين له سوى ماله. " (ص131)

وقد سيطر على القرية وهو يخفي هويته الدينية

" .... لقد تركت ديني أمام أهالي القرية يا يعقوب من أجل أن أعيش فيها كأني واحد من أهلها. وبت أنصرف إلى ديني حين اعتزل الأهالي وأخلو مع نفسي.

ورحت أشارك الناس هنا في الأفراح والأتراح معاً. أصلي مع المصلين، وأصوم مع الصائمين دون أن أكشف لأيّ منهم عن ديني!"(ص131)

وبدأ حياته حمالاً

" ... سعيت، منذ وصولي إلى الشماصنة إلى أن أظهر بين الأهالي فاشتغلت أول الأمر حمالاً في مواسم الزيتون. اشتريت عربة وبغلاً بالدين، ورحت أنقل أكياس الزيتون من الحقول إلى المعصرة. أخذت أجري (ثمنية) زيتون عن كل كيس."(ص132)

وملامح سليمان تشبه ملامح يعقوب التي توحي بغربته عن المكان وتعزز الصورة النمطية لشخصية اليهودي الأوروبي بأنفه البارز ووجهه الأحمر.

" .... بدا سليمان عطارة لجوديت كأنه الشبيه الكامل لأبيها، بل بدا كأنه التوأم الآخر، بوجهه الأحمر، وأنفه البارز، وجبينه المغضن ورأسه الأصلع إلا من بواقي شعر طويل متهدل فوق أذنيه الكبيرتين المحمرتين تماماً. يأخذ سائل أنفه بأصابع يده كلما تدلى غير مكترث بوجود الآخرين حوله، لكأنما اعتاد على ذلك منذ أمد بعيد. يغمر جسده بثياب رثّة، وقد انكشف طرف قميصه عن صدره الخالي تماماً من الشعر."(ص136)

وسليمان ينتظر المساندة والدعم من اليهود الآخرين إذ يرى بأن يعقوب جاء ليشد أزره :

"..... جئت لتشد ظهري يا يعقوب، فكيف أقطعك !! ويتركه يعقوب وابنته بعدما أعطاهما واحداً من حميره، وخرجا فلفهما الهدوء، وقد سها الصبية عنهما. وفي الطريق، سألت جوديت أباها عن سليمان عطارة، فقال لها: "إنه

قريبنا" !! وعندما استوضحته أكثر، قال بإيجاز: هو من أهلي، وقد سبقنا إلى هنا منذ سنوات " (ص137)

وسليمان كانت له بنت شقراء تعطي القبلة لمن يشتهيها وهو يلتقي مع يعقوب في أمر استغلال المرأة لتحقيق المصالح: " ... يعرف جميع أهالي قرية الشماصنة وبعض أهالي القرى المحيطة بها، أن سليمان عطارة، جاء إلى الشماصنة مع زوجته وابنته الشابة الشقراء التي ضيعت الكثير من الشبان، كانت بنتاً طويلة، ممتلئة، ذات شعر طويل أشقر، ووجه طويل أبيض، حمرته أشبه بحمرة الخوخ. كانت ضحوكة، لينة ذات قبول، تعطي القبلة لمن يشتهيها " (ص138)

خلال أشهر قليلة وباستغلال ابنته وردة أصبح سليمان امتلك كل شيء في القرية : " ..... وخلال أشهر قليلة فقط صارت المعصرة والأرض والبيوت والمخازن، ومعمل الجرار، والعربة وثلاثة بغال وعدد من الحمير، والأغنام، وطيور الدجاج ملكاً لسليمان عطارة مقابل الليالي التي قضاها عباس الشهواني مع وردة (ص139)

5- 4 صورة العجوز :

وتبرز في الرواية امرأة عجوز، وجودها ذو طابع أسطوري لتكون رمزاً فيما أتخيل للصهيونية العالمية، والتي لم يعجبها تضحية يعقوب بالحمار وتعاتبه على ذلك بقسوة عاتية : "أتضحي بحمار يا يعقوب"!!(ص115)

وتسأله " لماذا لم تضح بعضو من أعضائك "؟؟! وأضافت : "أين هي ذراعك التي قطعتها، أين هي عينك التي اقتلعتها، أين هي قدمك التي بترتها"؟؟! ، وحين تتعالى همهماته، تصرخ به : والرب يا يعقوب ؟! (ص116)

وهنا يتضح بأن المرأة العجوز ترى أن مباركة الاستيلاء على الأرض والجسر لا يمكن أن تتم إلا بالتضحية بالنفس.

فهذه العجوز (رمز الصهيونية العالمية) تساعد يعقوب في إقناع بناته للزواج من سليمان لتحقق بذلك تحالفا قوياً بين اليهود.

فحينما تقول ابنة يعقوب:

" لكن الزواج من سليمان موت لا حياة يا سيدتي"

تجيبها:

"أنت واهمة يا ابنتي، وافقي، فما من شر أو عذاب ينتظرك عنده" ، وتستدير العجوز راحلة، وهي توصيهن بحذر شديد: " لا تفعلن ما اتفقتن عليه، فالأب أب يا بناتي" !!(ص216)

والعجوز تبارك الزواج على الرغم من عدم التكافؤ بين العروسين:

" .... فوجئ سليمان عطارة بتلك المرأة العجوز ذات الشعر المكشوف الأبيض التي عرفته فوراً وأمرته أن يقترب منها، وأن يقف قبالة جوديت لكي تبارك زواجهما في ليلة مباركة، ووقت مبارك وبيد مباركة أيضاً"! (ص218)

وتطلب من سليمان مساندة يعقوب وتحمل معها نبوءة السيطرة على المكان:

" ستساعده يا سليمان، لأن يعقوب سيصبح سيد المكان، وفي مساعدتك له ربح لك لا خسارة أتفهمني. تشجع يا سليمان، وأجعل يدك قرب كيسك وأمدّه قبل أن تخسر الفرصة الممنوحة له"!! (ص226)

وتختفي العجوزهي وكوخها بلقطة فانتازيا بعدما اطمأنت على وضع يعقوب :

" ومع طلوع الفجر، استيقظ سليمان عطارة مذعوراً مرهقاً . جال ببصره في أرجاء المكان. لم يجد الكوخ الذي كان قربه قبل قليل، كما لم يجد العجوز. لقد اختفى الكوخ واختفت العجوز."! (ص228)

" غير أن العجوز ما عادت إلى الظهور، وما عاد صوتها يعلو أن يسمع. الحيرة استولت على سليمان عطارة، وصارت العجوز بالنسبة إليه لغزاً، وقد كانت ما حيّره كثيراً أن صوتها الآمر يأتيه من وراء ظهره دائماً"!(ص229)

ويتمثل شكل العجوز بالصورة النمطية لليهودي التي تشكل دوماً حارساً لمصلحة يعقوب وتمارس التهديد لمن لا يساعده

" الأمر وما فيه ، يا سليمان، أنني لم استيقظ هذا الصباح بمفردي كما أستيقظ عادة، لقد استيقظت على صوت امرأة عجوز طويلة، ناحلة، بيضاء، تلبس السواد، أنفها طويل بارز وعيناها واسعتان، وشعرها الأشيب الكثيف مثل أجمة الشوك، راحت تأمرني بأن أستيقظ، وتناديني باسمي، وحين فتحت عينيّ دهشت من منظرها، وقربها مني، فأنا لم أشاهدها من قبل، كما أنني لا أعرفها. رأيتها واقفة فوق رأسي مستندة إلى عصاها الطويلة ذات العقد فسألتها ماذا تريد، فقالت : "ساعد يعقوب الذي سيأتي إليك بعد قليل. أعطه ما يريد من الحجارة، وإلا ذهبت عافيتك، وانهدم المقلع على ما فيه" !! " ولم أدر كيف وافقت على طلبها، كما لم أدر لماذا جف حلقي فنسيت أن أسألها من هي ؟!" "ومن أين لها الجرأة حتى تتدخل في شؤوني، وتأمرني بأن أفعل أو لا أفعل، كانت لها مهابة مرعبة، جعلتني أحسبها مقتنعاً بأنها مخلوق ليس من سكان الأرض، هبط قربي فجأة ليأمرني بمساعدة يعقوب والأخذ بيده"! (ص 236- 237)

والعجوز قدمت ليعقوب ما لا يتوقعه من المساعدة : " لقد فعلت العجوز ليعقوب ما لم يكن يحلم به إطلاقاً. ومن دون أن يدري. فمنذ قدومه وهو يقطف هبات يوم رضاها واحدة واحدة "! (ص238)

5- 5 *صور شخصيات أهل الشماصنة:*

صور الشخصيات من أهل القرية التي تتعامل مع الآخر صور لشخصيات محدودة باهتة ولا تكاد نعثر على ملامح هامة لهذه الشخصيات ولعل الشيء الواضح فيها هو شهوانية تسيطر عليهم وتوظف لخدمة يعقوب وبناته مثل شخصية رحمون وسمعان والعبوسي وعباس الشهواني.

وأما **سمعان المعماري** فقد استغله يعقوب مقابل لذته فقط:

"...... ولكم ترك الحجارة ليقابل واحدة منهن، ولكم عاد إلى الحجارة ليواصل البناء. وما كان يدري أن هذه المحاضنات السريعة المحمومة هي أجرته فقط "!

"طبعاً، لم يكن يدري سمعان المعماري أن عماله الثلاثة أيضاً، نالوا مثلما نال وبعيداً عن عينيه. فانتشوا، وغابوا في لذة لم تكن في بالهم قط "!(ص244)

أما شخصية **رحمون** فهي شخصية مرتبطة بالأرض، ونجد رحمون مستغرباً وجود يعقوب وبناته في منطقته: "... ورحمون ينظر إليهم نظرات طويلة، سائلة، مستغربة!! ويعقوب يفرك بيديه، وقد جحظت عيناه، وبناته من خلفه من القنافذ ينتظرون ماذا سيقول رحمون، وبماذا سيجيب أبوهن!!" (ص78- 79)

6. الخاتمة:

القصة- كما أشرنا سابقاً- جزءان :

- **حكاية الدير الذي يخدم الشماصنة**
- **وحكاية بنات يعقوب / بنات إسرائيل**

صورة "النحن" في الرواية ـ وجودها شاحب ــ فوجوه أهل الشماصنة أشبه بالظلال، أشخاص سلبيون وفيهم سذاجة، يضحك عليهم سليمان عطارة ويسيطر على المطحنة وعلى القرية ولا يعرفون حقيقته .

الأشخاص من أهل القرية ومنطقتها غير فاعلين ، ويكون إشباع الشهوة واحداً من عوامل السيطرة عليهم مثل شخصية عباس الشهواني وسمعان المعماري ورحمون وعصمان (ص244) .

لا يظهر البعد الجمعي ولا الإيجابي لدى أهل الشماصنة ولا لدى أهل الدير .. فكل واحد منهم لا تعثر في زوايا شخصيته على بعد يتجاوز حدود الذات ، فمعظمهم أشخاص لديهم خيبات فردية تقودهم إلى ما هـم فيه .الراهبات المتخفيات في زي الرهبان ـ وجودهن في الدير نتيجة لخيبات في الحياة الدنيونية ويهربن منها إلى عالم الرهبنة ، ولكن دون أن يكون ذلك بإطفاء نهائي لروح العيش في عالم الحياة الدينوية .

- **الرواية عالمان : عالم الدير وقريته ، ثم عالم بنات يعقوب والجسر الذي يحتلونه**

لم يظهر لنا جوانب الصراع بين هذين العالمين، ولا نكاد نعثر على جوانب تمرد لمجابهة السلوك اليهودي في المنطقة إلا في موقفين حيث في الحاشية العاشرة نجد تفصيلاً صغيراً حول مشاجرات كثيرة حدثت بين يعقوب والناس " .... حيث تمرد الناس عليه، وأجبروه مرات عديدة على أن ينزل الجسر المعلق في الهواء دون أن يدفعوا شيئاً. وكان يعقوب يوافق مرغماً، يقول لبناته اللواتي يراقبن انكساره، ويعايشن وحدته، مع الأيام سيتعود الناس على الدفع قبل أن يعبروا سيجهزون ما سيدفعونه، الأيام كفيلة بهم" (ص253)

وفي الكتاب الثاني عشر "موت يعقوب" نجد أن هذا الموت كان على يد رجل رأى يشهد عري زوجته مع يعقوب، فيكون ثأراً شخصياً حيث يقتل زوجته ويقتل يعقوب وهما عاريان: " وحين التفت يعقوب نحو الرجل استشاط غضبه، فنهره وسبه، أما الرجل فقد ذهل تماماً وقد رأى ما رأى ولم يدر كيف التقط حجراً كبيراً وضرب به رأس يعقوب بقسوة شديدة فهرسه تماماً، وسط صراخ امرأته وعريها الفاضح، ووسط صياحه هو، وحالة الهيجان التي استولت عليها" (ص268)، ويلقي جثتهما في النهر " وعند ضفة النهر رمى الجثتين في الماء ثم غسل يديه من دمهما وكأن شيئاً لم يكن" (ص268)

ولكن هذا الرجل يلقى مصرعه إغراقاً في النهر على يد عصمان الأجير العميل لدى يعقوب:" ودون انتباه منه خرج إليه عصمان، وتقدم منه بكل ثقة، وقتله غرقاً في ماء النهر، ظل عصمان قابضاً عليه تحت الماء حتى خرجت روحه، بدا وكأنه استسلم لقوة عصمان، أو أنه استسلم لموته وراحته المنشودة بعدما فعل ما فعل" (ص 268)

المصادر والمراجع :

1. أ.أ رتشاردز : مبادئ النقد الأدبي. ترجمة د. مصطفى بدوي، القاهرة سنة 1963 ، ص 172.
2. آمنة أبو حجر، موسوعة المدن والقرى الفلسطينية ، الجزء الأول، دار أسامة للنشر، 2003)
3. أوستين وارن –رينية ويلك – " نظرية الأدب" ترجمة محيي الدين صبحي، دمشق، 1972،

i. الوتّاس عطية:حسن حميد

4. حسن حميد: جسر بنات يعقوب الطبعة الثانية (دمشق: دار السوسن للنشر والتوزيع والطباعة 2001

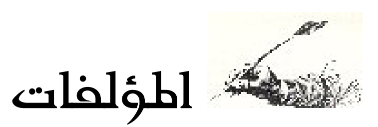
5. D. Goiten , Jews & Arabs :Their Contacts Through the Ages.3rd Edition .New York :Schocken Books 1974
6. Daniel J. Boorstin : The Image . A Guide to Pseudo – Events in America : Atheneum : New York , 1978 ,
7. *Doug Brook Turn down the stereotype[http://carfax.cnc.net/beholder/2005/beholder0505.html]*
8. Encyclopedia Britanica V.12 ed. 14 P.108
9. http://changingminds.org/explanations/theories/stereotypes.ht
10. http://www.popularculture.nelson.com/glossary.html
11. http://www.racialicious.com/2008/04/14/damned-if-you-do-jews-in-the-spotlight-stereotypes-and-identity-full-piece/
12. **http://www.zionism-israel.com/his/judeophobia9.htm**
13. Kenneth E. Boulding : : The Image . Ann Arbor : The University Of Michigan press . 1956
14. Kenneth E. Boulding : : The Image . Ann Arbor : The University Of Michigan Press .

15. Paul E. Grosser & Edwin G. Halperin: Anti-Semitism The Causes Effects of a Prejudice, Citadel Press, Secaucus, N . J. : 1979-p7.
16. Shipley Joseph T. "Dictionary of World. Literature", Little Field Adams and Co. New Jersey, 1968 ., P. 219
17. Wendi Muse Damned If You Do: Jews in the Spotlight, Stereotypes, and Identity



صالح خليل أبوأصبع

- دكتوراة في الاتصال الجماهيري –جامعة هوارد /واشنطن
- دكتوراة في النقد الأدبي والأدب المقارن – جامعة القاهرة
- أستاذ الاتصال الجماهيري بجامعة فيلادلفيا



المؤلفات

أولا: في النقد الأدبي :

1. **فلسطين في الرواية العربية** (بيروت : مركز الأبحاث 1975).
2. **قراءات في الأدب** (طرابلس : الشركة العامة للنشر والتوزيع 1978).
3. **الحركة الشعرية في فلسطين المحتلة** (ط 2 / عمان : جامعة فيلادلفيا 2009)
4. **الرواية الفلسطينية والمنفى : الجزيرة العربية مكانا** :(الشارقة : اتحاد كتاب الإمارات 2001)
5. **مطالعات في أدب المقاومة وثقافتها: فلسطين بين تحدي الوجود وثقافة التحدي** (عمان : دار البركة 2009)
6. **مرآة الزمن : قراءات في أربعة أجناس أدبية** (تحت الطبع عمان : دار البركة 2010)

ثانيا – قصص قصيرة :

1. **عراة على ضفة النهر** (القاهرة : مطبعة المعرفة 1972).
2. **محاكمة مديد القامة** (بيروت : دار القدس 1975).
3. **أميرة الماء** (بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر 1978).

4. **وجوه تعرف الحب** (قبرص : دار الملتقى 1992)

5. **قصص بلون الحب** : المجموعات القصصية (2001).

ثالثا: في الاتصال

1. **الإعلام والتنمية : نموذج مقترح للاتصال التنموي** (دبي:مؤسسة البيان للصحافة والطباعة والنشر 1985).

2. **قضايا إعلامية** (ط2 دار مجدلاوي 2005).

3. **دراسات في الإعلام والتنمية العربية** " تحرير وتقديم " (دبي:مؤسسة البيان للصحافة والطباعة والنشر 1989).

4. **الاتصال والإعلام في المجتمعات المعاصرة**. (ط5عمان : دار مجدلاوي ، 2006).

5. **مناهج البحث الإعلامي**- تأليف ويمير ودومينك (ترجمة)(ط2 عمان :دار آرام للدراسات والنشر 1998).

6. **إدارة المؤسسات الإعلامية في الوطن العربي** (ط2 عمان : دار آرام للدراسات والنشر1997)

7. **العلاقات العامة والاتصال الإنساني** (ط3 مزيدة عمان : دار الشروق 2008،)

8. **تحديات الإعلام : المصداقية الحرية والهيمنة الثقافية** (عمان : دار الشروق 1999)

9. **نصوص تراثية في ضوء علم الاتصال** (ط2 عمان : دار البركة 2008 للنشر والتوزيع).

10. **فنون الكتابة الإعلامية : فن المقالة** . بالاشتراك مع د.محمد عبيدالله (عمان : دار مجدلاوي 2001).

11. **استراتيجيات الاتصال وسياساته وتأثيراته.** (عمان : دار مجدلاوي 2005)

12. **في الثقافة الإعلامية** (عمان :الدائرة الثقافية - أمانة عمان الكبرى 2008)

13. **الاتصال والتنمية المستدامة في الوطن العربي** " تحرير وتقديم ومشاركة بمجموعة دراسات " عمان- جامعة فيلادلفيا 2009)

14. الاتصال الجماهيري2010 (**عمان : - دار البركة 2010**)

15. **الدعاية والرأي العام : مفاهيم وتطبيقات** تحت الطبع (**عمان : - دار البركة 2010**)

16. AFRO-ARAB CENTRICITY: A MODE FOR DEVELOPMENT COMMUNICATION (CANADA, ONTRIO: JERUSALEM INTERNATIONAL PUBLISHINGHOUSE,**1982**)

للاتصال بالكاتب

Fax (962-6) 4799048 **فاكس**

P. O. Box (123) Philadelphia, 19392 Jordan

بريد إلكتروني

sabuosba2000 @ yahoo. com